محاضرات
فى
تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى
حتى نهاية القرن العاشر الميلادى

إعداد

دكتور / محمد عبد الشافى المغربى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

رئيس قسم التاريخ

قنا ٢٠٢٢/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلية	التربية بقنا
الفرقة	الأولى
التخصص	جغرافيا
عدد الصفحات	٢٤٩
إعداد	أ.م.د محمد عبدالشافى

مقدمة :

جاءت العصور الوسطى بعد العصر القديم لتقتطع من تاريخ الإنسانية حوالى عشرة قرون أو أكثر تقريباً من الزمان ، وهناك كثير من الآراء والأفكار والنظريات التى قامت حول بداية هذه العصور ونهايتها ، والحقيقة أن اختيار سنة بعينها أوجدت محدد لتجديد البداية أو النهاية أمر شاق ، فالتطور التاريخى أشبه بنمو الإنسان ، فكما إننا لا نستطيع أن نحدد فترة زمنية معينة لينتقل فيها الإنسان من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب أو الشيخوخة .

فمن العسير أيضاً تحديد بداية هذه العصور أو نهايتها ، وبالتالى فإن مسألة تحديد بدايات ونهايات الحقب التاريخية ليست إلا محاولة اجتهادية ، فالتاريخ سلسلة متصلة الحلقات من الحقائق والأحداث المتراصة المترابطة التى لا يمكن تفتيتها أو فصل بعضها عن بعض ، وعلى أية حال فإن هذه الآراء والأفكار تبدأ عادة بالقرن الخامس الميلادى وتنتهى بالقرن الخامس عشر أو السادس الميلادى من سقوط روما على أيدى الجرمان سنة ٤٧٦م وتنتهى بسقوط القسطنطينية على أيدى الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م ، أو بحركة الإصلاح الدينى فى الغرب فى القرن السادس عشر ، ويقسم المؤرخون المحدثون تلك العصور إلى حقبتين متميزتين العصور المظلمة وتقع بين عامى ٤٠٠ و ١٠٠٠م ، والعصور الوسطى الحقيقية وتشغل القرون الستة الباقية ، ومنهم من يقسمها إلى ثلاثة حقب هى العصور الوسطى المبكرة والعصور الوسطى الحقيقية والعصور الوسطى المتأخرة .

ويسعدنى أن أقدم لطلابى فى جامعة جنوب الوادى مجموعة محاضرات تتناول أهم معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى حتى نهاية القرن العاشر الميلادى ، اعتمدت فيها على ما قدمه أساتذتى فى مجال العصور الوسطى من مؤلفات مختلفة ، وهى مؤلفات صافية قدموها لقراء العربية الكرام فى إبداع وأصالة

والله ولى التوفيق

دكتور

محمد عبد الشافى المغربى

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة من	الصفحة إلى
الباب الأول : العصور الوسطى الأوروبية وإشكالبية تحديد البداية والنهاية من الناحية الزمنية	٩	٣٣
الباب الثانى : **المسيحية والإمبراطورية الرومانية**	٣٤	١٠٤
الباب الثالث : **عالم الجرمان وغزواتهم وتأسيس ممالكهم فى أوروبا**	١٠٥	١٦٩
الباب الرابع : **سقوط الإمبراطورية الرومانية وآراء المؤرخون حول هذا السقوط**	١٧٠	١٨٦
الباب الخامس : **أوروبـا والإسـلام**	١٨٧	٢٠٨
الباب السادس : **الجزر البريطانية فى أوروبا العصور الوسطى من القرن الخامس إلى القرن العاشر الميلادى**	٢٠٩	٢٢٥
الباب السابع : **أوروبا الكارولنجية (شارلمان العظيم)**	٢٢٦	٢٥٠

الباب الأول
العصور الوسطى الأوروبية
وإشكالبية تحديد البداية والنهاية
من الناحية الزمنية

أهداف الباب الأول

بنهاية هذا الفصل يجب على الطالب أن يكون ملماً بتحديد إشكالية البداية والنهاية لتاريخ العصور الوسطي، ومعرفة المجتمعات التي تشكلت منها العصور الوسطي، ومراحل وفترات العصور الوسطى.

العصور الوسطى الأوروبية وإشكالبية تحديد البداية والنهاية من الناحية الزمنية

أولاً : صعوبة تحديد البداية والنهاية :

بين الغارات البربرية الكبرى فى القرن الخامس وبين فجر النهضة الأوروبية الحديثة فى القرن الخامس عشر مضت ألف سنة من عمر الزمان أطلق عليها عادة اسم " القرون الوسطى " أو " العصر الوسيط " .

غير أن الناس الذين نسميهم " رجال العصر الوسيط " لم يكونوا ليفكروا بهذه التسمية ، ولم يدر بخلدهم مثل هذه العاطفة بل إنهم كانوا يشعرون كما نشعر نحن بأنهم يعيشون فى عصر يعتبر نهاية لتطور سابق ، وبأنهم " رجال عصرهم " ، ولذا كانوا كما نحن عليه اليوم يعارضون بصورة غريزية رجال العصر القديم عندما يتحدثون عن عصرهم يقولون عنه بأنه " عصر حديث " ويعتقدون ويرون بأنهم أناس " محدثون " يختلفون كثيراً عن رجال " العصر القديم " .

ومن السهل بعد هذا أن ندرك أن الإنسان المثقف فى العصر الوسيط يفهم أن التاريخ عصران : العصر القديم الراحل ، والعصر الحديث الذى يعيش فيه .

ولكن متى بدأت العصور الحديثة ؟ إن العصر الوسيط الدينى لم يعرف الفصل فى أدوار التاريخ إلا تحت زاوية الدين ، ولذا فإن الحد الفاصل بين العصر القديم والعصر الحديث عنده هو ظهور المسيحية أو ظفرها فى عهد قنسطنطين ، ولا نجد فى العصر الوسيط نصاً يدخل حقيقة غير هذه الحقيقة ، وذلك لأن العصر القديم بدأ مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالوثنية ، ولا جدل فى أن الغارات البربرية فى القرن الرابع والخامس قد سجلت بداية حاسمة لعصر جديد فى مقدرات الشعوب . (١)

صفوة القول أن تاريخ كلمة " العصر الوسيط " يرجع إلى عصر النهضة ، فقـــد كـــان الأدبـــاء الإنســـانيون أول مـــن اســـتعملها ، وبخاصـــة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وغالباً فى القرن السادس عشر ، ثم تبنتاها المؤرخون بدورهم فى القرن السابع عشر وأشاعوا استعمالها .

وهذه التسمية تكشف عن عقلية خاصة ، فهى تعبر عن الازدراء الذى يشعر به المصلحون والعلماء والفنانون حيال العصور الوسيطة الواقعة بين العصر القديم وعصر النهضة الأوروبية ، فقد كان الأوائل يرونها دوراً طويلاً مليئاً بالتشويه المنظم للمسيحية البدائية، وكان الأواخر يصفونها بأنها عصور ظلمات ، وكانت إيطاليا خاصة تنظر إلى هذه العصور بأنها " غوطية " أى بربرية وتعتبرها عصوراً عقيمة باهتة ، وأقبح من ذلك عصور تأخر وانحطاط . (٢)

لقد وضعت قضية العصر الوسيط على بساط البحث منذ هجرات آخر القرن الرابع وأول القرن الخامس ، وتناقش المؤرخون حول بدايته ونهايته ووضعوا لذلك كما رأينا أبعاداً زمانية ومكانية ، ولاشك فى أن كل موقف من المواقف حول البداية يمكن الدفاع عنه ، لأنه يكشف عن جزء من الحقيقة ، ولكن الحادث الحاسم كان فى عبور القبائل الجرمانية نهر الراين والدانوب وتعاون روما والبرابرة والكنيسة واتصالها مع بعض اتصالاً وثيقاً فى عصر الغارات البربرية الكبرى . أما النقاش حول النهاية فلم يكن أقل حمساً وجداً ، ولكن المشاهد أن تبدلات كبيرة حدثت بين ١٤٥٠ و ١٥٥٠ حتى أن العلماء لم يشكوا فى أن عالماً جديداً بدأ فى دور التحضير والحمل منذ القرن الثالث عشر ، ولا ضير إذا بدأ أبكر من ذلك فى بعض الميادين وفى بعض المراكز الدينية والفكرية .

أما الإطار الجغرافى للعصر الوسيط فيشمل جميع البلاد التى أسهمت فى إشادة الحضارة المسيحية فى الغرب الأوروبى ، وقدمت عناصرها ونخص بالذكر منها بلاد بريطانيا العظمى ، بلجيكا ، ألمانيا الغربية ، إيطاليا اللومباردية

، كاتالونيا ، فرنسا الجنوبية والشمالية ، حيث أعدت هذه العناصر المختلفة والمتفرقة ونسقت بانسجام وصهرت معاً وتكون منها تركيب قوى متين البناء . (٣)

وفى هذا الشأن يقول الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور : وإذا كان أبناء المدرسة القديمة من المؤرخين قد أصروا دائماً على اتخاذ سنة ٤٧٦ – وهى السنة التى سقطت فيها الإمبراطورية فى الغرب – حداً فاصلاً بين العصور القديمة والوسطى ، وسنة ١٤٥٣ – وهى السنة التى سقطت فيها القسطنطينية فى أيدى العثمانيين وانتهت فيها حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا – حداً فاصلاً بين العصور الوسطى والحديثة ، إلا أننا لا نستطيع أن نسايرهم باطمئنان فى هذا الاتجاه ، ذلك أن اختيار سنة بعينها أو حدث بذاته لتحديد نهاية عصر من عصور التاريخ أو بداية عصر آخر يبدو فى نظرنا أمراً بعيداً بالتدرج والاستمرار وتداخل حلقاته بعضها فى بعض ، أشبه شئ بنمو الكائن الحى ، وكما أننا لا نستطيع اتخاذ لحظة بعينها ، نقول إن الفرد ينتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب أو من هذه المرحلة الأخيرة إلى مرحلة الشيخوخة ، فكذلك من المبالغة التاريخية أن نختار سنة محددة لنقول أن العصور القديمة انتهت فيها بجميع مظاهرها لتحل محلها العصور الوسطى ، أو أن العصور الوسطى توقفت فيها عن السير تماماً لتفسح الطريق للعصور الحديثة . وبعبارة أخرى فإننا نحب أن نؤكد ظاهرة تداخل العصور التاريخية بعضها فى بعض بحيث لا تفصلها حدود ضيقة وسنون معينة ، وإن كان من الممكن أن نتلمس العذر للمؤرخين عندما يصطلحون على اختيار بعض السنوات الهامة أو الأحداث الكبرى لتكون فواصل بين العصور التاريخية ، بأن الغرض من ذلك هو مجرد الرغبة فى تسهيل البحث على أساس أن هذه السنين وما تم فيها من أحداث كبرى هى أخطر الوقائع فى مرحلة الانتقال بين عصر وآخر .

وكل ما هنالك هو أننا نلمس فى القرن الرابع حدوث بعض التطورات الخطيرة التى كان لها أثر فى تغيير وجه التاريخ القديم ، وإن ظلت معالم هذا التاريخ القديم باقية فى أوروبا إلى ما بعد القرن الرابع بكثير ، من ذلك ما شهده ذلك القرن من اعتراف الإمبراطورية بالديانة المسيحية سنة ٣١٣، ونقل عاصمة الإمبراطورية إلى القسطنطينية سنة ٣٣٠ ، وازدياد خطر الجرمان على كيان الإمبراطورية الرومانية عقب موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ ، واتخاذ المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية سنة ٣٩٢ ، ثم تقسيم الإمبراطورية الرومانية الكبرى إلى قسمين شرقى وغربى سنة ٣٩٥ ، فالقرن الرابع إذا يمثل العصر الذى اجتمعت وتفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التى كيفت تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، وهى الكنيسة المسيحية والجرمان والإمبراطورية ، فلا أقل من أن تبدأ دراستنا لتاريخ أوروبا فى تلك العصور باستعراض أحوالها عند مستهل القرن الرابع دون أن نرتبط بسنة معينة فى بداية ذلك القرن أو نهايته ، كذلك يلمس الباحث فى تاريخ القرن الخامس عشر أن ثمة تطورات هامة أخذت بالمجتمع الأوروبى – وبخاصة فى النصف الأخير من ذلك القرن – لتغير المألوف وتنتقل بذلك المجتمع – تدريجياً – نحو أوضاع أخرى جديدة ، ففى سنة ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية – عاصمة الإمبراطورية العتيدة – فى أيدى العثمانيين ، مما ترتب عليه حدوث انقلاب خطير فى شرق أوروبا نتيجة لاتساع نفوذ العثمانيين ، حقيقة أن هذه لم تكن المرة الأولى التى تسقط فيها عاصمة الإمبراطورية البيزنطية فى أيدى الأعداء ، فقد سبق أن سقطت فى أيدى رجال الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ ، وعندئذ تعرضت الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها لأشد أنواع العبث على أيدى الصليبيين ، ولكن على الرغم من العداء المذهبى الشديد بين الصليبيين الكاثوليك والبيزنطيين الأرثوذكس إلا أننا يجب أن نذكر أن هؤلاء الصليبيين كانوا مسيحيين غربيين ، أما العثمانيون الذين استولوا على القسطنطينية ١٤٥٣ فلم يكونوا مسيحيين أو غربيين وإنما كانوا مسلمين

شرقيين ، مما يوضح خطورة الانقلاب الذى تعرضت لـه أوروبا وحضارتها نتيجة لذلك الحدث ، وإذا كانت سنة ١٤٥٣ تمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخ ذلك الجزء الشرقى من أوروبا ، فإن هذه السنة ذاتها قد تكون عديمة الأهمية بالنسبة لكثير من بقية بلاد أوروبا ، حقيقة أنها شهدت أيضاً هزيمة الإنجليز فى موقعة شاتيلون وبذلك وضعت نهاية فعلية لحرب المائة عام . (٤)

ولإيضاح هذه المسالة نقول أن دراسة أى عصر تعنى إلقاء الضوء على النظم والحضارة السائدة فيه من اجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية وفكرية وغيرها ، وليس من الحكمة القول بأن كل هذه المظاهر التى يتميز بها عصر ما تنتهى فى يوم بالذات لتحجل محلها بشكل فجائى وعلى الطريقة المسرحية خصائص أخرى جديدة مغايرة ، وعلى هذا فإن قيام العصور والحركات الهامة فى التاريخ ، وأن قيام الدول والإمبراطوريات وانهيارها ، وأن الأحداث الخطيرة التى تؤثر تأثيراً بالغاً فى مجرى التاريخ البشرى ، كل هذه لا يمكن أن تكون فجائية ، إنما هى عبارة عن عمليات تطور بطيئة مستمرة تحتاج إلى فترات من الوقت ممتدة متباعدة .

ولقد سار المؤرخون على هذا النهج فى أبحاثهم ودراساتهم ، وكانوا يختارون حادثة أو واقعة لها دلالتها أو تاريخاً له أهميته ليكون نقطة البداية أو النهاية لفترة ما . (٥)

ثانياً : مجتمعات العصور الوسطى :

إن الدارس للتاريخ يلاحظ أن عالم العصور الوسطى قد اشتمل على ثلاثة مجتمعات كبيرة هى – حسب ظهورها التاريخى – المجتمع البيزنطى الذى ورث الجانب الشرقى من أملاك الإمبراطورية الرومانية والمجتمع الأوروبى الذى عاش على أراضى الجانب الغربى للإمبراطورية الرومانية ، والمجتمع الإسلامى

الذى بدأ من شبه جزيرة العرب ثم ما لبث أن احتوى أملاك الدولة الفارسية وجانباً كبيراً من أملاك الإمبراطورية الرومانية هو الشام وآسيا الصغرى والشمال الإفريقى من مصر حتى المحيط الأطلسى وأسبانيا وغير ذلك من آسيا وإفريقيا .

والمجتمع الأول وهو البيزنطى قد اتخذ من الديانة المسيحية ديناً له شأنه فى ذلك شأن المجتمع الأوروبى ، ولكنه اختلف عن المجتمع الأوروبى فى اتخاذ المذهب الأرثوذكسى مذهباً مسيحياً رسمياً لدولته ، وقد اتخذ هذا المجتمع من مدينة القسطنطينية عاصمة له ليحكم الأراضى التابعة له التى تضمنت شعوباً مختلفة ، منها ما آسيوى أو إغريقى أو سلافى وغير ذلك من الشعوب التى كانت تتحرك فى شمال أوروبا وغربى آسيا ، والملاحظ هنا أن أملاك الإمبراطورية البيزنطية قد تقلصت مع الزمان ولكن عاصمتها وهى القسطنطينية ظلت باقية طالما بقيت الإمبراطورية البيزنطية .

أما المجتمع الثانى وهو المجتمع الأوروبى فقد اشتمل على العناصر الرومانية بعد انهيار الإمبراطورية ، هذا بالإضافة إلى العناصر التى وفدت إليه على شكل هجرات أو غزوات وهو ما يعرف فى التاريخ باسم الغزوات الجرمانية ، وقد حملت هذه العناصر معها حضارتها التى اختلطت بالحضارة الرومانية وظهر مجتمع جديد كان فى بداية الأمر يعتنق غالبيته الديانة المسيحية على المذهب الأريوسى ، ثم ما لبث أن تخلص من الأريوسية واتخذ المذهب الكاثوليكى ، وإذا كانت مدينة روما ظلت مركزاً لهذا المجتمع فى مطلع العصور الوسطى من الناحية السياسية والروحية فإن هذا المركز تلاشى فى مراحل لاحقة واقتصر على السيادة الروحية فقط لتواجد المركز البابوى بها .

وفيما يتعلق **بالمجتمع الثالث** وهو المجتمع الإسلامى الذى بدأ بظهور الإسلام ، فقد أصبح له دولته المتميزة سياسياً وحضارياً لقيامها على مفهوم إسلامى مستمد من شريعتها ، وإن كان هذا المجتمع بدأ صغيراً مع

الدعوة المحمدية فإنه ما لبث أن انتشر سريعاً وساد أقاليم شاسعة لما بعثته الدعوة المحمدية فى الشعوب المعاصرة .

وما يعنينا فى هذه الدراسة هو المجتمع الأوروبى فى غرب أوروبا ، وواقع الأمر أن العصور الوسطى ليست عصوراً منفصلة عن العصور القديمة أو العصور الحديثة فهى مرحلة من مراحل التاريخ الطويلة يصعب تحديد بدايتها أو نهايتها بحادثة محددة مثل تولية ملك أو إمبراطور أو معركة عسكرية لها أهميتها ، ومن المتفق عليه أن التطور التاريخى يسير فى حركة غير ملموسة تكون مدخلاً لعصر آخر له أبعاده السياسية والحضارية التى تميزه عن مرحلة سابقة وأخرى لاحقة . (٦)

ثالثاً : الآراء والأفكار والنظريات التى دارت حول بداية العور الوسطى

وضع بعض المؤرخين سنة ٢٨٤م كنهاية لتاريخ الدولة الرومانية وبداية للعصور الوسطى ، وهى السنة التى تولى فيها الإمبراطور دقلديانوس *(Diocletian)* (٢٨٤ – ٣٠٥م) عرش الإمبراطورية ، وهناك أكثر من سبب دعا لهذا الاعتبار منها أن الإمبراطور أوغسطس (٣٠ ق.م – ١٤م) قد وضع أساس القاعدة القائلة بأن الإمبراطور هو أول رومانى حر فى روما ، ولكن دقلديانوس نحا نحواً مغايراً ، إذا اعتنق مبادئ الملكية الشرقية التى تجعل من الملوك أشخاصاً فوق القانون وفوق الشعب بل وتجعلهم فوق مستوى البشر ، فهم اقرب للآلهة منهم للناس ، فالملك فى نظره نصف إله يجب أن يؤدى له الشعب فروض الطاعة والعبادة والولاء ، ثم أن حكم دقلديانوس يتسم بتلك الفظائع التى ارتكبها ضد المسيحية باعتبار أن الدين الجديد منافس خطير لعبادة الإمبراطور ووحدة الإمبراطورية ، وباعتباره دولة داخل الدولة ، فقد هدم الكنائس وحرق الكتب المقدسة ، وبالغ

فى اضطهاد المسيحيين فى جميع أرجاء الإمبراطورية فعذبهم وشردهم وقتلهم لدرجة أن الاضطهاد الذى حدث فى مصر وقتئذ جعل الأقباط يقررون فيما بينهم استخدام تاريخ تولية الحكم كبداية لتاريخ السنين القبطية ، وعلى هذا الأساس تبدأ السنة القبطية من سنة ٢٨٤م التى تعتبر سنة الشهداء ، ويبدو أن هناك أخطاء تاريخية تتعلق بدقلديانوس واضطهاداته التى يشوبها شئ من المبالغة والتهويل ، فمن الثابت أن هناك اضطهادات أفظع من تلك التى ارتكبها دقلديانوس وبخاصة تلك التى وقعت أيام نيرون وفاليريان وجاليريوس وماكسنيوس وغيرهم ، ومن الدواعى الأخرى التى دعت إلى اختيار بداية حكم دقلديانوس كبداية للتاريخ الوسيط أنه يعتبر حداً فاصلاً بين زمنين منفصلين تقريباً ، فقد كان هذا الرجل أول من فكر فى أمر تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين أحدهما شرقى والآخر غربى ذلك التقسيم الذى لم يأخذ شكله النهائى الطبيعى إلا فى عهد قسطنطين الكبير فى أوائل القرن الرابع ، ومن ذلك يجب أن نفهم أن وجود حاكم فى الشرق مقره القسطنطينية وآخر فى الغرب مقره ميلان أو رافنا فى عهد خلفاء دقلديانوس لم يضعف من وحدة الإمبراطورية الرومانية بمعناها المعروف وقتذاك ، بل كان هذا فى واقع الأمر وعلى حد قول أحد مؤرخى القرن الرابع الميلادى عبارة عن انفصال ظاهرى فقط ، فقد كانت نفس القرنين والأنظمة الحكومة ، بل ونفس التقاليد الرومانية معترفاً بها آنئذ من كلا الحاكمين وفى كلا العاصمتين . (٧)

ويتخذ البعض عصر الإمبراطور قسطنطين الأول *(Constantine_I)* (٣٠٥ –٣٣٧م) مدخلاً للعصور الوسطى لأن قسطنطين تمكن من القضاء على الحرب الأهلية داخل الإمبراطورية واصبح حاكماً لا منافس له ، كما صاحب عهده تغيرات جذرية فى مجالات متعددة ومن هذه التغيرات الاعتراف بالديانة المسيحية كدين فى الدولة إلى جانب الوثنية عندما صدر مرسوم ميلان *(Edict of Milan)* عام ٣١٣م هذا بالإضافة إلى بناء مدينة القسطنطينية

واتخاذها عاصمة للإمبراطورية ، ثم إصلاحاته المتعددة فى الجوانب التشريعية والعسكرية والإدارية . (٨)

والبعض يرى اعتبار سنة ٣٣٠م كبداية للتاريخ الوسيط لأنها السنة التى تم فيها تشييد مدينة القسطنطينية التى بدئ فى تشييدها فى نوفمبر ٣٢٤م وتم تدشينها فى مايو ٣٣٠ . (٩)

يحدد فريق آخر من المؤرخين سنة ٣٦١م كبداية القرون الوسطى وهى سنة اعتلاء الإمبراطور جوليان المرتد *(Julian,the Apostate)* عرش الإمبراطورية الشرقية ومحاولته الفاشلة للقضاء على المسيحية وإعادة الوثنية من جديد كدين رسمى للحكومة . (١٠)

النظرية الخامسة :

ويحدد البعض سنة ٣٧٦م كنهاية للقديم وبداية للعصر الوسيط ، على أساس أنها كانت السنة التى تحول فيها أحد العناصر الجرمانية وهو عنصر القوط الغربيين من الوثنية إلى المسيحية على يد أسقف أريوسى اسمه أولفيلاس ، وترجع أهمية هذا التاريخ فى نظر المؤرخين إلى اهتمامهم العظيم بموضوع البرابرة ، وما كان بعدئذ من القوة والجبروت فى غزواتهم التى اكتسحوا بها روما ، ويمكن الأخذ بهذا التاريخ كنقطة تحول لمجرى التاريخ العام ، فاعتناق القوط الغربيين المسيحية جعل الأباطرة الشرقيين يسمحون لهم بعبور الدانوب والاستقرار بصفة مؤقتة فى جوف الإمبراطورية البيزنطية ، وكان هذا من البدايات التى تدل على غزوات البرابرة فى أوروبا ، وجدير بالذكر أن القوط عندما نزلوا فى الإمبراطورة إنما كانت تدفعهم عناصر أخرى أشد بربرة منهم ، إذ كانت تدفعهم قبائل الوندال من الشمال وقبائل الهون من الشرق . (١١)

وترى مجموعة من المؤرخين أن معركة أدرنة *(Adrianpole)* التى دارت رحاها عام ٣٧٨م تصلح لتكون نهاية للتاريخ القديم وبداية للتاريخ الوسيط ويعللون وجهة نظرهم بأن القوط الغربيين بعدما عبروا الدانوب استقروا

فى مواشيا *(Moesia)* وتراقيا *(Thrace)* قد ضاقوا بهذه المناطق ودخلوا فى صراع مع الإمبراطورية وحاربوها وانتصروا عليها فى معركة أدرنة وهى المعركة التى قتل فيها الإمبراطور فالنز *(Valens)* (٣٦٤ – ٣٧٨م) وهزمت جيوش الإمبراطورية هزيمة ساحقة ، وكان لهذه المعركة والنتائج المترتبة عليها أثراً كبيراً فى تاريخ الإمبراطورية حتى أن بعض المؤرخين شبهوها بمعركة كانا *(Canay)* التى وقعت فى عام ٢١٦م بين الإمبراطورية الرومانية وهانيبال وقتل فيها ما يقرب من خمسين ألف واسر حوالى ثلاثة آلاف من قوات الإمبراطورية . (١٢)

وفى ختام تلك النواحى الدينية نقول إن بعض المؤرخين يضعون حكم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول *(Theodouius-I)* (٣٧٩ – ٣٩٥م) نقطة البداية للتاريخ الوسيط ويحددون سنة ٣٧٩م لتكون نهاية للتاريخ القديم وبداية الوسيط ، ومرجع ذلك أن هذا الإمبراطور قرر فى هذا العام القضاء على العناصر الوثنية وعلى اتباع المذهب الأريوسى وقد تجلى ذلك فى مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م الذى أقر نهائياً عدم شرعية المذهب الأريوسى وفرض العقوبات على أتباعه كما وقف فى وجه الوثنيين وأقفل مراكز عبادتهم وأصدر التعليمات الكفيلة بعدم مباشرتهم طقوسهم وحرق ما هو مدون من تعاليمهم . (١٣)

ويجعل البعض الآخر سنة ٣٩٥م كنقطة التحول إلى التاريخ الوسيط على أساس أن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول *(Theodosius-I)* قسم هذه السنة الإمبراطورية الرومانية التى كانت لا تزال تحت حكم شخص واحد إلى قسمين منفصلين مستقلين عن بعضهما تماماً ، وليس كما سبق فى عهد دقلديانوس لأن تقسيمه هو وأتباعه للإمبراطورية كان تقسيماً صورياً فحسب ، إذ كانت الإمبراطورية حتى حكم ثيودوسيوس لا تزال وحدة واحدة فى مجموعها على الرغم من انقسامها انقساماً فرعياً إلى

فرعين ، ولكن ثيوديوسيوس قسمها إلى قسمين أحدهما غربى والآخر شرقى ، وقد أعطى الجزء الشرقى لابنه أركاديوس *(Arcadius)* والجزء الغربى لابنه الآخر المسمى هونوريوس *Honorius* ، واصبح كل منهما مستقلاً عن الآخر وأسس لنفسه دولة وأسرة قائمة بذاتها ، وهذا يعنى بكلمة مختصرة بداية دولة جديدة فى الشرق فى الوقت الذى كانت فيه دولة الغرب فى طريقها إلى التدهور والانهيار أمام جحافل الجرمان البرابرة . (١٤)

يرى غالبية المؤرخون أن عام ٤٧٦م هو اصلح وأنسب بداية لتاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، ففى هذا العام استطاع البرابرة الجرمان الاستيلاء على روما والقضاء على شبح الإمبراطورية الرومانية الغربية فى شخص آخر أباطرتها الضعاف وهو رومولوس أوجستولوس والأكثر من ذلك أن القائد الجرمانى المنتصر ادواكر أرسل شارات تلك الإمبراطورية إلى الإمبراطور البيزنطى زينون (٤٧٤ – ٤٩١م) وطلب منه أن يقرره على حكم إيطاليا ، وشفع طلبه بموافقة رجال السناتو الذين أكدوا لزينون حاجتهم لإمبراطور يتولى حكمهم ، وأنه يكفيهم أن يتولى زينون إمبراطور القسم الشرقى والإشراف على أحوال إيطاليا .

وهذا يعنى أن الانفصال بين الإمبراطورية الشرقية والغربية الذى وضع جذوره الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م) ، وأكده ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ –٣٩٥م) أصبح الآن حقيقة واقعة ، وبذلك تنتهى الإمبراطورية الرومانية الغربية القديمة بحضارتها ونظامها وتبدأ العصور الوسطى بأفكارها وفلسفتها .

فى حين يرى البعض أن عام ٤٧٦م ليس حداً فاصلاً بين العصر القديم والعصر الوسيط لأسباب من بينها :

١- أن الإمبراطورية فى الغرب قد فقدت كافة مظاهر القوة كما أن إيطاليا تعرضت لغارات الجرمان قبل ذلك العام ، لذلك لم يؤد عزل الإمبراطور

الصغير رومولوس على يد ادواكر عام ٤٧٦م إلى تغيير فى الحالة القائمة .

٢- أن ادواكر نفسه لم يقصد بعمله هذا أن يبدأ عهداً جديداً أو أن يحدث انقلاباً من نوع غير معروف ، بل إنه كان يطمع فى أن يحظى بما حظى به زعماء الجرمان داخل حدود الإمبراطورية . (١٥)

النظرية التاسعة :

فكرة أخرى قال بها بعض المؤرخين بأن سنة ٤١٠م تعتبر بداية العصور الوسطى على أساس أن القوط الغربيين تحت قيادة ملكهم الشهير المسمى الاريك *(Alaric)* يكتسحون مقونيا وما وراءها من الأراضى اليونانية فى سنة ٤٠٠م إلا أن القائد الرومانى المدعو ستيليكو *(Stilicho)* قام بحركة دفاعية ضد هذا العنصر من البرابرة وهزمهم شر هزيمة سنة ٤١٠م فاضطر هؤلاء أن يبحثوا لهم عن موضع آخر يلتمسون فيه سبيل الرزق والإقامة ، فاتجهوا غرباً إلى إيطاليا ، ودخول القوط الغربيين *(Visigoths)* إيطاليا له أهميته الكبرى فى التاريخ بحيث جعل بعض المؤرخين يعتمدون على هذه الحقيقة فى بداية التاريخ الوسيط ، ذلك أنه فى سنة ٤١٠م تمكن هؤلاء البرابرة من اكتساح إيطاليا بما فيها روما نفسها . (١٦)

وتشير مجموعة أخرى من المؤرخين إلى الإمبراطور جستنيان *(Justinian)* (٥٢٧ – ٥٦٥م) على اعتبار أن عهده يفصل بين القديم والوسيط ويعللون وجهة نظرهم بالأعمال الكبيرة التى قام بها هذا الإمبراطور فى الداخل والخارج ، ومن ذلك ما قدمه لنا من تشريعات ظلت باقية لفترة طويلة من الزمن ، وما صاحب عصره من حركة معمارية ظل بعضها إلى يومنا هذا ، هذا بالإضافة إلى ما قام به من محاولات عسكرية لإعادة أراضى الإمبراطورية وبخاصة فى استرداد شمال إفريقيا من الوندال وإيطاليا من القوط الشرقيين وجانباً من أسبانيا من يد القوط الغربيين ، ولما كانت محاولته هذه تعتبر آخر

محاولة قام بها إمبراطور رومانى ، فإن ما حدث يعتبر نهاية لمجد الإمبراطورية الرومانية لأن خلفائه من بعده فشلوا فى الحفاظ على هذه الأراضى ، وعلى ذلك يعتبر عصره مرحلة جديدة تنقلنا إلى عصر جديد هو عصر التاريخ الوسيط . (١٧)

ويذهب عدد آخر من الكتاب أن العصور الوسطى تبدأ فى ليلة عيد الميلاد فى روما سنة ٨٠٠م عندما تم تتويج شارلمان أو شارل العظيم *(Charles,the Great)* إمبراطوراً على الغرب ، وعندما تم إحياء الإمبراطورية القديمة تحت اسم " الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة " لتتلائم مع مقتضيات الظروف والأوضاع الجديدة المغايرة بعد انتصار الجرمان والمسيحية على الوثنية والدولة الرومانية القديمة .

ولقد كانت هذه الدولة الجرمانية المسيحية الناشئة فى الغرب وسند الفئة التى تأخذ بهذا الرأى أن شارلمان كان فى الواقع آخر أباطرة الرومان بالمعنى الرومانى القديم ، وأن فشل مشروعه لإحياء دولة القياصرة القدماء أو استحالة إحيائها لهو برهان واضح على أن ظروف العالم الأوروبى قد تغيرت تغيراً تاماً لا يمكن العودة بها إلى الوراء ، ويرى المؤرخ نورمان بينز *(N.Baynes)* أن هذه النظرية تشيع فى الواقع رغبة مؤرخ النظريات السياسية أو الباحث فى تاريخ أوروبا الغربية ، إلا أن أهميتها تتضاءل بالنسبة للدارس فى مصير الإمبراطورية الرومانية الشرقية . (١٨)

بعد هذا العرض المحدود لأهم الآراء التى دارت حول سقوط الإمبراطورية الرومانية وبداية التاريخ الأوروبى الوسيط ولكل منها ما يؤيدها يمكن القول أن هناك عوامل متداخلة أثرت بشكل أو بآخر فى تحول المجتمع الأوروبى إلأى التاريخ الوسيط ، وإن هذه العوامل سارت بدرجة غير ملموسة حتى شكلت التاريخ الوسيط ، وعلى أية حال فإنه إذا تمعنا فى الآراء التى سبق عرضها نجد أن القرن الرابع الميلادى قاسماً مشتركاً فى معظم الحالات ، وأن

هذا القرن قد شهد تطوراً فى مجالات سياسية وحضارية كان لها أكبر الأثر فى المجتمع الأوروبى ومن ذلك الاعتراف بالديانة المسيحية ديناً فى الدولة ثم الاعتراف بها ديناً رسمياً للدولة ، وظهور بعض الغزوات الجرمانية التى اجتاحت أوروبا وازدياد حدتها مع زيادة ضعف الإمبراطورية والتقسيم الإدارة الذى فصل الجزء الشرقى عن الجزء الغربى من الإمبراطورية وعلى ذلك يمكن القول أن القرن الرابع الميلادى يعتبر مدخلاً لتاريخ أوروبا العصور الوسطى . (١٩)

رابعاً : الآراء والأفكار والنظريات التى دارت حول نهاية العصور الوسطى

أما عن نهايات العصور الوسطى ، فكما اختلف المؤرخون فى تحديد بدايات العصور الوسطى فإنهم اختلفوا كذلك فى تحديد نهايات العصور الوسطى ، ولكن يلاحظ أن ثمة تطورات هامة ألمت بالمجتمع الأوروبى خلال القرن الخامس عشر الميلادى أدت تاريخياً إلى تحول المجتمع إلى أوضاع جديدة . (٢٠)

يرى بعض المؤرخين إنهاء العصور الوسطى بعام ١٤٥٣ م ويعللون وجهة نظرهم بحادثتين وقعتا فى تلك السنة كان لهما أثرهما البالغ الأهمية فى الشرق والغرب الأوروبى ، ففى الشرق سقطت القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين بعدما ضيقوا الحصار عليها بعد بناء قلعة أناضولى شمالى العاصمة ، ثم قلعة روملى حصار لتقابلها على الشاطئ الأوروبى عام ١٤٥٢م ، ومع سقوط هذه المدينة يأفل نجم مجتمع الإمبراطورية البيزنطية أى نصف مجتمع أوروبا العصور الوسطى وينفذ الأتراك إلى أوروبا حاملين معهم أفكاراً جديدة قضت على أنظمة الإمبراطورية البيزنطية ومهدت لقيام أنظمة أخرى ساهمت فى قيام العصر الحديث .

أما فيما يتعلق بالأحداث التى وقعت فى العام نفسه (١٤٥٣م) فى الجانب الغرب من أوروبا ، ففى هذا العام تنتهى حرب المائة عام التى دارت رحاها بين إنجلترا وفرنسا وانتصار الأخيرة بعد سقوط مدينة بايو *(Bayonne)*

ومدية بودرو *(Bordeaux)* على التوالى ، ولعل اتخاذ بعض المؤرخين لهذه الأحداث علامة على نهاية العصور الوسطى مرجعه إلى ما ترتب عليها من نتائج شملت الجوانب القومية والفكرية والاقتصادية والمعمارية فى إنجلترا وفرنسا ثم انسحبت على بقية الغرب الأوروبى . (٢١)

لما كانت الكنيسة وما فرضته من تعاليم وسيطرة على أوروبا من أهم معالم العصور الوسطى ، لذلك كان الخروج على الكنيسة وأفكارها التى سادت مجتمـــع العصـــور الوســـطى يعتبـــر نقلـــة مـــن مرحلـــة إلـــى مرحلة أخرى ، لذلك يرى البعض أن حركة الإصلاح الدينى التى بدأت بمهاجمة رجال الدين لبعدهم عن مثل المسيحية وبساطتها نهاية للعصور الوسطى ، ومهما كان موقف البابوية من أمثال من نادوا بذلك فما لاشك فيه أن مركز البابوية قد تأثر كثيراً منذ القرن الرابع عشر الميلادى نتيجة الأسر البابوى (١٣٠٥ – ١٣٧٧م) والانشقاق الدينى الأكبر (١٣٧٨ – ١٤١٧م) . ويجدر بنا الإشارة هنا إلى اثنين من الذين نادوا بإصلاح الدينى ى هذه المرحلة هما يوحنا هس *(John Huss)* (١٣٧٣ – ١٤١٥م) المصلح الدينى البوهيمى الذى اتهم بالهرطقة وأعدم حرقا ويوحنا ويكلف *(John Wycliffe)* (١٣٣٠ – ١٣٥٤م) المصلح الدينى الإنجليزى الذى أنكر سلطة البابا إذا تعارضت مع تعاليم الكتاب المقدس لذلك اتهم بالهرطقة ، ولاشك أن هذين المصلحين قد مهدا لدعوة مارتن لوثر *(Martin Luther)* (١٤٨٣ –١٥٤٦م) الراهب الألمانى الذى تزعم حركة الإصلاح البروتستانتى فى ألمانيا ، ومن بعده هيمولاتيمر *(Hugh Latmer)* (١٤٨٥ – ١٥٥٥م) المصلح البروتستاتنى الإنجليزى الذى حكم عليه بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة ، ونخلص من ذلك أن حركة الإصلاح الدينى امتدت حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى وأن الحكم بالموت حرقاً فى هذه المرحلة يشير إلى أن أفكار العصور الوسطى كانت سائدة حتى هذه المرحلة أيضاً . (٢٢)

وهناك نظرية أخرى ترى أن حركة الكشوف الجغرافية فى نهاية القرن الخامس عشر وبالتحديد عام ١٤٩٢م هو نهاية التاريخ الوسيط وبداية التاريخ الحديث باعتبار أن خريستوفر كولومبس قد اكتشف أمريكا فى هذا العام .

كذلك فى هذا العام ١٤٩٢ تمن استيلاء اللاتين الغربيين على مملكة غرناطة آخر المدن الإسلامية فى أسبانيا . (٢٣)

يضع بعض المؤرخين عصر النهضة كحد فاصل بين العصور الوسطى والحديثة ، ودوافعهم فى ذلك أن عصر النهضة اشتمل على تطورات واسعة فى كافة المجالات فى مجال اللغة والفكر والفنيون وغيرها من التطورات ففى اللغة نجد الشاعر الإيطالية بدلاً من اللاتينية ، ولعل أعظم ما كتبه هو الكوميديا الإلهية ***(Divine Comedy)*** والتى كان لرسالة الفيلسوف أبى العلاء المعرى المعرى (٩٧٣ –١٠٥٧م) أثر كبير على ما كتبه وهى رسالة الغفران وإذا كان " دانتى " قد برز فى إيطاليا ، فإن الشاعر الإنجليزى " جوفرى تشوسر " ***(Geoffrey)*** (١٣٤٠ – ١٤٠٠م) يعتبر أبرز الشعراء الإنجليز قبل " وليم شكسبير "، وكان لاستخدامه اللغة الإنجليزية فى الكتابة أثراً كبيراً على معاصريه ، وفى فرنسا برز الشاعر " فرانسوا فييون " ***(Francois Villon)*** (١٤٣١ – ١٤٩١م) الذى استخدم اللغة الفرنسية فى الكتابة ، وهذا يؤكد أن التحول إلى الكتابة من اللغة اللاتينية التى احتكر معرفتها القليل إلى اللغة المحلية وهى اللغة التى يستطيع الكثير استخدامها فى هذه المرحلة ، وفيما يتعلق بالفنون نذكر النحات والرسام المعمارى " مايكل أنجلوا " ***(Michel-Angelo)*** (١٤٧٥ – ١٥٦٤م) ،ومن هنا نجد أن عصر النهضة قد كان بمثابة الخروج على تقاليد العصور الوسطى وخاصة كنيستها . (٢٤)

يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فيما نهاية العصور الوسطى: وإذا كانت سنة ١٤٥٣ تمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخ ذلك الجزء الشرقى من أوروبا فإن هذه السنة ذاتها قد تكون عديمة الأهمية بالنسبة لكثير من بقية بلاد أوروبا ، حقيقة أنها شهدت أيضاً هزيمة الإنجليز فى موقعة شاتيلون وبذلك وضعت نهاية فعلية لحرب المائة عام ، ولكننا إذا دققنا النظر فى تاريخ

إنجلترا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وجدنا أن سنة ١٤٨٥ – التى شهدت قيام أسرة تيودور فى الحكم – أكثر بروزاً وأهمية بالنسبة للتاريخ الإنجليزى بالذات .

ومثل ذلك يقال عن سنة ١٤٦٦ بالنسبة لبولندا لأن فيها خضع الفرسان التيتون وانضمت بروسيا إلى بولندا ، وسنة ١٤٨٠ بالنسبة لروسيا لتحررها وقتئذ من نفوذ المغول ، وسنة (١٤٩١ – ١٤٩٢) بالنسبة لأسبانيا لسقوط دولة غرناطة الإسلامية ، هذا كله عدا ما شهده النصف الأخير من القرن الخامس عشر من حركة أفاقة شاملة سرت فى المجتمع الأوروبى ليترتب عليها ما يعرف باسم حركة النهضة ، وهى الحركة التى كانت أهم مظاهرها إحياء الآداب والعلوم والفنون وتحرير العقل البشرى من كثير من القيود القديمة ، والتى جاءت مصحوبة باختراع الطباعة من جهة واستكشاف الطرق البحرية إلى أمريكا والهند من جهة ثانية ، ثم الثورة على الكنيسة وأوضاعها من جهة ثالثة ، لذلك حاولت أن أتخذ نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر خاتمة لدراسة أحوال أوروبا فى العصور الوسطى دون أن ارتبط بسنة معينة أو بحدث محدد لأن ما يكون خطيراً بالنسبة لبلد قد لا يكون كذلك بالنسبة لبلد آخر . (٢٥)

وأحدث هذه النظريات هى تلك التى نادى بها المؤرخ " جوفرى باراكلاف " *(G.Barraclough)* إذ قال أن العصور الوسطى تمتد حتى القرن السابع عشر وبنهايتها يبدأ العصر الحديث ، وعلى هذا فليس هناك ما يسمى بعصر النهضة الذى يعتبر بمثابة خاتمة الحقبة الوسيطة من التاريخ .

وكيفما كان الأمر فإن التغييرات الهائلة التى أرِنا إليها والتى أدت إلى الانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث إنما كانت مثل التغييرات بين القديم والوسيط ، بمعنى أنها كانت عبارة عن عملية تطور بطئ مستمر لا يشمل حادثة معينة أو واقعة بالفعل فحسب ، بل يشمل جميع الحوادث والوقائع التى أسلفنا إليها والتى تدور بصفة خاصة حول القرون الرابع عشر والخامس عشر

والسادس عشر والتى يبدأ بها عصر جديد لـه نظمـه وحضارته التـى تختلف عما كان سائداً من قبل .

ولعلنا نستنتج مما تقدم أنـه مهما كـان اختلاف المؤرخين حول النقطة التى تبدأ منها العصور الوسطى الأوروبية وتلك التى تنتهى فيها ، إلا أنها من الناحية التقليدية الشكلية ، وللاعتبارات التى أسلفنا إليها تبدأ فى القرن الخامس وتنتهى فى القرن الخامس عشر ، وإن كانت الأسباب والعوامل التى مهدت لها وتلك التى أدت إلى زوالها تسبق فى الواقع قيامها وتستمر بعد انتهائها بقرون عديدة . (٢٦)

على أن هذه الصورة التى التمسوها لتحديد فترة العصور الوسطى تفتقر إلى الترابط والتماسك فليس لسنة ٤٧٦ أهمية بالغة كما تصورا ولذا درج معظم المـؤرخين علـى أن يبـدأوا العصـور الوسـطى إمـا بـاعتلاء دقلـديانوس عـرش الإمبراطوريـة الرومانيـة سـنة ٢٨٤ وإمـا ببدايـة الغـارات الجرمانيـة وكيفمـا كـان الأمر فإن العصور الوسطى هى الفترة الواقعة بين العصور القديمة والعصور الحديثة .

خامساً : مراحل وفترات العصور الوسطى :

وهذه المرحلة تشمل ثلاثة أقسام طبيعية يعتبر القسم الأول منها الذى يمتد منذ نهاية القرن الثالث إلى القرن العاشر الميلادى مرحلة نمو كل مظاهر حضارة ونظم أوروبا الوسطى إذ تجلى فيها ما كان لهذه الحضارة من أصول رومانية وجرمانية ورومانية جرمانية ، يضاف إلى ذلك ما تعرض لـه البحر المتوسط الذى يعتبر موطن الحضارة الرومانية وأساس وحدتها من صدع بعد قدوم المتبربرين وإصرارهم على الاحتفاظ بقوانينهم وتقاليدهم التى ترجع إلى أجدادهم القدامى ، لا إلى الطبيعة والتعقل كما كان معروفاً عند الرومان ، ومن عوامل التصدع أيضاً ما كان من إدعاء الكنيسة المسيحية من أنها وحدها

المسئولة عن الحق المطلق ، فأضحى الوفاق مستحيلاً بين سائر الديانات ، ومن الدليل على ذلك ما كان من تفضيل المتبربرين لديانتهم ، ودل ذلك على تعلقهم بالولاء لعنصرهم ، لا للعالم المتمدن ، وما حدث من امتداد الفتوح الإسلامية إلى البحر المتوسط الذى أضحى بحيرة إسلامية أدى إلى تضاؤل النشاط التجارى وتحول الشطر الأكبر من أوروبا إلى الاقتصاد الزراعى ، وتدهور المدن . وهذه المرحلة تصادف تقلص الأحوال الاقتصادية فى أوروبا .

أما القسم الثانى من تاريخ العصور الوسطى الذى اتخذت فيه حضارة العصور الوسطى طابعها الذى اتسمت به ، فيشمل القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، والواقع أن هذه القرون الأربعة (١٠ – ١٣) تؤلف لب تاريخ العصور الوسطى بجميع مظاهر الحضارة بينما شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر اللذان يمثلان المرحلة الأخيرة من تاريخ العصور الوسطى ما حدث من تغيير واتجاه نحو العصور الحديثة . (٢٧)

يصل الباحث فى التاريخ الأوروبى هنا إلى نقطة يستطيع الوقوف عندها وهى نقطة تبعد عن العصر القديم الذى تصفه أشعار " هوميروس "مسافة زمنية طولها نحو ألفين وستمائة من السنين ، وفى هذه المرحلة الزمنية الطويلة أنتج العقل البشرى آداباً رفيعة ، ومنشآت معمارية عظيمة ، وديانات وفلسفات جلية ، وروائع من تماثيل منحوتة منقوشة ، وهى روائع فنية لم تفقد شيئاً من جاذبيتها على مر العصور ، وفى هذه المرحلة الزمنية كذلك بحث العقل البشرى مسائل الروح والقلب والحواس ، وكل شئ عدا الطبيعة فإذ سأل أحد فى ظاهرة من ظواهر الطبيعة لم يستطيع متابعة سؤاله حتى النهاية ، وبقى السؤال دليلاً من دلائل اللقانة العابرة العقيمة فى تلك العصور الوسطى ، ولذا ظل التقدم معدوم الخطى فى ميادين البحوث والكشوف التى تزيد من سيطرة الإنسان على قوى المادة الغشوم ، وترفع من مستوى الخير العام ، فبقيت وسائل النقل حيث هى منذ أقدم العصور ، ولم تستطع ثلاثة آلاف من السنين أن تبدل الحصان

وسرعته بوسيلة أسرع ، أو الريح وقوتها فى تسيير السفن الشراعية بقوى أخرى ، وعاش معظم الأوروبيين فى بيوت حقيرة خانقة ، وتغلقت خبراتهم وتجاربهم فى حدود ضيقة وتبددت أعمارهم فى الأرض بسوء التغذية وكثرة الأمراض والطواعين كأنما كتب على البشرية أن تنتظر حتى عصر البخار والبترول والكهرباء قبل أن تضيف شيئاً واحداً إلى عظيم مخترعات الإنسان الأول من عجلة وشرع ومحراث .

ومع هذا خطا الأوروبيون منذ عصر الحروب الصليبية خطوات وساعة فى ميدان المعرفة ، إذ غدوا على علم أتم ومعرفة أدق بأحوال البر والبحر وأضحى من المعروف أن الأرض كروية وأن السفر إلى أقصى شرق آسيا ينتهى إلى الصين واليابان وجزر البهار ، ثم عبر الجنويون الصحراء الكبرى وبلغوا السودان ، كما أسسوا لنفسهم جالية بجنوب الصين سنة ١٣٣٦م ، على حين أخذ البرتغاليون طريقهم فى البحر جنوباً حول سواحل غرب إفريقياً ، وهم الذين تلقوا فنون الملاحة على أساتذتهم الجنويين ، يضاف إلى ذلك اتجاه ملاحى البحر الأبيض المتوسط – فى أعداد متكاثرة من مختلف السفن نحو المحيط الأطلنطى – وهذا منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى أى منذ صار للبنادقة أسطول تجارى فى المياه الغربية بين إنجلترا وبلاد الفلاندرز ، ولهذا غدت الملاحة البحرية فرعاً من فروع المعرفة التى تتطلب معلومات وإرشادات دقيقة وأمدت المراشد البحرية *(Portolani)* ، وهى التى قام على إعدادها الملاحون الإيطاليون والقطلانيون – فى القرن الرابع عشر الميلادى – مختلف الملاحين بخرائط جغرافية علمية .

ولم ينشأ هذا الازدياد فى المعرفة بالجغرافيا عن حب الاستطلاع أو روح المغامرة التى امتاز بها الأوروبيون ، بل كان منوه كذلك مغريات الثورة ذلك أن الشرق امتلأ وقتذاك بمتاجر لم يكد يتذوق الغرب طعمها حتى استمرأها وألحف فى طلبها ، فمن الشرق جاء الحرير وجاءت التوابل (القرفة والفلفل وجوزة

الطيب) وشاع لبس الحرير فى المجتمع الرومانى – أى منذ القرن الرابع الميلادى – حتى صار من ألزم اللزوميات عند النساء ، كما شاع استعمال التوابل ، وهى مما خف وزنه وغلا ثمنه وصار الطهى من صفيف الفنون لفتح الشهوة إلى مزيد من الطعوم .

ثم جئ بدودة القز تهريباً من الصين إلى الإمبراطورية الرومانية فى القرن السادس الميلادى وما أعظم ما ترتب على نقل هذا المخلوق التافه من نتائج . (٢٨)

ولقد أظهرت أحدث البحوث التاريخية أن العصور الوسطى لم تكن غارقة فى الفوضى والظلام بقدر ما تصور البعض فهى لم تخل من مدنية وسيطة متوسطة الشأن خاصة بها ، لها صفات ومميزات وشخصيات ، على الرغم من أنها لم تصل إلى مستوى المدنية الرومانية العظيمة فى التاريخ القديم والمدنية الزاهرة المرتبطة بالتاريخ الحديث . (٢٩)

وإذا كانت العصور الوسطى بأنظمتها وحضارتها قد ارتبطت بفكرتى الدين والحرب فقد ارتبطت أيضاً بفكرة أخرى هى أن العالم المسيحى الغربى كان عبارة عن وحدة كبرى فى مجموعة يحكمه الإمبراطور من الناحية الزمنية والبابا من الناحية الروحية ، وهذه الوحدة لها كنيسة واحدة متغلغلة فى كيان الأمم والشعوب والطبقات هى كنيسة روما الكاثوليكية ، ولها لغة رسمية واحدة هى اللغة اللاتينية ، ولها عاصمة روحية واحدة هى روما ، ولها حضارة واحدة هى تلك التى ترتبط باللغة اللاتينية ، وقد مرت جميعها بنفس الظروف والمؤثرات التاريخية كل هذا جمع بين تلك الأمم فى وحدة واحدة تشمل أوروبا من أقصاها إلى أقصاها أساسها الإقطاع .

كما أن من أهم مميزات العصور الوسطى الأوروبية هى الديانة المسيحية التى جاءت كرد فعل للتاريخ القديم وديانته الوثنية . (٣٠)

وأخيراً فإن العصور الوسطى لم تكن خالية تماماً من التجديد والإبداع فى كثير من الشئون والفنون والتفكير والأنظمة مثال ذلك نهضة القرن الثانى عشر ، ونشأة الجامعات والدستور الإنجليزى وما إلى ذلك من الأنظمة التى أسلفنا الإشارة إليها ، وهناك كذلك الفن الذى يعتبر من أروع ما ابتدعه العقل الوسيط .

وإن نسينا فلا ينبغى أن ننسى النشاط الخارجى الذى قام فى الغرب الأوروبى عقب العدوان الصليبى على العالم العربى ، هذا النشاط الذى أدى إلى انتعاش التجارة فى الغرب وإلى الرخاء الكبير فى كثير من المدن والدويلات الواقعة بصفة خاصة فى جنوب أوروبا ، وقد تبعه الثراء الذى قام على أساسه النشاط الذهنى وتقدم الفكر البشرى كنتيجة مباشرة لاحتكاك الفريقين بالحضارة العربية العظيمة فى مصر والشرق الأدنى ، وكانوا قد اتصلوا قبل ذلك بالعرب وأفادوا منهم فى المراكز العربية الثلاثة فى الأندلس وجنوب إيطاليا وصقلية ، وكانت النتيجة أن تفجرت ينابيع الإصلاح فيما يعرف بالنهضة العلمية فى الجمهورية الإيطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية ، وفى فرنسا وغيرها من دول أوروبا تلك النهضة التى يختتم بها العصر الوسيط ويبدأ العصر الحديث . (٣١)

هوامش الباب الأول

العصور الوسطى الأوروبية وإشكالية تحديد البداية والنهاية من الناحية الزمنية

(١) نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوروبة ، جـ١ ، ص ٣ .
(٢) نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١١ .
(٣) نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٢ ، ١٣.
(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، (القاهرة – ١٩٩٧) ، جـ ١ ، ص ٣ ، ٥
(٥) جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، (الإسكندرية – ٢٠٠٠) ، ص ٢٠ .
(٦) محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، (الإسكندرية – ٢٠٠٢) ، ص ١٣ ، .
(٧) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢١ ، ٢٣ .
محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .
وعن الإمبراطور دقلديانوس ، انظر :
جيبون (إدوارد) : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، جـ١ ، ص ٢٠٥ – ٢٢١ .
(٨) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٦ .
(٩) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٣ – ٢٤ .
وعن الإمبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦ –٣٧٨) ، انظر :
اسحق عبيد : العصور الوسطى الأوروبية ، ص ١٩ – ٣٢ .
(٩) عن إنشاء القسطنطينية ، انظر : السيد الباز العرينى : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص٢١–٨١ ;محمد محمد مرسى الشيخ : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٠ – ٣٠ . : جيبون (إدوارد) : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٢٤ – ٢٢٦ .
(١٠) وعن الإمبراطور جوليان (٣٦١ – ٣٦٣) انظر :
اسحق عبيد : العصور الوسطى الأوروبية ، ص ٣٣ – ٥١ .
جيبون (إدوارد) : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٩٠ – ٢٩٢ .
دونالد نيكول : معجم التراجم البيزنطية ، ترجمة د. حسن حبشى ، ص ١٠٩ .
(١١) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٥ – ٢٦ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٧.

وعن اعتناق القوط للمسيحية ، انظر :

اسحق عبيد : المرجع السابق ، ص ١١٣ – ١٢٨ .

(١٢) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٨ .

جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٦ – ٢٧ .

وعن معركة أدرنة ، انظر :

محمود الحيورى : رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية .

(١٣) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٧ ، ١٨ .

جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٧ .

وعن الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ –٤٥٧) ، انظر : محمد محمد مرسى الشيخ : الإمبراطورية البيزنطية، ص٣٠-٣٣

(١٤) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٧ – ٢٨ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٨ – ١٩ .

(١٥) ليلى عبد الجواد إسماعيل : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى (٢٠٠٢) ، ص ٧ ، ٨ .

وعن سقوط الإمبراطورية الرومانية ، انظر : جيبون (إدوارد) : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ج١ .

محمود الحويرى : رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية

(١٦) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٨ – ٢٩ .

(١٧) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٦ – ١٧ .

جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٣٠

وعن الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ – ٥٦٥) ، انظر :

اسمت غنيم : إمبراطورية جستنيان ، (الإسكندرية – ١٩٨٢)

(١٨) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٣١ .

وعن تقليد شارلمان ، انظر :

مرستوفر (دوش) تكوين أوروبا ، ترجمة ومراجعة : د. محمد مصطفى زيادة ، د. سعيد عاشور ، (القاهرة – ١٩٦٧) ، ص ٢٦٣ – ٢٨٩ .

(١٩) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٢٠) عن نهاية العصور الوسطى ، انظر :

Cowie(L.W); Sixteenth Century Eropee, (London,1977)

(٢١) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٢١ .

جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

وعن سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، انظر :

جونز (ح.ر) الحصار العثمانى للقسطنطينية ، ترجمة : د. هاشم الطحاوى

(٢٢) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٢٢ – ٢٣ .

جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٤٢ – ٤٣ .

السيد رجب حراز : عصر النهضة .

(٢٣) ليلى عبد الجواد إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٩ .

(٢٤) عن عصر النهضة :

تومسا جولد تشناين : المقدمات التاريخية للعلم الحديث ، ترجمة : أحمد حسان ، سلسلة عالم المعرفة (الكويت – ٢٠٠٣) .

(٢٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٥ .

(٢٦) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٤٤ – ٤٥ .

(٢٧) السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا فى الصعور الوسطى ، (بيروت – ١٩٦٨) ، انظر مقدمة الكتاب .

(٢٨) فشر (هـ. أ. ل) : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٥

(٢٩) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٣٠) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٣١) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

الباب الثانى

المسيحية والإمبراطورية الرومانية

أهداف الفصل الثاني

يهدف الباب الثاني إلى:

١- التعرف على أحوال الإمبراطورية الرومانية

٢- عصر الإمبارطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م)

٣- عصر الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧م)

٤- الاختلافات المذهبية في الإمبراطورية الرومانية.

٥- ظهور البابوية

المسيحية والإمبراطورية الرومانية

أولاً : أحوال الإمبراطورية الرومانية وأزمة العالم الرومانى : القرنين الأولين للميلاد :

خلال القرنين الأولين منذ اعتلاء " أغسطس " *(Augustus)* للعرش حتى وفاة " ماركوس أورليوس " *(Marcus-Aurelius)* (حوالى ٣١ ق. م – ١٨٠م) اتسعت حدود الإمبراطورية الرومانية شيئاً فشيئاً لتشمل منطقة شاسعة من نهر الفرات إلى المحيط الأطلسى ، ومن المناطق الصحراوية بشمال أفريقيا إلى نهر الدانوب والراين و " تلال شيفوت " *(Cheviet Hills)* بشمال بريطانيا

ووقع عبء الدفاع عن الحدود المترامية الأطراف على جيش بلغ تعداده حوالى ما بين ثلاثمائة ألف إلى خمسمائة ألف مقاتل وقام الإمبراطور بوضع المبادئ التنظيمية والتخطيطية ، وتتولى المهمات العسكرية " قوات الرجالة " *(Infantry Legions)* لفترات طويلة الأمد ، هذا بالإضافة إلى القوات المساعدة الأجنبية التى كانت من الرجالة والخيالة خفيفى العدة ، والذين كانوا يحصلون على حق المواطنة الرومانية فى نهاية فترة الخدمة الطويلة ، وكان الجيش يتمركز على طول حدود الإمبراطورية باستثناء حرس قليل العدد ، ويتمتع بمزايا خاصة لتأمين سلامة الإمبراطور ، وعرف هذا الحرس باسم " الحرس البريتورى " *(Praetorian Guard)* وتم ربط مدينة روما العاصمة بالأقاليم النائية بفضل شبكة المواصلات التى وضعها موضع التنفيذ نظام الطرق الرائع ، ولما كانت هذه الطرق معبدة بأحجار متينة لذلك ظلت باقية بقاء روما نفسها وسهلت هذه الطرق تدفق التجارة بالإضافة إلى تنقلات الجنود ، وظلت صالحة للاستعمال لعدة قرون بعد

" السـلام الرومـانى " *(Roman Peace)* الـذى حطمتـه الفوضـى السياسـية والاجتماعية وغزوات البرابرة .

ولـم يكـن شـريان المواصـلات الرئيسـى الـذى يخـدم التجـارة مبنيـاً مـن الأحجـار وإنمـا كـان البحـر المتوسـط الـذى أحاطتـه الأقـاليم مـن جميـع الجهـات التابعة للإمبراطورية ومن ثم أطلق عليه الرومان بحب واعتزاز بحرنا *(Mare Nostrum)* إذ كانـت الأسـاطيل الرومانيـة القويـة تحـرس البحـر المتوسـط ، وجعلتـــه فـــى مـــأمن مـــن القراصـــنة لأول مـــرة فـــى العصـــور القديمـة ، وبـذلك تمكنـت السـفن المحملـة بالبضـائع مـن الإبحـار دون أن يتعـرض سبيلها أحد بين أرجاء الإمبراطورية المتعددة ، وفى ذلك الحين وهو الأمر الذى لـم يحـدث مـن قبـل علـى الإطـلاق كانـت الحـدود الشاسـعة للإمبراطوريـة خاضـعة للإدارة الحكومية الجيدة والتى عملت على حفظ النظام والمرابطة لفضل الطرق البرية والممرات المائية التى حظيت بالأمن والأمان .

وتحـت مظلـة السـلام الرومـانى انتشـر الرخـاء الاقتصـادى وكثـرت المؤسسـات الاجتماعيـة وانـتعش التـراث الثقـافى وانتشـر فـى كـل مكـان عبـر الإمبراطوريـة ، ونظـراً لأن الأقـاليم البعيـدة صـارت تأخـذ الطـابع الرومـانى بشـكل مضطرد لذلك تغيرتا معنى كلمتى " روما " و " رومانى " رويداً رويداً ، فمنذ عهد الإمبراطور " أغسطس " (٣١ق.م – ١٤م) لم يعد هذين التعبيرين يطلقان على العاصـمة الرومانيـة وسـكانها فحسـب ، وإنمـا امتـدا ليشـملا الجـزء الأكبـر مـن إيطاليا وبمرور العقد تلو الآخر فى السلام الرومانى امتدت المواطنة الرومانية تدريجياً أكثر فأكثر إلى الأقاليم الريفية حتى وصل الأمر إلى أن حصل كل ساكن حر فى الإمبراطورية على حق المواطنة الرومانى ٢١٢م ، بل ويبدو أن الأباطرة أنفسـهم فـى ذلـك الحـين علـى غيـر المـألوف كـانوا يميلـون إلـى الإقليميـة ، فـ " تراجـان " *(Trahan)* و " هادريـان " *(Hadrian)* واللـذان ربمـا كانـا مـن أعظـم أباطرة القرن الثانى كانا من أهالى أسبانياً وبمرور الوقت اكتسب تعبيريى " روما

" و " رومـانى " دلالـة عاليـة ، فالملـك الإغريقـى فـى " القسـطنطينية " والملـك الفرنجـى فـى " آخـن " *(Aachen)* والملـك االسكسـونى فـى ألمانيـا كلهـم جميعاً أشاروا إلى أنفسهم بأنه " أباطرة رومان " وذلك فى قرون تالية .

وكان ظهور المدن فى أنحاء الإمبراطوريـة إحدى النتائج الرائعة لعمليـة إضفاء الصبغة الرومانيـة ، ففى الحين انتشرت دولاة – المدينـة ، وهى الظاهرة السياسية المميزة للعالم الإغريقى الرومانى ، وفى بلاد الغال *(Gaul)* وأسبانيا وعلى امتداد نمهر الراين والدانوب وحتى فى بريطانيا البعيدة ، واحتفظت بقدر طيب من الحكم الذاتى المحلى وسيطرت بشكل طبيعى على المناطق الريفيـة الواقعة فى نطاقها ، وبمعنى آخر كانت الوحدة الأساسية للإدارة المحليـة ، إذا ظلت حكومـة الدولـة الرومانيـة منسوبة للمدينـة بصفة أساسية ، على أنـه من ناحيـة التناقض الظاهرى بدت مدن الإمبراطوريـة وبخاصة تلك التى فى الغرب على أن لها أهمية قليلة نسبياً كمراكز تجاريـة وصناعية ، ولم تمارس روما أى ثورة صناعية ، وبالرغم من أن ازدهار الصناعات بالمدن كان على نطاق ضيق وبخاصـة فـى الشرق ، فإن اقتصاد الإمبراطوريـة ظل زراعيا بصفة أساسية ، فمعظم مدن الغرب وعلى وجه الخصوص روما نفسها كانت تستهلك أكثر بكثير مما تنتج ، وعلى عكس مدن أوروبا فى العصور الوسطى والحديثة فإن المدن فى تلك الفترة لم تكن لديها اكتفاء ذاتياً من الناحية الاقتصادية ، وكانت تعيش عالة أو متطفلة على الاقتصاد الإمبراطورى ، إذا كانت هذه المدن مراكز إداريـة وحربية فى المقام الأول ، أما أهميتها التجارية فكانت فى المقام الثانى وإبان القرنين الأولين للميلاد كان اقتصاد الإمبراطوريـة مزدهراً بالقدر الذى يسمح بالإنفاق على تلك المدن ، بيد أن هذا الوضع لم يستمر بصفة دائمة . وذلك حتى تدهورت المدن ومعها كلن النظام السياسى للعالم الإغريقى الرومانى .

وفـى السـنوات الأولـى للإمبراطوريـة كمـا فـى السـنوات الأخيـرة مـن الجمهورية لعب العبيد دوراً حاسماً فى الاقتصاد وبصفة خاصة فى الزراعة ، بيد

أنه نظراً لأن حدود الإمبراطورية لم تعد يضاف إليها أراضى جديدة رويداً رويداً ولتناقص تدفق الأسرى فإن المصدر الرئيسى للعبيد نضب معينه ، وفى ذلك الحين اتجه كبار ملاك الأراضى إلى تأجير أجزاء كبيرة من اقطاعاتهم إلى مزارعين أحرار مقابل حصول هؤلاء المزارعين على جزء من المحصول وأطلق عليهم لفظ " أقنان " ***(Coloni)*** وهم الذين كانوا يعلمون فى أراضى سيد إقطاعى ، وتنتقل ملكيته من هذا السيد إلى سيد آخر عندما تؤول ملكية الأرض إليه ، ولم ينعم الأقنان كما حدث للجماهير الغفيرة التى ظلت تتدفق على المدن الأكبر سوى بأقل القليل من مظاهر الترف والرخاء الاقتصادى فى الفترة الباكرة للإمبراطورية – وكان القرن الثانى للميلاد على المستويات القديمة عصراً للثراء المادى الملحوظ ، على أنه من السخف مقارنته بالوفرة الناجمة عن الأحوال الصناعية فى أيامنا هذه ، واحتوى المجمع الرومانى بصفة دائمة فى قاعه على أعداد لا حصر لها من البؤساء الذين يمثلون البنية الأساسية للمجتمع هم الذين كانوا من الفلاحين والمعدمين الذين عاشوا على الكفاف .

وكان مم الممكن أن تكون أحوال الطبقات الدنيا على ما هى عليه من سوء لولا سياسات الحكومة الرامية إلى محبة الخير العام ، والإصلاح الاجتماعى ، فبصفة خاصة رسخت وجهات النظر الرواقية ***(Stoic Attitudes)*** عن الأخوة الإنسانية والرحمة والمسئولية الاجتماعية والسياسية بين أباطرة القرن الثانى العظام ، واعتبر كل من الإمبراطور " هادريان " والإمبراطور " ماركوس أورليوس " سلطتهما على أنها أمانة ومسئولية صعبة وأن عليهما أن يحكمهما لصالح الشعب سواء كان الفرد غنياً أم فقيراً يتمتع بامتيازات أم كان منخفض الجناح ، وازدانت الإمبراطورية فى القرن الثانى بضميرها الحساس بما لا يقل عن حكمتها وقيادتها القوية فى المجال العسكرى والشئون الإدارية . (١)

بلغت الإمبراطورية الرومانية أقصى اتساع لها على عهد الإمبراطور " هادريان " (١١٧ – ١٣٨م) فصار حدها الشمالى عند السور الذى شيده ذلك

الإمبراطور فى بريطانيا وعرف باسمه *(Hadrian's Wall)* ، وقد امتد ذلك السور فوق مرتفعات نورثمبريا من البحر إلى البحر فى عرض الجزيرة ، عبر الجهـات الشـمالية مـن مضـيق السـلواى *(Solway)* عنـد مدينـة كارليـل *(Carlisle)* الحالية غرباً إلى مصب نهؤر التاين *(Tyne)* عند مدينة نيوكاسل الحاليـة شـرقاً ليكـون حداً نهائيـاً بـين بريطانيـا الرومانيـة واسـكتلندا ، ثـم تمتـد الحـدود الشـمالية مـن البحـر الشـمالى حتـى البحـر الأسـود متبعـة خطـوط نهـرى الـراين والـدانوب ، وهـى حـدود رسـمتها الطبيعـة ، وقـد شـمل النفـوذ السياسـى للإمبراطورية كل آسيا الصغرى ، وشريط يمتد على السواحل الشرقية والجنوبية للبحـر الأبـيض المتوسـط ، يشـمل الشـام ومصـر وطـرابلس وتـونس والجزائـر ومـراكش ، ويمكـن القـول أن أراضـى الإمبراطوريـة امتـدت حـول البحـر المتوسـط مركز العالم القديم ذلك البحر الذى لا يدخل فى نطاقه – كما يرى الجغرافيون – مصر العليا وشمال شرقى أسبانيا وشمال إقليم الغال (فرنسا الحالية) والمنـاطق الممتـدة بحـذاء الـدانوب ، غيـر أن نفـوذ الإمبراطوريـة مـن الناحيـة الواقعيـة لـم يقتصر علـى البلاد الواقعة داخل حدودها السياسية ، بل امتد حتـى بلـغ فـارس والهند ، وتطرق إلـى بـلاد النوبـة والسودان كما بلـغ الشعوب الجرمانيـة الضاربة فى مجاهل أوروبا شرقى الراين وشمالى الدانوب .

ويعتبـر القرنـان الأول والثـانى فـى حيـاة الإمبراطوريـة الرومانيـة – بوجه عام – قرنـى ازدهار ورقى سلمى ، إذا حدثت فيهما عمليـة صبغ غرب أوروبا بالصبغة الرومانية حتى أننا فى القرن الرابع نجد صورة مغايرة تماماً لما كان مألوفاً فى القرنين الأولين ذلك أن الإمبراطورية كانت قد مرت بفوضى القرن الثالـث واضـطراباته ، حتـى تغيـر شـكلها ، ولـم تكـد تتماسـك إلا بفضـل الجهـود اليائسة للإمبراطورين دقلديانوس وقنسطنطين ، وحتى القرن الثانى أيضاً تمتعت الإمبراطوريـة بـالأمن والسـلام ولـم يعكـر صفوها إلا بعض الإغارات الخفيفـة التـى كان يقوم بها جيران الإمبراطوريـة علـى حدودها ، ففى الشرق والجنوب الشرقى

كان البربر فى المغرب والقبائل البدوية فى الصحراء مصدر إزعاج من وقت لآخر ، ولكنهم لم يشكلوا خطراً فعالاً إلى أن جاء الإسلام ووحد بينها ، وأمدها بروح من عنده تخالف ما كانت عليه من قبل ، كذلك كانت شعوب البكت ***Picts*** والسكوت ***Scots*** فى بريطانيا تعتبر سور هادريان أحياناً ، وتقوم بإحداث القلائل وإزعاج الحاميات الرومانية ، ولكن الإمبراطورية كانت بعيدة عن أية أخطار حقيقية تأتى من ناحيتهم ، أما فى الشمال فيما وراء نهرى الراين والدانوب فقد كان الجرمان يمثلون الخطر الأعظم ، ذلك أن التصاقهم بحدود الإمبراطورية فتح أعينهم على ما احتوته ولايات تلك الإمبراطورية من ثراء ورخاء ، الأمر الذى جعلهم يقومون بإغارات بغية الحصول على غنائم مجزية وخيرات وفيرة ، وهنا نلاحظ أن الحكومة الرومانية كانت قادرة على حماية حدودها ، ورد غارات الجرمان بالقوة أحياناً ، وبالطرق الدبلوماسية أحياناً أخرى ، فقد جرى عقد اتفاقيات بين الحكومة الرومانية وزعماء القبائل الجرمانية المجاورة لحدود الإمبراطورية نصت على أن تقوم روما بحماية تلك القبائل من جيرانها فى مقابل أن تقوم تلك القبائل بمنع رعاياها من الإغارة على أراضى الإمبراطورية ، وعلى أية حال فقد قامت القوات الرومانية المعسكرة على امتداد جبهتى الراين والدانوب فى القرنين الأول والثانى بواجباتها لكبح جماح الغزاة سواء فى صورة شن هجوم واسع أو قيادة حملات تأديبية ، ولكن الأمر اختلف عنه منذ السنوات الأخيرة للقرن الثانى وابتداء من القرن الثالث وهو ما سنعالجه بعد قليل .

وعلى الرغم من الحروب الدائرة هنا وهناك على امتداد حدود الإمبراطورية إلا أن السلام – كما ذكرنا – ساد بقاعها الواسعة بنظام الطرق الواسعة الرائعة الذى ابتدعته العبقرية الرومانية ، وحد بين عواصم الإمبراطورية ومدنها ، من بريطانيا وأسبانيا فى الغرب حتى نهاية الفرات فى الشرق ، كذلك قامت المواصلات البحرية بدور حضارى لا يقل شأناً عن الدور الذى قامت به

الطرق البرية فقد شهد البحر المتوسط حركة ملاحية دائبة ومياهه التى لم تعرف القراصنة آنذاك كان لها الفضل فى توحيد المدن الكبيرة القائمة على شواطئه ، ولما كان الأمن منتشراً فى جميع أنحاء الإمبراطورية صار السفر ميسراً للمواطنين طلباً للعمل أو للصحة أو للمتعة ، ومما ساعد على إتاحة السفر وتسهيله اللغة الشائعة فى الإمبراطورية وتوفر العملة الدولية الصحيحة وحماية القوانين ، وهى أمور لم تعرفها الإمبراطورية فى القرون التالية ، وليس أدل على ذلك من أن المرء كان بوسعه السفر من الفرات إلى أسبانيا مستخدماً لغة واحدة مشتركة ***(Lingua Franca)*** يمكنه التفاهم بها فى كل مكان وصار من المستطاع سماع من يتحدث باللغة اليونانية فى شوارع المدن التجارية ، مثل روما ومراسيليا والإسكندرية وبوردو وعلى ضفاف أنهار النيل والعاصى ودجلة . (٢)

وترجع عظمة الإمبراطورية الرومانية فى القرنين الأول والثانى الميلاديين إلى أسباب من بينها :

أولاً : أن السلطة المركزية استطاعت أن تحكم سيطرتها على تلك المساحات الجغرافية المترامية الأطراف ، وعلى تلك الشعوب والأمم المختلفة الأصول والحضارات والديانات واللغات ، هذا إلى جانب التراث التاريخى لتلك الإمبراطورية والذى يتضح من خلال إصدارها القوانين والتشريعات التى تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب المتباينة فى لغتها وحضاراتها وديانتها .

ثانياً : قدرة الإمبراطورية الرومانية على استيعاب شعوب عريقة ذات حضارة قديمة كالمصريين واليونانيين جنباً إلى جنب مع شعوب أخرى حديثة المولد مثل الغال والرومان وغيرهم .

ثالثاً : أن الإمبراطورية الرومانية كانت تمثل بناء اجتماعى سليم مترابط البنيات ، فكانت فى نظر الطبقات العليا تعبر عن نظام إدارى امتاز بالكفاية

والدقة ، وفى نظر الطبقات الدنيا تقوم بحماية الأرواح والممتلكات فى ظل قانون عادل دون أن تتدخل فى حياة الناس اليومية أو العمل على تغيير لغاتهم ومعتقداتهم ونظمهم الاجتماعية .

رابعاً : كان نظام الإمبراطورية السياسى مزيج بين النظام الملكى الاستبدادى والنظام الجمهورى الدستورى ، أى مزيج من بين الزعامة العسكرية الضرورية للحفاظ على سلامة الإمبراطورية وأمنها وبين نظام الحكم الجمهورى الذى يقر رغبة المواطنين فى الاحتفاظ بمكانتهم الممتازة وبأهميتهم فى المجتمع ، وفى ظل هذا النظام تركزت معظم السلطات فى يد الإمبراطور بعد أن كانت فى يد كبار الموظفين فى العصر الجمهورى وخاصة فى يد العسكريين والقناصل .

وظل السناتو " مجلس الشيوخ " فى ظل هذا النظام محتفظاً بهيبته ومكانته القديمة إلا أن سلطاته التشريعية والإدارية والقضائية تناقصت بصورة واضحة وأصبح هذا المجلس يتألف من أعضاء يختارهم بصورة واضحة ، وأصبح هذا المجلس يتألف من أعضاء يختارهم الإمبراطور من مختلف أنحاء الإمبراطورية .

ولكن مع نهاية القرن الثانى الميلادى ومطلع القرن الثالث الميلادى بدأت تنتاب الإمبراطورية الرومانية أزمات فى شتى المجالات السياسى منها والاقتصادى وسرعان ما أخذت فى الضعف والانحلال بعد القوة والاتساع . (٣)

ولم تكن الشدائد ولا الأخطار التى حاقت بالدولة فى عهدها الأخير هى التى خلقت مواطن الضعف والتجريح فى النظام الإمبراطورى ، بل كانت هى التى كشفت عن تلك المواطن والحالات الاجتماعية والاقتصادية العصرية المشابهة لما كان فى العالم العهد كثيراً ما تضللنا ، وذلك لأنها تنزع إلى إسدال الغموض على نواحى حضارته التى هى أكثر بدائية ، وقياساً على معايير زمننا الحاضر لابد أن عدد سكان أوروبا فى ذلك الزمان كان مفرط الصغر إذ إن عدد سكان

الإمبراطورية الرومانية لم يتجاوز ربع أعداد السكان الذين ورثوا الأقطار التابعة لها ، ولم يكن توزيع السكان متعادلاً فالشطر الشرقى لم ترجح كفته فحسب فى كثافة سكانه بل أيضاً فى مستواه من الثروة والحضارة ، ولم يكن بالغرب من المدن باستثناء روما وقرطاجة ما يعدل المدن الزاهرة بآسيا وسورية ومصر والتى أربى سكان الكثير منها على مائة ألف نسمة ، فالولاية الأخيرة (مصر) كانت على الرغم من صغر حجمها تضم ما يقارب سُبع سكان الإمبراطورية بأكملها ، كما أن الشطر الأكبر من موارد الإمبراطورية كانت تؤديه الأقطار المطلة على البحر المتوسط الشرقى ، ومن الناحية الأخرى فالثابت قطعاً أن المجموع الكلى لسكان الإمبراطورية الرومانية ازداد قلة بعد ثلاثة قرون من قيامها ، وكانت إيطاليا وبلاد اليونان أشد البلاد تعرضاً لنقص السكان ، كما أن مناطق ترامية من بلاد الغال أصبحت خالية من الناس لما كابدته من الطاعون والحروب الأهلية ولم يكن تأثير روما الحضارى على الغرب موزعاً توزيعاً متكافئاً ، فإن الطرق الرومانية شأن الدروب الجانبية والطرق الرئيسية الشريانية التى تكون شبكة المواصلات كثيراً ما كانت تحصر بين خيوطها مناطق مترامية لا تكاد فيها لغة السكان وعرفهم وعاداتهم تتأثر بأى حال بلغة غزاتهم الفاتحين وعاداتهم ، وأكثر ما اتضح ذلك فى إقليمى الشمال والغرب ، حيث تناثرت قبائل من الرعاة والزراع البدائيين الموزعين توزيعاً خفيفاً بين المستنقعات والغابات بصورة لا تفى بالمطلوب لبيت المال والاستغلال التجارى على عكس منطقة البحر المتوسط التى اتسع بها نطاق الزراعة ، يضاف إلى ذلك أن النفوذ الرومانى كان يزداد ضعفاً كلما اقترب من أطراف الإمبراطورية ، ولا تنس أن معالم التخوم نفسها أخذت تنطمس وتشبع أمراء الألمان وراء الراين بالثقافة الرومانية ، وسمح لجماهير غفيرة من البرابرة بالسكنى فى الممتلكات الرومانية بشرق بلاد الغالة وفى الأقاليم الواقعة جنوبى الدانوب ، بل لقد حدث فى عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية المعروفة بالبيزنطية أن بعض المواطنين الرومان

كانوا يفضلون الإقامة ببلاط حاكم أجنبى على مواجهة المطالب المتزايدة لجابى الضرائب الإمبراطورى .

وفى الشرق نفسه ، حيث دأبت الممالك الهللينستية التى نشأت عن فتوح الإسكندر على أن تنشر فى كل مكان المثل العليا للحياة بالمدن الإغريقية مدة ثلاثة قرون قبل أن تصل إليه روما – ظلت التقاليد الوطنية كامنة تنتظر ساعة الخلاص لكى تنتفض وتجاهد ، ولم يكن للإغريق سوى أقلية صغيرة بسورية ومصر ، حيث صارت لهم مكانتهم بفضل تفوقهم الثقافى لا العددى ، غير أن الحضارات القديمة بتلك الأصقاع احتفظت بحيويتها وإن غمرتها إلى حين ثقافة يونانية ، كما أن نمو الأدبين القبطى والسوريانى اللذين أنعشهما قيام الكنائس المسيحية التى أصبحت ترجماناً يعبر عن العواطف الانفصالية والمحلية قد غذى شعوراً بالتباعد وعدم التجانس مع فاتحيهم الأجانب ، كما زاد فى حدة المعارضة المريرية لسياسة الإمبراطورية وضرائبها ، وغنى عن البيان أن فقدان الدولة فى النهاية لهاتين الولايتين إنما يرجع لمثل هذه الأسباب الداخلية فإن الغزاة الفرس والمسلمين فى القرن السابع وجدوا عوناً كبيراً من هيئات معادية كثيرة فى هذين الصقين ، أما آسيا الصغرى فلم يصطبغ بالصبغة الهللينستية فيها سوى الحواشى المطلة على البحر ، بيد أن المناطق الجبلية الداخلية التى كانت مستراداً لعصابات اللصوص والمنطقة الرئيسية لتجنيد الجند للجيش الرومانى فيما عقب ذلك من زمن ، لم تكن لها أية تقاليد ثقافية تستطيع أن تكون بؤرة يتجمع فيها التذمر ، ومن ثم استطاعت بيزنطة الاحتفاظ بقبضتها على شبه الجزيرة كله إلى عهد متأخر من العصور الوسطى . (٤)

أما عن المشاكل الداخلية التى ألمت بالإمبراطورية فإن أحوال الإمبراطورية الرومانية أصابتها يد التبديل والتغيير فى القرن الثالث بسبب ما أصابها من ضعف وجمود وانعكسا على جميع أحوالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مما أدى فى النهاية إلى القضاء على مجدها الزاهر ومكانتها

العالميـة وأيسـر مـا يقـال فـى هـذا الصـدد أن الرومـان فـى القـرن الثالـث كـانوا يخدعون أنفسهم ، صحيح أن البناء الخارجى لمجتمعهم ظل قائماً إلى حد ما ، إلا أن روح الإمبراطورية كانت قد ماتت حقيقة من الداخل ، وبمعنى آخر يمكن القـول أن المشـاكل العديـدة التـى ألمـت بالإمبراطوريـة ابتـداء مـن ذلـك القـرن وتضـافرت ضـدها ، سـاعدت فـى المقابـل علـى إيجـاد ثغـرة اسـتطاعت القبائـل الجرمانية والمتبربرة أن تنفذ منها إلى قلب الإمبراطورية وتعمل على سقوطها فى القرن الخامس .

الشـــلل الاقتصـــادى

الفقر المادى :

صاحب جمود الطبقات الاجتماعية واندلاع الفتن بينها فقر مادى خطير أصاب المجتمع الرومانى بشلل قاتل ، ذلك أن الإمبراطورية ودعت عهد التوسع الحربى والمغانم الهائلة ودخلت فى مرحلة من الركود والخسران فتكاليف الإدارة ظلت كما هى ، وزادت مصاريف الدفاع عن الإمبراطورية وحمايتها على حين قلت الموارد وتضاءلت ، ولذا لم يستطيع المجتمع الرومانى اجتياز الأزمة المادية التى نزلت به فى القرن الثالث الميلادى ، وفقد ما امتاز به من مقدرة على التغلب على ما يواجهه من متاعب ، فالناظر إلى تاريخ المجتمع الرومانى يلمس منذ نشأته وتطوره صراعاً بين طبقاته ، كل منها تستهدف صالحها ورفع مستواها ، ثم تمخض ذلك الصراع دائماً عن تحقيق الرفاهية الاجتماعية للجميع ، ذلك أن ازدياد ثراء أفراد المجتمع ورغبة كل طبقة فى أن تسهم بما لها فى إدارة الإمبراطورية والتمتع بالتالى بقدر لائق بها من السلطان والنفوذ خلق بينها أخيراً تفاهماً على ما فيه صالحها العام ، أما الصراع فى القرن الثالث فكان نزاعاً من أجل الحصول على القوات اللازمة والمحافظة على الموارد الشحيحة التى تبقت بيد كل طبقة من طبقات المجتمع ، وهو أمر لا يحمل على التفاهم ، التقارب بينها .

ولذا تميزت الأزمة الاجتماعية فى القرن الثالث الميلادى بنزوة جامحة لاستنزاف موارد طبقات المجتمع بدلاً من التفكير فى وسائل لتنميتها ، أو خلق موازنة بينها وبين الطلبات الملقى عبئها عليها ، وصار راس مال المجتمع وهو دم الحياة الذى يجرى فى شرايين الإمبراطورية يتضائل فى سرعة مخيفة وينذر أهله بالفناء العاجل ، وعجزت الحكومة عن خلق موارد جديدة ولجأت إلى علاج وقتى خطير ، وهو تخفيض قيمة العملة وبدأت هذه الظاهرة السيئة منذ عهد الإمبراطور " كاراكلا " صاحب الدستور الرومانى المشهور ، والذى آذن بزوال مجد المجتمع الرومانى ، فمنذ اختفت النقود الذهبية من السوق بسبب إقبال الناس عليها لعدم ثقتهم فيما عداها من مسكوكات ، وتلا ذلك نقص مضطر فى القوة الشرائية للعملة فى الإمبراطورية فالدينار الذى كان يساوى فى القرن الأول حوالى ١٨ بنسا صار فى منتصف القرن الثالث يساوى أقل من ربع بنس ، ولذا عجز الناس عن أداء مطالبهم وسد حاجاتهم .

وترتب كذلك على عدم استقرار العملة انتشار المضاربة التى أساءت إلى مصالح أفراد المجتمع فكثر استبدال النقد الصحيح فى السر ، ووقعت خسائر مادية كبيرة بأصحاب المصارف والبيوت المالية التى تشرف على أموال المجتمع وعجزت المدن أمام ازدياد العابثين بالنقد عن الحصول على مؤنها الضرورية أو الوفاء بالتزاماتها ، وأشار أحد المعاصرين إلى سوء أحوال بلده قائلاً : " إن الاضطراب قد شاع حقاً فى المدينة بسبب فئة قليلة من الناس وخبثهم ، فهم يعتدون على المدينة ويسرقون أهلها ، ولقد دخلت المضاربة فى سعر القطع أسواقنا بسببهم ، فحرمت المدينة من الحصول على حاجياتها الضرورية حتى أن كثيراً من المواطنين بل السوق بأجمعها قد حل بها الضر من القحط ، ومن أجل ذلك تأخر دفع الضرائب إلى الأباطرة فى وقتها المحدد ، وقام أناس بخزن الفضة النقية جرياً وراء الكسب الحرام " ، وبذلك ساد عدم الثقة

جميـع أفـراد طبقـات المجتمـع الرومـانى وانتشـر بيـنهم الخـوف علـى ثـرواتهم ومصادر أرزاقهم ووقعوا فريسة للفوضى والفزع .

وتردد صدى انخفاض قيمـة العملـة فـى السواق المحليـة والخارجيـة التـى تعامل معها المجتمع الرومانى ، فترتب على إخفاء الناس لأموالهم وإحجامهم عن الشراء كساد التجارة الداخلية وفقر التجار الصغار لعجزهم عن إيجاد من يقرضهم أو يساعدهم على الاستمرار فى نشاطها الاقتصادى ، وفى نفس الوقت أصاب الشلل سائر الموافق الاقتصادية ، ولم تستطيع متابعة عملها بسبب ارتفاع أجور العمال وخوف الناس من الاستمرار فى مشاريعهم لقلة الموارد اللازمة ، وتجلى هذا الكساد فى ركود الصناعات ، وعدم وجود أسواق لتصريفها ، ومن ثم انتشرت البطالة وازداد ضغط الناس على المعونات الحكومية مما أدى إلى خلق طبقة طفيلية خطيرة آذت المجتمع دون أن تقدم له خيراً .

على أن أخطر مظاهر الفقر المادى الذى ارتبط بانخفاض قيمة العملة هو اختلال ميزان التبادل التجارى بين الإمبراطورية الرومانية ومصادر الإنتاج فى الشرق الأقصى وكان الرومان يحرصون على استيراد السلع والمنتجات الشرقية من التوابل والعطور والبخور والحرير وغيرها من الكماليات اللازمة لاستكمال مظاهر حياتهم الاقتصادية ورفاهيتهم كذلك ، وضجر الرومان منذ أيام مجدهم من ازدياد وارداتهم على صادراتهم ، وما ترتب على ذلك من سدهم العجز التجارى بالدفع نقداً ، ونظراً لاحترام العملة الرومانية ظل التجار يصدرون إلى الإمبراطورية حاجاتها من السلع ويزودون المجتمع بمطالبة منها ، وأشار المؤرخ " بلنى " إلى تلك الحقيقة وذكر الأموال الهائلة التى دفعتها الإمبراطورية لسد العجز فى ميزانها التجارى .

ولما انهارت قيمة العملة الرومانية فقد التجار الثقة فيها وبدأ بالتالى نقلهم للمتاجر يتراخى حتى خلت السواق تقريباً من المتاجر الشرقية ، وإن وجدت فثمنها صار باهظاً ، وليس فى متناول الجميع ، وبدأت العلاقات التجارية

بين الرومان والخارج تنقطع أوصالها شيئاً فشيئاً ، وازداد بؤس نقابات التجار التى عملت فى هذا الميدان حتى فقد المجتمع الرومانى عنصراً هاماً من عناصر حيويته ، ودخل فى عزلة اقتصادية عن العالم الخارجى .

وحاول الرومان تعويض ما أصابهم من فقر مادى بالضغط على مستعمراتهم واستنزاف مواردها دون الإنفاق على مطالب تلك المستعمرات الضرورية فكان هم العمال الرومان إرسال المؤن ولاسيما القمح إلى روما دون عناية بالشئون الزراعة لولاياتهم ، وكما انهارت اقتصاديات الولايات تمادى الرومان فى جمع المقادير المطلوبة منها كاملة دون مراعاة لظروفها الطارئة أو أزماتها المادية ، ولم يأت القرن الثالث الميلادى حتى انتشرت الثورات فى سائر أرجاء الإمبراطورية ولاسيما فى الجهات التى اعتمد فيها الرومان على الحصول على الغلال وتطلب إخماد تلك الفتن أموالاً باهظة ، وقع عبئها على المجتمع الرومانى فى وقت نضبت فيه موارده من الداخل والخارج وصار يعانى فقراً مدقعا

وتولت الحيرة سائر طبقات المجتمع الرومانى أمام كارثة الفقر المادى التى حلت بهم وعجزوا عن التفكير فى وسائل تنقذهم من مآزقهم ، ولذا انقلبت كل طبقة على الأخرى تحاول أن تسلبها أرزاقها وأقواتها دون مبالغة بالصالح العام وصار عدم الاستقراء طابع الحياة الاقتصادية للمجتمع الرومانى فى القرن الثالث ، ومن آياته انهيار معنويات الأفراد وانتشار البؤس والشقاء بين الجميع لنهم فقدوا المال عصب الحياة .

السخرة والواجبات الإجبارية :

ونزل بالمجتمع الرومانى كارثة اقتصادية أخرى لا تقل خطورة عن ضياع موارده المالية وتتلخص مظاهر تلك الكارثة فى اعتماد الحكومة على السخرة وفرض الواجبات العامة على سائر طبقات المجتمع بدلاً من الحصول على الضرائب والأموال المقررة ، ذلك أن السلطات الرومانية حين عجزت عن خلق موارد مالية وبدأ الفقر يصيب خزانتها لجأت إلى هذا اللون الفاسد من

الضرائب لإعادة توازن المالية العامة ، وهذا الأسلوب الاقتصادى أشبه بالمخدر السام الذى يخيل لمن يتعاطاه أنه قد تخلص من المسئوليات الملقاة على عاتقه ولكنه سرعان ما يرى نفسه نهبا لمرض عضال لإخلاص منه إلا بالموت أو العجز التام . (٥)

الحالة الاجتماعية :

من المعروف أن المجتمع الرومانى كان مجتمعاً طبقياً تفاوتت فيه الفوارق بشكل واضح وتناقض بالغ فالطبقة الثرية الأرستقراطية التى تألفت من العائلات السناتورية الرومانية وكبار الموظفين وأصحاب الملكيات الزراعية الواسعة عاشت فى المدن ، غير عابئة بالنظم والقوانين ، كان عليها دفع الضرائب للسلطات الرومانية أسوة ببقية الطبقات ، ولكنها من الناحية العملية استطاعت التخلص أو التهرب من الكثير منها ، كذلك لن تتأثر تلك الطبقة بالأزمات الاقتصادية التى ألمت بالإمبراطورية فى القرن الثالث إذ امتلك أفرادها الثروات الضخمة وعاشوا فى قصورهم وسط أملاكهم الواسعة يحيط بهم الخدم والعبيد ، استأجر الكثير منهم حراساً خصوصيين – غالباً من الجرمان – لحمايتهم ، بيد أن اضطرابات الحياة السياسية فى ذلك القرن كان لابد أن تؤثر فى تلك الطبقة فأخذت أعدادها تتناقص ونفوذها يتضاءل وينكمش ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من الأباطرة الذين وصلوا إلى العرش الإمبراطورى قاموا بقتل خصومهم السياسيين من أعضاء السنتو ، واستبدلوا بهم رجالاً أقل كفاءة ومقدرة داخل مجلس السناتو ، كما صادروا ممتلكات البعض منهم أحياناً ، وإبان تلك الظروف قل ولاء أعضاء السناتو للحكومة الرومانية وسرعان ما بدأت التقاليد القديمة التى حرصوا عليها فى الأيام الأوائل للإمبراطورية فى الانهيار ، حتى أن رتبة السناتورية غدت فى القرن الرابع مجرد لقب شرفى يمن به الإمبراطور على من يشاء من أتباعه المقربين إليه، وقد كان سخياً فى ذلك.

أمـا الطبقـة الوسـطى القديمـة التـى كانـت عصـب الحيـاة فـى المجتمـع الرومـانى وقامـت بـدورها الرائـع فـى مجـالات الزراعـة والصـناعة والتجـارة خـلال القرنين الأول والثـانى ، فقد قدر لهـا أن تنهـار تحت وطـأة الكـوارث الاقتصـادية التى ألمت بالإمبراطوريـة من ناحيـة وتحت عبء المطالب الباهظـة التـى فرضت عليهـا مـن ناحيـة أخرى وبعد أن كانـت تلـك الطبقـة تؤلـف الغالبيـة العظمـى مـن صـغار المـلاك انتهـى مصـيرها إلـى الاضـمحلال وأخـذت أعـدادها فـى النقصـان تدريجياً ، وانحدر أفرادها إلى حالة من البؤس تزيد قليلاً عن حالـة الأقنـان الـذين يعملـون فـى الضياع السنيورية ، ومـن المشـاهد أن العديد مـن صـغار الفلاحين الأحرار أثـروا التخلـى عن أراضيهم لكبـار المـلاك الـزراعيين بغيـة الـتخلص مـن أعبـاء الضـرائب أو الـدفاع عـن مسـاكنهم ضـد الغـزاة أو اللصـوص ، بعـد أن طحنـتهم متاعـب القـرن الثالـث ، وأصـبحوا أقنانـاً *(Colni)* وجـب علـى كـل قـن *(Colonus)* لديه قطعة من الأرض يتولى زراعتها أن يتعهد بدفع إيجارها نقداً أو عينـاً أو خدمـة ولـيس مـن حقـه مغـادرة الأرض التـى يقـوم بزراعتهـا بعـد أن منعته قوانين الإمبراطورية من ذلك .

وإذا انتقلنـا إلـى طبقـة العبيـد التـى كانـت تمثـل نسـبة عظيمـة مـن سـكان إيطاليـا نـرى أن ثمـانين فـى المائـة مـن العمـال فـى الصـناعة وفـى تجـارة الأشـتات كانوا من العبيد ، كما كانت معظم الأعمال اليدويـة والكتابيـة فـى المصـالح يؤديهـا " عبيد عموميون " *(Servi Publici)* وقد عمل العبيد فى ظروف صعبة سيئة جعلت حياتهم بائسة معذبة ، ومما يدل علـى ذلـك حالـة أولئـك العبيـد الـذين كـانوا يعلمـون فـى طاحونـة ، فهـم شـاحبو الوجـه عرايـا إلا ممـا يكـاد يسـتر عـورتهم ، علقت أجراس فى أقدامهم ، وتخددت أجسادهم من جراء العلامات السوداء التـى خلفتهـا ضـربات السـياط ، أمـا عبيـد المنـازل كـانوا أنواعـاً لا حصـر لهـا تنوعـت أعمـالهم وقـد لاقـوا العـذاب والاضـطهاد والقسـوة علـى يـد سـادتهم الـذين اختلفـت أهواؤهم ومشـاربهم فكـانوا أحيانـاً يقتلـون وأحيانـاً يضـربون ، ويمكننـا أن نلمـس

المعاملة السيئة التى لقيها عبيد المنازل إذا علمنا أن أحد السادة الرومان كان يصر على أن يقف خدمه حول المائدة صامتين وكان يعاقب من يعطس منهم بالجلد ، كما كان يحدث أن تأمر سيدة رومانية بجلد خادمتها إذا ما ضايقها اضطرابها فى تصفيف شعرها ، على أن متاعب العبيد أيام الإمبراطورية أخذت تقل شيئاً فشيئاً إثر قبولهم أعضاء فى الأسر التى كانوا يخدمونها ، يضاف إلى ذلك أن العبد كان بإمكانه الإفلات من أغلال العبودية وينال حريته عادة فى ست سنوات بفضل أمانته وتفانيه فى خدمة سيده ، كما أن ضعف الحكومة الرومانية فى القرن الثالث جعل فرار العبيد من سادتهم أمراً سهلاً ميسوراً .

ومن الملاحظ أن سكان الإمبراطورية خلال القرنين الثانى والثالث قد نقص عددهم إلى حد كبير بسبب المجاعات والأوبئة والطواعين التى انتشرت آنذاك ومن أسباب النقص أيضاً إعراض الرومان عن الزواج بعد أن ساء سلوكهم وحادوا عن طريق الجادة حتى أن المؤرخ أميانوس مارسيللينوس (٣٢٥ –٣٩١) *(Amianus Marcllinus)* يرى أن جميع المآسى التى تعرضت لها الإمبراطورية إنما ترجع إلى الفساد والتدهور الخلقى اللذين تغلغلا فى جوانبها ، والحقيقة أن الرومان كانوا يميلون إلى الإكثار من النسل ، ولكنهم خلال الفترة التى نتناولها نظروا إلى الزواج على أنه مغامرة قصيرة الأجل خالية من كل معنى روحى ، من السهل التحلل منه ، وكانت موانع الحمل واسعة الانتشار ورغم أن الفلاسفة والمشرعين كانوا يحرمونها إلا أن أرقى الأسر الرومانية كانت تلجأ إليها . [٦]

تلاشى الروح الحربية :

كانت آخر مظاهر انهيار التقاليد الرومانية هو تخلى أفراد المجتمع عن الروح الحربية التى اتصفوا بها منذ فجر تاريخهم ، فالجيش الرومانى كون عنصراً هاماً من عناصر المجتمع ، ومثل العمود الفقرى لمجده وازدهاره ، ذلك أن المجتمع الرومانى قام على أساس التوسع الحربى ، وارتبطت أحداث تطوره

على مر الأيام بما ترتب على انتصارات الرومان من نتائج اجتماعية باهرة ، وتألف الجيش الرومانى من المواطنين الأحرار فعلاً ، أو أولئك المؤهلين لنيل حقوق المواطنة الرومانية فى المستقبل ، فوقع الاختيار على الضباط من بين صفوف طبقة السناتو والفرسان ، وعلى ضباط الصف من أحرار الرومان الذين ولدوا فى إيطاليا أو الأجزاء التى اصطبغت بالصبغة الرومانية فى الشطر الغربى من الإمبراطورية ، وتلقوا تعليمهم فى إيطاليا ، أما الفرق المساعدة فى الجيش وهى التى اشتملت على غير الرومان فكان على الجندى فيها أن يعرف اللاتينية وكان يمنح الجنسية الرومانية عند تسريحه .

وجاء تشكيل الجيش على النحو السالف دلالة على قوة الروح الحربية بين أفراد المجتمع وحرصهم على المساهمة فى شرف تكوين إمبراطوريتهم والدفاع عنها ، وظلت تلك الروح الحربية تلازم الجند الرومان طيلة عصر التوسع الحربى ، وتكسب إمبراطوريتهم الهيبة والاحترام ، وتحمل سكان المدن الرومانية النصيب الأكبر من تشكيل الجيش واستطاعوا بفضل ما تجمع لديهم من الثراء الانصراف للتدريب الحربى وإجادة فنون القتال حتى اقترن مجد الرومان الحربى بمجد المدن التى مثلت عصب الحياة للمجتمع الرومانى فى عصره الزاهر .

غير أن توقف التوسع الحربى وجود طبقات المجتمع فى القرن الثالث الميلادى أصاب الروح الحربية عند الرومان بالانهيار وقضى على الحارس الأمين للتقاليد الرومانية إذ ترتب على الصراع بين المدن والريف وانشغال طبقات المجتمع بهذا النضال انصراف شباب المدن عن الخدمة العسكرية وانغماسهم فى السلب والنهب والمبارزة بالسيف ، ولذا لجأت السلطات الرومانية إلى تجنيد العبيد والمصارعين ورجال الشرطة فى المدن ، مما قضى على الروح الحربية الأصلية فى الجيش ، ثم زاد فى الضعف الحربى الالتجاء إلى أهل الريف فى التجنيد والابتعاد عن المدن تدريجياً ذلك أن الفلاحين لم يقطعوا صلتهم

بالريف ، ولم يتفرغوا للتدريبات الحربية وصار الجيش الرومانى فى القرن الثالث الميلادى خالياً من عناصر الشجاعة والبطولة التى امتلأت بها صفوفه فى أيامه الأولى .

واقترن بانهيار الروح الحربية ابتعاد الاستقرار عن الجيش ، الذى صار عبارة عن مجموعة فرق مرتجلة مؤلفة من فلاحين جندوا قسراً وينظرون إلى القتال على أنه أمر كريه بغيض إلى نفوسهم ، وفضلا عن ذلك استغل الجند من الريف سلطانهم فى الجيش وناضلوا الطبقات العليا وسكان المدن ، وانصرفوا كلية عن واجبهم الأول وهو الدفاع عن الإمبراطورية ، ثم أن المتزوجين من الجنود هجروا أخيراً ثكناتهم ولجأوا إلى أكواخ فى القرى وانصرفوا إلى حياة الدعة والسكون وصار الجيش الرومانى خالياً من القيادة السليمة الحكيمة ولا يملك القوة الضرورية لأداء واجبه ، ولذا بدأ الجيش ينفصل رويداً رويداً عن المجتمع الرومانى ، مما أذن بانهيار ركن هام من أركان ذلك المجتمع ومهد لفنانه التام آخر الأمر .

وتجلب آيات الانهيار الشامل فى المجتمع الرومانى حين اضطر الأباطرة إلى إحلال الجند المرتزقة محل الفلاحين ذلك أن الفرق المرتزقة لا تمت إلى المجتمع وأبنائه بأية صلة ، ولا يمكن أن تدرك أهداف ذلك المجتمع وآمال أبنائه ، ولذا فإن إقصاء الفلاحين عن الجندية بحجة انصرافهم عن القتال أتاح السبيل لانفصال جماهير الرومان عن جيشهم وحرم المجتمع الرومانى من آخر مظهر للاحتفاظ بكيانه وهيبته ، وفى نفس الوقت تحمل المجتمع أعباء المرتزقة إذ وضعت السلطات الرومانية نظاماً يقضى باستبدال الخدمة العسكرية بالبدل النقدى ***(Aurum Tironicum)*** ، وخصصت هذا المال للإنفاق على المرتزقة وقادتهم ، ثم زاد من وطأة فرق المرتزقة ومفاسدها أن جندها اختيروا من بين أقل القبائل حضارة فى الإمبراطورية ، وهى المعروفة باسم " البرابرة " لعدم

اصطباغهم بالصبغة اللاتينية ، مثل قبائل الالليريين والتراقيين والبريطانيين والألمان والسرماتيين .

وبذلك لم يعد الجيش الرومانى الجديد هو جيش المجتمع ، وإنما صار أداة فى يد الأباطرة ولا يمثل مصالح السكان بأية حال من الأحوال ثم أن ذلك الجيش فقد الواجب الأول الذى تحلى به الجندى الرومانى القديم ، وهو الحرص على سلامة الإمبراطورية وتوسيع أرجائها وصارت الفرق المرتزقة تمثل طائفة بنفسها ويدفع المجتمع الرومانى نفقات الاحتفاظ بها مكرهاً .

ثم لم يلبث قادة المرتزقة أن تدخلوا فى الشئون السياسية للإمبراطورية وتطلعوا إلى اغتصاب المناصب الكبرى لأنفسهم من دون أبناء المجتمع الرومانى ، فاستغلوا الصراع الاجتماعى الذى دار بين أهل المدن والريف ، وانغمسوا فى تيار الفتن والمنازعات ، بحيث يسيطرون على أزمة الموقف لأنفسهم وليلتهموا أكبر قسط من المغانم ، واتسم هجوم المرتزقة على طبقات المجتمع الرومانى بالعنف والوحشية وامتصاص كل أرزاقها ومقومات حياتها ، ذلك أن الجند المرتزقة لم يهدف من صراعه غير السلب ، والعمل على استمرار الفوضى ليظل سيد الموقف ، وأدركت القوى الرومانية المتنازعة خطأ اعتمادها على المرتزقة بعد فوات الأوان حيث انتهى الأمر بأن رقدت طبقات المجتمع الرومانى ممدة لا حول لها ولا طول تحت أقدام أولئك الجند المرتزقة من البرابرة

وتجلى خطر الفرق المرتزقة وسيادتها على المجتمع الرومانى حين ساعدت سيبتميوس على الوصول إلى العرش الإمبراطورى إذ قامت الفرق الالليرية والتراقية بالضغط على مجلس الشيوخ الرومانى للاعتراف بسيبتميوس إمبراطوراً وقضت على المعارضين من أعضاء المجلس ، وصار الإمبراطور الجديد ألعوبة فى أيدى الجند المرتزقة خاضعاً لمشيئتهم وأداة تنفيذ مطامعهم فملأ معظم مناصب الجيش من العناصر البربرية وزاد مرتبات المرتزقة

وامتيازاتهم ، وغدت الطبقات الرومانية الأصلية محرومة من ممارسة أى نشاط ولا تستطيع مقاومة هذه الجراثيم الفتاكة التى انطلقت فى المجتمع .

وازدادت هيمنة الفرق المرتزقة على سائر مرافق المجتمع الرومانى بعد عهد سيبميوس إذ دأب خلفاء هذا الإمبراطور على خطب ود قادة تلك الفرق وأغدق العطايا والهبات عليهم ومنحهم الرشاوى لكسب مساعدتهم وضماناً لبقائهم على العشر الإمبراطورى وأدرك قادة المرتزقة حقيقة وضعهم وتمادوا فى غرورهم دون أن يستطيع أحد إيقاف خطرهم أو الحد من شوكتهم ، فتجمعت بأيديهم مقاليد الأمور وغدوا القوة المحركة لشئون الإمبراطورية من دون أبناء المجتمع الرومانى ، وفرض المرتزقة ستاراً حديدياً بين الأباطرة ومواطنيهم وحاولوا دون قيام حركة إصلاحية من شأنها إنقاذ الوضع السئ الذى تردى فيه المجتمع ، ثم إن فظاظة المرتزقة وعنجهية رؤسائها نفر منم المواطنين الرومان الذين نظروا إليهم على أنهم يمثلون طبقة طفيلية لا هم لها إلا سلب المجتمع مصادر حياته وامتصاص دمائه .

وبذلك ترتب على سيادة المرتزقة قيام حكومة أجنبية عن المجتمع الرومانى لا هم لها إلا مصالحها الشخصية والتمتع بكل الخيرات التى تصل إلى يدها ثم أن هذه الحكومة اتصفت بحبها الرشوة والسرقة فضلاً عن استخدام القسوة والعنف ، كما زادها بغضاً وكراهية استخدامها لقواتها العسكرية استخدامها سيئاً دون أن يستطع أحد كبح جماحها أو التصدى لها ، ولذا صار الرومان فى حيرة من أمرهم لأنهم تحملوا نفقات هذه القوات الأجنبية البغيضة على نفوسهم دون أن يعرفوا سبيلاً للخلاص من مفاسدها إذ بقيت سائر الهيئات الرومانية القديمة أشباحاً هزيلة لا تقدر على ممارسة نشاطها أمنا طغيان المرتزقة ، وخاصة مجلس السناتو الذى فقد كل هيبة وسلطان ولم يعد يضم بين صفوفه شخصيات قوية لا تخشى مواجهة الظلم والعدوان .

ولم يقتصر خطر المرتزقة على هدم سلطان المجتمع الرومانى فحسب وإنما قضى كذلك على مجد الرومان الحربى قضاء مبرماً ، ذلك أن فرق المرتزقة ملأت الحصون ومعاقل التخوم على امتداد الأطراف الرومانية ، وصاروا يمثلون القوة الحارسة للإمبراطورية ، ولم يفهم ألئك البرابرة حقيقة رسالتهم لأنهم أغربا عن المجتمع وأهدافه ولم يعرفوا كذلك أسباب الدفاع الحقيقى عن سلامة الإمبراطورية ، فعاش الجند المرتزقة مع أسرهم وأبنائهم فى الثكنات عيشة راخية ، وتحولوا تدريجياً إلى جماعات مستقرة لا تعلم شيئاً عن أساليب القتال الحقيقى ، ويعتبر تخلى الرومان عن حراسة تخومهم وإلقاء تلك المسئولية على عاتق القوات الأجنبية خاتمة المطاف فى حياة المجتمع الرومانى ، ونذير الموت والفناء للمجد الرومانى القديم ذلك أن جيران الإمبراطورية بدأوا يتطلعون إلى الهجوم عليها والاعتداء على ثرواتها بعد أن كانت الهيبة تملأ نفوسهم من القوات الرومانية وبأسها القديم .

وهكذا بات المجتمع الرومانى فى عزلة كاملة عن التيارات الصاخبة التى أحاطت به من كل جانب سواء من الداخل أو الخارج وهى تيارات كانت على وشك الانطلاق وإحداث تغييرات عالمية إذا انتهى العهد الذى اتصف فيه الرومان بالنشاط الجم والقدرة على مواجهة الخطوب أو العمل على تلاقيها قبل الوقوع وصار المجتمع راكداً جامداً يعلو أبناءه الكآبة والسأم ، يفتقرون إلى الغذاء السليم سواء أكان مادياً أم روحياً ، وذلك فى الوقت الذى تجمعت فى أفقه سحب عديدة لم تلبث أن هطلت على أرض أوروبا ، وأدت إلى خلق مجتمع جديد ، هو الذى ملأت أحداثه صفحات العصور الوسطى . (٧)

الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥) :

سلك دقلديانوس طريق الجندية وعول عليها فى الوصل إلى ما يصبو إليه وشغل بعض الوظائف الصغيرة فى غالة ، ثم ارتقى إلى حكم ماسيا *(Maesia)* فى البلقان ثم إلى رتبة القنصل ثم إلى قيادة الحرس الإمبراطورى وهى وظيفة على جانب كبير من الأهمية وما لبث أن اخترته الجيوش الشرقية قائداً لها سنة ٢٨٤م ، ثم أصبح قائداً للجيوش الغربية أيضاً ولعبت الفيالق البانونية دوراً هاماً فى اختياره إمبراطورياً فى نهاية الأمر .

وعلى الرغم مما عرف عنه من رجاحة العقل والدهاء إلا أنه أظهر شدة وصرامة وقسوة فى معالجة الأمور ول يحفل بنفور الناس وكراهيتهم بل أحاط نفسه بأبهة الملكية وعظمتها وأضفى على نفسه مهابة وقداسة دينية وأدعى لنفسه بعض الحقوق الإلهية ، ومع أن دقلديانوس اشتهر بأنه رجل دولة وسياسة أكثر من رجل حرب وطعان ، إلا أن إعجاب المعاصرين به رفعه إلى مصاف الأباطرة العظام حتى ليعد مؤسساً لإمبراطورية جديدة ، مثله فى ذلك مثل أوغسطس ، بل أنه محا – فى رأى آخر – طقوس العصر الرومانى وأضاعه ومهد بما استحدثه فى الحكم والإدارى للعصر البيزنطى ، وما اشتهر به من طقوس وأوضاع .

وتشير الدلائل إلى أن دقلديانوس كان ثاقب الفكر بعيد النظر وأنه تفهم حتماً مشاكل عصره قبل أن يلى العرش وتوصل إلى حلول لها ، ولابد وأن أولى تلك المشاكل ما كان يحدث من فتن عسكرية وما كان يثور بين الحين والحين من طموح القادة فضلاً عن بروز المتمردين والثائرين أملاً فى الفوز بالمنصب الإمبراطورى ، وقد أدرك دقلديانوس أن توليه بنفسه قيادة الجيش فى الحملات الهامة يمكن أن يحل جانباً هاماً فى تلك الظاهرة الخطيرة ، إذا يحرم القادة العسكريين من فرص تحقيق انتصارات باهرة تغريهم بالتطلع إلى المنصب

الإمبراطورى وتدفع الحماسة فى نفوس جندهم فيؤازرونهم للفوز بالعرش ، كما أدرك أن الإشراف على شئون الدفاع عن الإمبراطورية لا يتأتى لرجل واحد وأنه كلما تزايد عدد الأباطرة قلت الفرصة أما الثائرين وتضاءل أملهم فى الفوز بالمنصب الإمبراطورى .

ولهذا وضع دقلديانوس نظاماً جديداً فى الحكم غاير به نظم الإمبراطورية منذ قيامها أيام أوغسطس ، فقد قسم الإمبراطورية إلى قسمين كبيرين بخط يمتد من الشمال إلى الجنوب عبر البحر الأدرياتى ورفع زميلاً له ورفيق سلاح يدعى مكسيميان *(Maximian)* إلى المنصب الإمبراطورى ليصبح شريكاً له فى الحكم ، وأضفى عليه فى البداية لقب قيصر سنة ٢٨٥م ، ثم ما لبث أن منحه لقب أوغسطس سنة ٢٨٦م ، بعد أن أقام بدور هام فى إقرار الأمور فى غالة والانتصار على الجرمان الذين عاثوا فساداً فيها وأعاد السيطرة الرومانية على الطرق المؤدية إلى حدود الإمبراطورية ، حقيقة لعب الجند دوراً هاماً فى المناداة بمكسيميان إمبراطوراً (أوغسطس) فى أبريل سنة ٢٨٦م إلا أن ذلك لا ينفى أن دقلديانويس كان بصدد إقامة نظام حكمه الجديد وتوزيع المسئوليات فى الإمبراطورية . (٨)

الحكومة الرباعية :

على أن تجارب حكومة دقلديانوس التى استغرقت خمس سنوات أقنعته أن ما اتخذه من تدابير دستورية كافية لمنع الفتن والثورات ، وللمحافظة على ما تمارسه الأسرة الإمبراطورية من سيادة ، فما حدث من الاعتراف بسلطان المغتصب كاروسيوس ليس إلا إقراراً بالفشل ، وأدرك دقلديانوس ومكسيميان أنه ليس بوسعهما الاضطلاع بكل ما هو ملقى عليهما من أعباء ، ولذا قرر دقلديانوس أن يعين قيصرين لمساعدة الإمبراطورين ، فوقع اختيار دقلديانوس على جاليريوس ليكون قيصراً فى نيقوميديا ، بينما جعل مكسيميان قنسطنطيوس قيصراً فى ميلان ، وكلن جاليريوس رجلاً نشيطاً سريع الحركة شديد البأس بالغ

الاستقامة شديد القسوة لا يحفل بالعواطف ، وما كان من التشابه بينه وبين مكسيميان فى الاتجاه يفسر ما كان بينهما من كراهية متبادلة ، أما قنسطنطيوس فكان من النبلاء اشتهر بأنه حاكم متزن صادق الحكم محب للخير، وما أنجزه من أعمال فى غالة وما حازه من محبة الناس بين سكان الأقاليم دل على مهارته السياسية وهو يشبه دقلديانوس فى أمور كثيرة ، وكيفما كان الأمر فإن جاليريوس وقنسطنطيوس كانا قائدين بارعين ، وكان ذلك من الأمور الجوهرية فى الوقت الذى تم فيه اختيارهما ، فقد تولى كل إمبراطور اختيار مساعده (القيصر) وجرى من روابط المصاهرة بين هؤلاء جميعاً ما وطد الصلة بينهم .

تألفت من الإمبراطورين ومساعديهما حكومة رباعية ، فإذا تخلى أحد الإمبراطورين عن الحكم بادر مساعده باحتلال مكانه ، على أن يتولى الإمبراطور الذى انسحب اختيار القيصر الجديد الذى يحل مكان سلفه الذى تولى العرش ، وتقرر أن تكون فترة حكم الإمبراطور عشرين سنة ، يتخلى بعدها عن الحكم وذلك لمنع المنافسات حول العرش أو اغتصابه .

وكان للقيصرين ما للإمبراطورين من حقوق وامتيازات مثل سك العملة وألقاب التشريف والاحتفال بتوليه السلطة وبما يجرى إحرازه من الانتصار إذ يشترك جميع أفراد الهيئة الحاكمة فى كل الأمجاد .

وقد اتخذ دقلديانوس لقب يوفيوس ***(Jovius)*** ، بينما حاز مكسيميان لقب هرقل ***(Herculius)*** ، وإ كان جوبيتر أب الآلهة والبشر وله السلطة العليا فى المساء ، وكان هرقل يدعو للسلام على الأرض ، كان لزاما على يوفيوس وهرقل أن يعملا فى وفاق فى ظل رعاية وحماية إلهيهما اللذين يمثلان جوهرى الإمبراطورية : السلطة والعمل .

أصبحت الإمبراطورية بأجمعها يحكمها نظام دستورى حماها من الخطر الخارجى ، ومنع ما قد يحصل بالداخل من اغتصاب للحكم وزاد فى قوة وحدتها

مـا صـار للأبـاطرة مـن صـفة إلـهيـة ، فصـارت السـلطة الإمبراطوريـة مطلقـة ، وليسـت ثمـة حـدود لحـق الأبـاطرة فـى تشـكيل العـالم ، وفـى تقييـد البشـرية أو تحريرها وإذ استقل دقلديانوس عن السناتو والجيش ، أضحى بوسعه أن يعين الأباطرة وخلفاءهم الذين يعتبرون بدورهم آلهة ، وأضحى للحكومة الرباعية سند إلهى ، ففى كل ما وقع من التنظيمات والإصلاحات الدستورية والإدارية والمالية ، وفى كل ما جرى اتخاذه من تدابير للاستقرار الاقتصادى والاجتماعى ، وفى حالتى الحرب والسلام ، وفى السياسة الثقافية والدينية كانت إمبراطورية جوبيتر مائلة على أنها أداة للتنظيم ، وكل الإصلاحات التى جرى تنفيذها فى سائر نواحى الحياة لم يكن الغرض منها سوى تحقيق نظام واحد أرادته الآلهة .

التنظيمات الإدارية :

كان دقلديانوس يهدف من إصلاح الإدارة الإقليمية إلى تأمين مركز الإمبراطور من كل ما يتعرض له من اعتداء الموظفين الذي يسعون للسلطة ، وذلك بفصل السلطة المدنية (الإدارية) عن السلطة العسكرية ، وبتصغير مساحة الأقاليم ، وكان لزاماً على كل إصلاح أن يحل هذه المشكلة فكيف يتسنى ضبط العناصر المتنافرة فى إمبراطورية شاسعة المساحة ، حتى يتألف منها دولة متحدة ، وكيف يجرى الحصول على الاعتراف بإرادة الإمبراطور التى تعتبر رمزاً للوحدة ، فضلاً عن توفير أسباب الدفاع عن الإمبراطورية ، ومباشرة الإدارة الداخلية إلا بإقامة هيئة من الموظفين المدنيين لابد من ضبطهم ومراقبتهم بكل دقة ، والواقع أن إنقاص مساحة الأقاليم وما يتبعه من إضعاف السلطة والولاية كان فى صالح الرعية ، ولذا حرص دقلديانوس على أن يباشر الولاة وظائفهم القضائية بأنفسهم ، ولم يجز دقلديانوس لهؤلاء الولاة أن يعينوا قضاة يمثلونهم إى فى الحالات القصوى التى تمنعهم من مباشرة أعمالهم، بلغ عدد الأقاليم مائة زمن الحكومة الرباعية الأولى .

وفيما يبى ما جرى من تقسيمات إدارية ابتداء من الأقاليم الكبيرة إلى الأقسام الإدارية الصغيرة ، انقسمت الإمبراطورية إلى أربعة أقاليم كبيرة تعرف بالولايات *(Prefecturae)* وهى :

١- ولاية غال : ووتشمل بريطانيا وغالة وأسبانيا والمنطقة المعروفة الآن باسم مراكش .

٢- ولاية إيطاليا : وتمشل كل الأراضى الواقعة على نهر الدانوب وبحر الأدرياتى وإيطاليا والأقاليم المعروفة حالياً بالجزائر وتونس وطرابلس (الغرب) .

٣- ولاية أيلليريا : وتشمل داسيا ومقدونيا وبلاد اليونان .

٤- ولاية الشرق : وتضم ما تبقى من أقاليم الإمبراطورية .

وهذه الولايات لم تلبث أن انقسمت إلى اثنتى عشرة وحدة إدارية تعرف باسم *(Diocesis)* واتخذ حاكمها لقب *(Vicarius)* وهذه الوحدة تشمل :

١- الشرق : ويضم البلاد الواقعة جنوب جبال طوروس ، فضلاً عن أيزوريا وتمتد إلى مصر وبرقة

٢- بونطوس : شرق آسيا الصغرى .

٣- أسيانا : غرب آسيا الصغرى .

٤- تراقيا : ويتبعها مؤيسيا السفلى .

٥- مؤيسيا : وتضم مقدونيا وأبيروس وأنايا وكريت .

٦- بانونيا : ويتبعها دالماشيا ونوريكوم .

٧- إيطاليا : ومعه رائتيا .

٨- إفريقية : الشطر الغربى من جبال سيرت *(Syrtes)* .

٩- أسبانيا : ويتبعها موريتانيا .

١٠- فيينيس *(Viennenis)* : أجزاء فرنسا الواقعة إلى الجنوب والغرب حتى نهر اللورا .

١١- غاليا : ما تبقى من فرنسا والأراضى الممتدة إلى نهر الراين .

١٢- بريطانيا : التى انقسمت إلى أربعة أقاليم .

والواقع أن عمال هذه الوحدات أضفوا ما كان للولاة الكبار من سلطان بما حدث من التنافس بين اختصاص الفئتين ، إذا صارت أحكام هؤلاء العمال ترفع مباشرة إلى الإمبراطور وكان أرباب كل فئة من هاتين الفئتين ترقب أعمال الفئة الأخرى وتعتبر مسئولة عن سلوكها ويشمل اختصاصها الإدارة والقضاء .

ثم جرى تقسيم هذه الولايات والأقسام إلى وحدات صغيرة تبلغ المائة عدداً متقاربة فى المساحة ويتولى كل وحدة منها حاكم *(Judex)* . وكل هؤلاء الموظفين يختارون من المدنيين وإلى جانبهم فئة أخرى من القادة العسكريين *(Duces)* .

وأتم دقلديانوس إدماج البلديات فى الحكومة وبذا فقد البلديات ما تبقى لها من استقلال ، ذلك أن سائر وظائف المدينة أضحت رويداً رويداً عبارة عن واجبات وخدمات إجبارية التزم بها الموسرون من أهل المدينة ، وأكبر ما كانت تؤدى هذه الخدمات لصالح الدولة لا صالح البلديات ، والمعروف أن موظفى البلديات كانوا من فئات الملاك فصاروا خاضعين لحكام الأقاليم الذين تضبطهم الحكومة المركزية عن طريق عمالها *(Vicarii)* ، وبهذه الوسيلة تعتبر الإدارة المركزية قمة هيئة الموظفين الذين تتزايد سلطتهم كلما اقتربوا من قمة الهرم حتى ينتهى كل مظاهر النشاط والقوة آخر الأمر إلى يد الإمبراطور ومجلسه . [٩]

وإذا انتقلنا إلى الجيش نلاحظ أن دقلديانوس اعتزم جعله الأداة الجديرة بالدفاع عن الإمبراطورية وحدودها ضد أعدائها ويتضح ذلك بجلاء فى حرصه على التمسك بفكرة خطوط الدفاع على الحدود فبنى العديد من القلاع والتحصينات والموقع الدفاعية المنيعة حيث ترابط الحاميات بصفة دائمة ، وشق الطرق الضخمة التى تسمح للجند بالتحرك السريع ، ورغم أن بعض الفرق العسكرية كانت تشتمل – آنذاك – على أعداد من الجرمان فى أوروبا ، والبربر

فـى أفريقيـة ، والعرب فـى سوريا إلا أن الغالبيـة العظمـى تألفت مـن المـواطنين الرومـان المتمتعين بحقوق المواطنـة الرومانيـة كاملـة ، وحرصـاً مـن دقلديانوس على درء الأخطار الخارجية استلزم الأمر زيـادة أعداد الجيش لذلك أصدر أوامره بجعل الخدمـة فـى الجـيش إلزاميـة ، كمـا سـمح – لأول مـرة – لأبنـاء الجنـود والمحـاربين القـدماء والمتطـوعين بـالانخراط فـى سـلك الجـيش ، ولـم يلبـث دقلديانوس – ومـن بعده قنسطنطين – أن قام بإدخال بعض الإصلاحات علـى الجـيش فأعـاد تنظيمـه علـى أسـس جديـدة بـأن قسمـه إلـى فـرعين واضـحين : أحدهما للقيام بواجبه فى حراسة حدود الإمبراطورية عند نقاط معينـة ، ويتألف هذا الفرع مـن جنـد وراثيين يتنـاولون أجـورهم أرضـاً أطلق عليهم قوة الحدود *(Limitanei)* . أمـا الفـرع الآخـر فكـان بمثابـة جـيش مركـزى احتيـاطى سـريع الحركـة هـو جـيش المعيـة أو الردفـاء *(Comitatenses)* (الردفـاء هـم هيئـة النبلاء المحـاربين الملحقين بشـخص الإمبراطـور) تحت قيـادة الإمبراطـور علـى أهبـة الاستعداد للتحرك لدفع الأخطار عن الإمبراطوريـة فـى حينهـا دون إضـاعة للوقت ، أمـا الحـرس البرايتـورى (الإمبراطـورى) الـذى كـان يلعب دوراً هامـاً فـى تنصيب الأباطرة وخلعهم فقد ذهب إلى غير رجعة . (١٠)

مقدمة : الإمبراطور قنسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧) :

ثم كـان أن تنحـى دقلديانوس عن عرش الإمبراطوريـة سنـة ٣٠٥م بعد أن بلغ الستين من عمره واستبد بـه المرض وأحسن أن الوقت قد حـان ليتخلـى عن الحكم لغيره بعد أن أدى واجبـه فـى إنقاذ الإمبراطوريـة ودعمهـا ، وقد أعقب نزول دقلديانوس عن منصب الإمبراطورية قيام حرب أهليـة استمرت سبـع عشرة سـنة وبـرزت خلالهـا شـعبية قسطنطين الـذى اسـتطاع أن يتغلـب علـى خصـومه ومنافسيه واحداً بعد آخر حتـى تم توحيد الإمبراطوريـة الرومانيـة مرة أخرى سنـة ٣٢٣ وعندئذ أخذ هذا الإمبراطور على عاتقه مهمة إتمام الإصلاحات التـى بـدأها دقلديانوس .

والوقع أن الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧) يتمتع بأهمية خاصة فى التاريخ نظراً للأعمال الهامة التى قام بها ، والتى كان لها أثر واضح فى تغيير وجه التاريخ ، وتحقيق الانتقال من العالم القديم إلى عالم العصور الوسطى ، ذلك أن هذا الإمبراطور قام بخطوتين على جانب جانب كبير من الأهمية ، الأولى : اعترافه رسمياً بالديانة المسيحية ، والثانية : نقله عاصمة الإمبراطورية من روما على ضفاف التيبر فى إيطاليا إلى روما جديد شيدها على ضفاف البسفور ، وسوف نرجئ الكلام عن الجانب الدينى من أعمال قسطنطين إلى الباب الآتى مكتفين فى هذا الباب بالإشارة إلى الركن الدنيوى من أعماله .

ومن الواضح أن قسطنطين أقتفى فى إصلاحاته الإدارية أثر السياسة التى وضع أساسها دقلديانوس ، فقام بإتمام الأعمال التى بدأها هذا الإمبراطور بشكل أبعد أثراً حتى أننا نجد من الصعب فى كثير من الأحيان الفصل بين أعمال هذين الإمبراطورين ، وهنا نلاحظ أن الإصلاحات الإدارية التى قام بها دقلديانوس وقسطنطين قامت على أساس الفصل بين السلطتين الحربية والمدنية وظهر هذا الفصل واضحاً فى حكم الولايات ، إذا أصبح حاكم الولاية مسئولاً عن شئونها الإدارية المدنية فحسب ، فى حين اختص القائد ***(Dux)*** بالإشراف على النواحى الحربية فى ولاية أو أكثر من ولايات الإمبراطورية ، على أن اهم تغيير أدخله قسطنطين كان تطبيق مبدأ الحكم الوراثى ، فأصحب المنصب الإمبراطورى وراثياً فى أسرته التى اعتمدت على تأييد الجيش من جهة وعلى الدعامة الدينية الجديدة من جهة أخرى ، أما من الناحية العسكرية فقد اتجهت تنظيمات قسطنطين نحو إنقاص عدد أفراد الفرق العسكرية ، كما استمر فى سياسة فتح الباب أمام الجرمان للانخراط فغى سلك الجيش الرومانى كجند نظاميين .

وعلى الرغم من أن قسطنطين كان مشرعاً نشيطاً إلا أن كفايتة الإدارية مازالت موضع شك ، ذلك أنه ضاعف من الضرائب والخدمات الجمركية ، وأنزل طبقة الصناع إلى مرتبة العبودية عندما جعل الحرف والأعمال وراثية حتى لا يفر

أصحابها من قسوة الضرائب ، هذا فى الوقت الذى شدد فى فرض العقوبات على جامعى الضرائب فى المدن إذا عجزوا عن استيفاء الضرائب التى قررتها الحكومة ، أما بخصوص المزارعين فقد وضع تشريعاً مشدداً يمنع أولئك الذين يغرقون فى الديون – نتيجة لكثرة الضرائب وارتفاع الأسعار – من ترك أراضيهم والانتقال إلى ولاية أخرى ، عسى أن تكون الأحوال الاقتصادية فيها أقل قسوة ، الأمر الذى عجل بالقضاء على طبقة المزارعين الأحرار وتحويل أبناء هذه الطبقة إلى أقنان مربوطين بالأرض .

على أنه ليس هناك من شك فى أن تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة للإمبراطورية الرومانية يدل على أن قسطنطين أوتى بصيرة سياسية حكيمة ، حقيقة أن الفضل فى فكرة نقل عاصمة الإمبراطورية إلى الرشق لا يرجع إلى قسطنطين بقدر ما يرجع إلى دقلديانوس الذى أقام فى مدينة نيقوميديا على الشاطئ الشرقى لبحر مرمرة واختصها برعاية وأنشأ فيها كثير من المبانى الجميلة الرائعة ، ولكن إصرار قسطنطين على نقل العاصمة رسمياً يدل علاى بعد نظره وعلى حقيقة تفهمه للأوضاع الجديدة التى أمست فيها الإمبراطورية الرومانية ، كما يدل على أنه امتلك من الشجاعة والعزيمة ما مكنه من تنفيذ رأيه .

ومهما تكن الأسباب التى دفعت الإمبراطور قسطنطين إلى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة ، وسواء كان الدافع الأساسى إليها هو أن الإمبراطور وجد أن سياسته الدينية واعترافه بالمسيحية لا يمكن أن تستقيم فى روما حصن الوثنية ودرعها الحامى ، ففكر فى نقل العاصمة إلى الشرق حيث يزداد عدد المسيحيين ، أو كان الدافع غير ذلك من الأسباب الحربية أو السياسية أو الشخصية ، فالمهم هو أن قسطنطين نفذ فكرته فعلاً سنة ٣٣٠م فشيد عاصمة جديدة محل بلدة بيزنطة القديمة على ضفاف البسفور وتمثل المنطقة التى أقيمت عليها هذه العاصمة شبه جزيرة إذا تحيط بها من الجنوب مياه بحر مرمرة

ومن جهة الشرق مياه مضيق البسفور ومن الشمال مياه القرن الذهبى الذى هيأ مرفأ طبيعياً عظيماً للمدينة الجديدة ، ومن الواضح أم موقع هذه المدينة على درجة كبيرة من القوة والمناعة لأنها تسيطر على المضايق التى تربط البحر الأسود بالبحر المتوسط من جهة ، كما أنه يصعب مهاجمتها والاستيلاء عليها من جهة أخرى ، هذا إلى أن القسطنطينية صارت مركزاً تجارياً ممتازاً إذ غدت ملتقى الطرق التجارية العظيمة التى تربط البحر الأسود ببحر إيجة ، وشمال أوروبا وغربها بآسيا ، ولم يدخر قسطنطين نفسه وسعاً فى أن يجعل هذه المدينة الجديدة التى سميت باسمه روما ثانية ، فأقام بها قصراً إمبراطورياً وسوقاً ومحاكم وداراً للسناتو وحمامات وملعباً عظيماً ، وسرعان ما أثبتت القسطنطينية أنها مصدر قوة وثروة لكل حكومة قامت بها منذ القرن الرابع حتى وقتنا الحالى .

والواقع أن أحداً لا يستطيع أن يقلل من خطورة هذه الخطوة التى اتخذها قسطنطين وأثرها فى التاريخ ، لأن قيام القسطنطينية فى القرن الرابع غير وجه التاريخ الأوروبى الألف سنة التالية ، فلولا قيامها وانتقال ثقل الإمبراطورية إلى الشرق لما استطاعت البابوية الوصول إلى ما وصلت إليه من مجد وعظمة فى العصور الوسطى ، ولحرق شرق أوروبا من تلك القلعة المنيعة التى صمدت فى وجه المسلمين ، وبالتالى حالت دون غزوهم شرق أوروبا فى وقت مبكر ، هذا بالإضافة إلى أن القسطنطينية صارت حصناً للحضارة اليونانية وللدراسات والآداب الهللينية ، ولولاها لأدت غزوات العناصر السلافية لشبه جزيرة البلقان فيما بعد إلى اقتلاع جذور هذه الحضارة مما يستتبع تغيير وجه التطور الحضارى لأوروبا . (١١)

الطوائف ذات الطقوس السرية :

شهدت القرون التى تلت عهد الإمبراطور أغسطس تغيراً بطيئاً ، لكنه كان جوهرياً بالنسبة للمواقف الدينية الرومانية ، فبعد تبجيل الآلهة التقليدية

المحليـــة والتـــى عبـــدتها الأســـر والعشـــائر وســـكان المـــدن ، عبد الرومان آلهة تسمو على الوجود المادى وفدت إليهم من الشرق الأوسط ، فآلهة روما القديمة ، وبالمثل آلهة جبل أولمبوس ***(Olympus)*** اليونانى قامت بحماية الرفاهية الاجتماعية والسياسية للجماعات ، فى حين أن الآلهة الجديدة كان اهتمامها قليلاً بتلك الأمور ، غير أنها قدمت بدلاً من ذلك كله أمل الفرد فى الصلاح والخلاص والحياة الأبدية ، وبتقدم العصر الإمبراطورى الرومانى تغير ولاء الشعب للدولة ببطء ، ولكن بطريقة يصعب تغييرها من عبادة جوبيتر ومينارفا إلى عبادة إيزيس ***(Isis)*** المصرى ، ومتراس ***(Mithras)*** الفارسى ، والأم الفرنجية العظيمة ***"The Phrygian Great Mother"*** ، وإله الشمس السورية ، والآلهة الأخرى الأجنبية التى قدمت العزاء والسعادة الأبدية لشعب لم ير أن العالم يكفيهم حتى عالم السلام الرومانى .

وهذه الزيادة السريعة والقوية لهذا المذهب الصوفى أو الباطنى كانت فى الواقع استمراراً وامتداداً لنزعة كانت بادية للعيان منذ أمد بعيد بين اليونانيين الهيليين ، ونفس القوى التى شجعت عدم ترسيخ العالم الهيلينى وعملت على طمسه كانت منهمكة فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية العالمية ، بالعمل على زيادة حكم الفرد تدريجياً بين الطبقات الفقيرة التى عانت من الحرمان وفقدان الأمل ، كما أن التحول من الإله المحلى إلى الإله المخلص ، ومن هذا العالم إلى العالم التالى أصبح يشكل تحولاً عميقاً فى الحالة النفسية التى أدت إلى التبرأ من الفلسفة الإنسانية التقليدية الإغريقية الرومانية ، وحيث أن سلام القرن الثانى الميلادى أفسح المجال للفوضى السياسية والاجتماعية التى حدثت فى القرن الثالث الميلادى ، لذلك فإن الآمال الكبرى للفلسفة الإنسانية حلم عالم يسوده الفكر الإنسانى ، وجمهورية مثالية ، وحياة الرفاهية ، كانت كلها تبدو كالأوهام القاسية عندما اكتسبت الحركة تجاه الديانات ذات الطقوس السرية قوة دفع هائلة .

الأفلاطونية المحدثة :

تـم القضـاء علـى الجماعـات الدينيـة الوثنيـة بفضـل الزيـادة السـريعة والقوية للإيمان بالغيب الذى صاحب الفوضى السياسية والاجتماعية فى القرن الثالث الميلادى ، وظهر الاتجاه نحو النظرة المتسامية بوضوح فى القرن الثالث الميلادى ، وبصفة خاصة فى الحركة القيادية الفلسفية للقرن الثالث ، وهى حركة الأفلاطونية المحدثة ، واستطاع أفلاطون وهو أحد المفكرين العباقرة وصاحب الذكاء الخارق أن يبسط هذه العقيدة وهى أن الله واحد أبدى ، لا تدركه الأبصار وليس كمثله شئ ، ولا نراه سوى عن طريق الرؤيا الناجمة عن التعمق الصوفى .

وعلم أفلاطون أن الله خالق كل شئ فكل الكائنات المادية والروحية من صنعه كما يحدث للموجات الصغيرة فى حوض به ماء ، وكان المذهب العقلى اليونانى شيئاً عديم الجدوى بالنسبة لهؤلاء الذين آمنوا مع أفلاطون أن الحقيقة الوحيدة الجديرة بالمعرفة تكمن خارج نطاق العقل البشرى .

وفى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة صار كل شئ أساسى فى الدين الوثنى منـدمجاً فـى تركيبـة الأفلاطونيـة المحدثـة الروحيـة ، إذ علـم دعـاة الأفلاطونية المحدثة بأن آلهة الفرق الدينية الوثنية كلهم رموز لله الواحد الذى ليس كمثله شئ ، ومن ثم فإن كل فرقة دينية وثنية حظيت بشرعية وجودها ، وأصبحت الوثنية تؤمن بإله واحد أكثر فأكثر فالإله زيوس والإله جوبيتر والإله متراس كانوا ببساطة مظاهر مختلفة لإله واحد متعال ، وفى هذا الجو بدأ الاختلاف بين الطوائف الدينية الوثنية التقليدية والديانات ذات الطقوس السرية يتضاءل تدريجياً ويحلول القرن الرابع حل الإيمان بالغيب محل الفكر العقلانى والفلسفة الإنسانية . بشكل كلى تقريباً ، وكذلك الإلهام المقدس والحنين إلى الحياة الأبدية ، صاحبت الفلسفة الأفلاطونية المحدثة والديانة الوافدة من الشرق الأوسط زيادة سريعة واضحة لعلم التنجيم والسحر والشعوذة والعادات الغامضة

الأخرى التى لم يكن لها وجود على الإطلاق فى المجتمع الرومانى بيد أنها كانت مسيطرة على الفكر الشعبى بشكل لم يحدث من قبل ، وفى مثل هذه البيئة غير الطبيعية حققت المسيحية انتصاراتها الأخيرة . (١٢)

الشئون الدينية والروحية :

فشلت الديانة الإمبراطورية منذ أمد طويل فى استقطاب أصحاب العقول المستنيرة وذوى الفكر من الرجال والنساء الذين لم يجدوا فى وثنية الرومان وعبادة الدولة الرسمية ، ما يشبع عقولهم ونفوسهم أو يشفى غلتهم ، والواقع أن ديانة الإمبراطورية كانت تهدف إلى عبادة الإمبراطور ذاته وأسرته وحكام الإمبراطورية من مات منهم ومن هو على قيد الحياة ، فضلاً عن الإيمان بما يعبده الإمبراطور من آلهة مثل إله الرومان مارس وثالوث الآلهة على الكابيتول جوبيتر *(Jupiter)* ويونو *(Juno)* و منيرفا *(Minerva)* ، إلا أن هذه الديانات أخذت تفقد جاذبيتها بمرور الوقت وأخذ الناس يجلون فى معابد العاصمة ومدنهم الإقليمية القوى الإلهية التى حفظت للإمبراطورية وجودها وكيانها ، وكلفت لها البقاء قوية مرهوبة .

ولعل قصور الديانة الرومانية عن وضع حلول مرضية لمشاكل الحياة الحاضرة والمستقبلة ، فضلاً عن عجزها عن إفادة الناس فى أوقات الشدة وعند نزول الملمات كان له ضلع فى انصراف الأفئدة عنها والشعور بالفراغ الكبير فى النواحى الدينية والروحية لاسيما بين أصحاب الفكر وذوى العقول المستنيرة الذين تحولوا إلى الفلسفة ينهلون من مذاهبها ويطفئون ظمأهم من تلك المذاهب والمدارس الفلسفية .

وهكذا غدا للفيلسوف فى القرن الثانى الميلادى منزلة سامية بين الناس باعتباره ناصحاً روحياً وشافياً للآلام النفسية ، وغدا يضطلع بقسط كبير من المهام التى قام بها فيما بعد رجال الدين المسيحى وآباء الكنيسة المسيحية ، وتمسكت الطبقات العليا المثقفة بالرواقية *(Stoicism)* بما تنطوى عليه من

أخلاق وإيمان بكل الآلهة ، كما اعتقدت فى وجود اتخاذ التصوف الأفلاطونى مكانة هامة وكذلك الأفلاطونية الحديثة والغنوصية .

وإلى جانب ذلك بقيت فى إيطاليا وبلاد اليونان بعض العقائد والآلهة المحلية التى يلتمس منها الخير والبركة والصحة والنماء والتى يستعان بها على قضاء الحاجات وزيادة الرخاء ، واكتمال السعادة ، بل لازالت بعض الآلهة اليونانية القديمة معروفة وتم بعث آلهة أخرى كانت قد خلدت للرقاد فترة طويلة ونسيها الناس واتجه سكان الولايات والأقاليم إلى بذل الولاء لآلهتهم المحلية فى غالة وتراقيا وإيلليريا وأفريقيا والأناضول وسوريا ومصر .

على أن الحقيقة الكبرى فى هذا المجال هو اتجاه العالم الرومانى باهتمام متزايد نحو عبادات الشرق الدافقة بالحيوية والتى تميزت بأنها توفر لكل شـــخص مهمـــا بلـــغ إدراكـــه وضـــعف مركـــزه نعمـــة التطهـــر مـــن الآثام والأمل فى حياة أبدية خالدة ، فمن مصر وردت عبادة غيزيس وسرابيس ، ومن سوريا وردت عبادة إله السماء وإله الشمس ، ومن فارس وردت عبادة ميتراس إله الشمس المحارب ومخلص الإنسان ، وساعد على انتشار هذه العبادات الشرقية فى العالم الرومانى ما حدث من انصراف الأباطرة عن مناهضتها أو الوقوف فى وجهها ، بل إن الإمبراطور ماركوس أوريليوس شيد معبداً للإله الفارسى ميتراس فوق تل الفاتيكان ، كما قرر الإمبراطور أوريليان جعل عبادة الشمس ديناً رسمياً للدولة ، لكن العبادات الشرقية لم تعد تحظى بكل الاهتمام بعد فترة لأنها لم تفد إلى العالم الرومانى كعقائد لها كتبها المقدسة أو أدبها المقدس بل بدت وكأنها أشكال عبادات طوعتها الحضارة الهللينية أو كيفت أهم ما فيها من أفكار ولهذا لم تعمر طويلاً ، وعرفت هذه العبادات – لاسيما ميتراس – شعوب البحر المتوسط على أنها عبادة واحدة لأقليات فارسية تعيش فيما وراء وطنها وليست كعبادة عالمية يرجى اعتناقها وانتشارها فيما وراء

وطنها وليست كعبادة عالمية يرجى اعتناقها وانتشارها ، وإذا كانت قد لقيت رواجاً بين الناس فإنه كان رواجاً وقتياً .

ويبدو أن الأباطرة الأوائل لم يحفلوا كثيراً بالديانة مادامت لا تتعارض مع مصالحهم أو تناهض سيادتهم ، ولهذا انتشرت العقائد الشرقية وسط العبادات الرومانية والمحلية فى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية مما أدى إلى محاولة التوفيق بينها جميعاً ، وإدماجها فى مذهب واحد الأمر الذى لاقى ترحيباً عند بعض الطبقات ، كذلك حرص الأباطرة على أن يكون الشعور الدينى للجيش انعكاساً للاتجاهات الدينية البارزة فى الإمبراطورية لاسيما العقائد الرسمية للدولة ، حتى يضمنوا ولاء الجند والفيالق العسكرية ، غير أنه بمرور الوقت بدأت تتسرب إلى الجيش معبودات جديدة وردت مع العساكر من البلاد التى قدموا منها لتسرى جنباً إلى جنب مع المعبودات المحلية ، ولقيت بعض الامعبودات الواردة رواجاً وترحيباً من الجنود لاسيما تلك التى تمثل آلهة النضال والغزو والنصر ، وازدهرت خلال القرن الثالث إبان فترة المحن والاضطراب ، وحظى الإله ميتراس الفارسى بمنزلة خاصة بين تلك المعبودات ، حيث جرى رسمه فى صورة الفارس المظفر الذى ينتصر على قوى الشر ويخضعها ، فضلاً عن عبادة إله الشمس وتقديسه ، ولعل ذلك يفسر قيام فريق من الأباطرة بالتقرب إلى هذين الإلهين فى محاولة لتوطيد العلاقة بين الجيش والعرش . (١٣)

ثالثاً : ظهور وانتشار المسيحية :

اليهـــود :

ظهرت الديانة المسيحية فى أفق الحياة الروحية بتعاليم أعطت الأمل والنور للمواطنين الرومان وسط ديارجير البؤس والشقاء التى غلفت حياتهم ، والحق أن ما تميزت به تلك الديانة من قوة الإيمان جعلها تتفوق على غيرها من

العبادات الشرقية الغامضة ، ذات الطقوس السرية فكما رأينا من قبل أن ديانة ميثراس حرمت على النساء دخول دائرتها ومزاولة طقوسها ، وقدست ديانتها كيبيلى وإيزيس النساء والأمومة على حساب الآخرين ، أما المسيحية فقد أتت من أجل جميع البشر ذكوراً وإناثاً ولا ريب أن قصة المسيح الرائعة وما لقيته من آلام وعذاب لا يمكن مقارنتها بما جاءت به المذاهب الفلسفية الإغريقية التى لم ترض أفكارها إلا صفوة المثقفين من الطبقة النبيلة الأرستقراطية ، فى الوقت الذى لم تشبع فيه رغبات العامة الروحية ، وأخيراً ينبغى ألا نغفل أن المسيحية التى أعلنت زيف كل الديانات الأخرى استطاعت أن تقاوم من منطلق هذا المبدأ عبادة الإمبراطور التى شجعها الأباطرة الرومان وساندوها بنفوذهم لتنفيذ أغراضهم السياسية ، على أن المسيحية إذا كان قد كتب لها النصر على بقية الأديان فإن ذلك كلفها الكثير إذ قدر لها بعد صراع مرير مع أعدائها – اليهودية والوثنية – أن تقضى حوالى ثلاثة قرون مليئة بالعذاب والآلام والتضحيات حتى استطاعت فى النهاية أن تفرد جناحيها على الإمبراطورية الرومانية .

واليهود الذين رفعوا راية العداء فى وجه المسيحية كانوا دون شعوب الإمبراطورية الرومانية هم الشعب الوحيد الذى ظل محتفظاً أشد الاحتفاظ بتقاليده وعقيدته الخاصة ، وبداية كانت السلطات الرومانية متسامحة مع اليهود ، آلت على نفسها حماية ديانتهم وأعطتها ضمانات – ترجع إلى أيام يوليوس قيصر – بموجبها زاولوا شعائرهم الدينية فى حرية وأمن كما أعطتهم الحق فى إتباع تقاليدهم الدينية ، إذا من المعروف أن اليهودى لا يعمل أيام السبت من كل أسبوع ، وحيث يتخذه يوم عبادة وراحة ، كما لا يمكن مقاضاته فى ذلك اليوم أيضاً ، وجرى إعفاؤه من الخدمة العسكرية ، وسمح لليهود بإصدار عملة نقدية خاصة بهم دون أن يطبع عليها صورة الإمبراطور ، ورغم كل تلك الإمتيازات التى منحتها روما لليهود إلا أنهم قابلوها بروح انفصالية وتكتل قومى

وتعصب دينى وانعزال عن المجتمع ، الأمر الذى بعث فى نفوس العناصر الأخرى الكراهية الشديدة لهم .

وقبل أن ينتهى القرن الأول الميلادى بلغ عدد اليهود فى العاصمة حوالى عشرين ألف ، كانوا يشتغلون بالصناعات اليدوية وبالتجارة فى الحوانيت وكان لهم عدد كبير من المعابد ، لكل واحد منها مدرسته وكتبه ، وعرف عنهم احتقارهم للديانات الوثنية وامتناعهم عن الذهاب إلى المسارج الرومانية أو مشاهدة الألعاب ، فضلاً عن فقرهم وما نتج من قذارة ولكن هذه الصفات لم تمنع الكثير من الرومان المثقفين من المناداة بإعجابهم بالديانة اليهودية التى كانت تدعو إلى وحدانية الله ، معارضة فى ذلك الديانة الوثنية وعبادة الإمبراطور ولذلك اتجه البعض منهم على الدخول فيها .

وقد بدأ الخلاف واضحاً بين اليهود والسلطات الرومانية عندما ارتقى كاليجولا عرش الإمبراطورية سنة ٣٧م ، فقد أمر جميع أتباع الديانات القائمة آنذاك أن يقدموا قرباناً له ، كما أمر رجاله فى أورشليم أن يضعوا تمثاله فى الهيكل ، ولكن اليهود أظهروا نفورهم الشديد من وضع تمثال منحوت لإمبراطور وثنى فى هيكلهم ، مما أدى إلى بروز مشكلة حلها كاليجولا بموته ، وفى عام ٧٠م ثار اليهود ضد السلطات الرومانية ثورة خطيرة فى جودايا ***(Judaea)*** ، ولكن القائد الرومانى تيتوس رد على تلك الثورة بالعنف فقتل معظم من كان فى أورشليم (القدس) من اليهود واستباح أموالهم ودمر هيكلهم ، حتى كاد تيتوس أن يقضى على كل أثر لهم ، ومن المؤكد أن الضربة التى أصابتهم كانت من القوة بحيث شتتت شملهم وشردتهم فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، ولكنها لم تمنعهم من إشعال نار الثورة مرة أخرى فى عامى ١١٥ – ١١٦م ، وقد واجه الإمبراطور هادريان (١١٧ – ١٣٨م) ثورة اليهود فى وحزم ، فقضى عليها ، ومنع اليهود من القيام بطقوسهم الدينية علناً ، وفرض عليهم ضريبة شخصية

جديدة ، وحرم عليهم أن يدخلوا بيت المقدس إلا فى يوم واحد محدد فى العام ليبكوا فيه أمام خرائب الهيكل .

وهكذا عانى اليهود من النفى والأهوال والتشريد ما عانوا ، وحرم عليهم دخول المدينة المقدسة وتلفتوا حولهم خائفين فاقدين الثقة فى روما ، يراودهم الأمل فى النجاة من العذاب الذى قاسوه على يد السلطات الرومانية ، وكان يبدو فى نظر العديد من اليهود أن حكم روما جزء من انتصار الشر القصير الأجل الذى سيقضى عليه غما بتدخل الله نفسه أو أن يرسل اله إلى الأرض مخلصاً أو مسيحاً ***(Messiah)*** ليخلصهم من براثين الطغاة ويرفع عنهم نير الذل والعذاب ، وتقول أسفار الرؤيا أن هذا المنقذ – أو المخلص – لن يطول غيابه ، وأنه حين ينتصر على الطغاة سيرتفع إلى الجنة كل العادلين والفقراء والمظلومين حتى من كان منهم فى جوف القبور ليتمتعوا فيها بالنعيم الأبدى ، ولكن أمل اليهود فى ظهور مسيح ينقذهم ويعيدهم إلى بيت المقدس سرعان ما تبخر عندما أتى المسيح بديانة ليست كالدين اليهودى مقصوراً على شعب بعينه ، ولكنها ديانة أضاءت حياة الناس جميعاً بما بعثت فيهم من أمل فى ملكوت الله المقبلة ، وفى السعادة الدائمة بعد الموت ووعدت أشد الناس ذنوباً بالعفو عن ذنوبهم ، وكانت المبادئ السامية التى أتى بها المسيح كفيلة بأن تجعل اليهود يقاومونها على اختلاف شيعهم وينظرون إلى رسالته بعين الحقد والكراهية وأخذوا ينالون من دعوته وأنصاره . (١٤)

ولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام أثناء عهد الإمبراطور أوغسطس (ت ١٤م) فى بيت لحم بفلسطين ، فى وقت أخذ العالم الرومانى يشعر بنوع من الفراغ أو الجدب الروحى ، فالرومان أنفسهم بدءوا ينظرون إلى عبادة الدولة الرسمية وتقديس الأباطرة على أنها أمور شكلية ، مما دفع المثقفين منهم بوجه خاص على الاستخفاف بالعقائد الدينية – وساء كانت يونانية أو رومانية – ومن ثم أخذ بعضهم يتجه نحو الآراء التى نادى بها

الرواقيون ، ولكن حتى هذه التعاليم الرواقية أخذت هى الأخرى تبدو تدريجياً أضعف من أن تشبع الحاجة الروحية للمثقفين نظراً لما امتازت به من تطرف فى الجمود والمنطق فضلاً عن بعدها عن الآفاق السماوية .

والوقع أن القرنين الثالث والرابع لم يشهدا انتصاراً سريعاً للمسيحية فحسب بل أيضاً لكثير من الديانات الأخرى الوثنية ذلك أن الديانة الرومانية لم يكن لها وقع عاطفى فى نفوس الناس الذين قاموا بتقديم القرابين للآلهة الوثنية لا لشئ سوى قضاء مصالحهم الدنيوية الخاصة ، أما الآلهة ذات الأصل الأجنبى التى وجدت فى روما أو غيرها من أنحاء الإمبراطورية – مثل غاليا وبريطانيا – فكانت هى الأخرى رموزاً شكلية لا تثير حماسة دينية فى نفوس المعاصرين ، وفى وسط هذا الفراغ الدينى الكبير لم يجد أهالى الإمبراطورية وسيلة مثل ديانة سبيل ***(Cybele)*** من آسيا الصغرى وديانة " متراس ***(Mithras)*** من فارس وديانة " إيزيس " من مصر ، وأخيراً المسيحية التى نبتت فى فلسطين .

ومن الواضح أنه لا يوجد محل للمقارنة بين المسيحية وغيرها من الديانات التى عرفها الشرق منذ أقدم العصور حتى ذلك الوقت ، لأن قصة المسيح وحياته فاقت فى سموها وروحانياتها بقية القصص الدينى المعاصر ، ويكفى أن تعاليمه مستمدة من كتاب مقدس يمكن أن يفهمه ويتأثر به الخاصة والعامة ، لا من فلسفة اليونان التى لا يمكن أن يتفهمها سوى فئة من خاصة المثقفين ، فإذا أضفنا إلى أن المسيحية جاءت ديناً سماوياً عاماً دون أن تختص بطائفة أو تميز فريقاً على آخر ، أدركنا سر انتشارها السريع وتفوقها فى النهاية على غيرها من العقائد الشرقية المعاصرة .

ولاشك فى أن معلوماتنا عن تاريخ الكنيسة فى عصرها الأول ، وكذلك عن انتشار المسيحية فى أركان الإمبراطورية الرومانية ضئيلة وغير كافية ، وإن

كان من الثابت أن الفضل الأول يرجع إلى القديس بولس فى تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ، ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط به من فلسفة المسيحية المتعلقة بالأخلاق والأخرويات كالموت والبعث والحساب والخلود فضلاً عن جهوده فى وضع دعائم الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، وهكذا أخذت المسيحية تنتشر انتشاراً حثيثاً بحيث لم يكد ينتهى القرن الأول إلا وكانت كل ولاية رومانية من الولايات المطلة على البحر المتوسط تضم بين جوانبها جالية مسيحية ، بل أن المسيحيين كانوا جالية ملحوظة فى روما نفسها منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ٦٤ مما عرضهم لنقمة الإمبراطور نيرون واضطهاده ، وهنا نشير إلى أنه ليس من الواقع فى شئ ما يظنه البعض من أن انتشار المسيحية فى أوائل عهدها اتخذ اتجاها أفقياً فحسب ، أعنى بين الطبقات الفقيرة والمعدمة فى المجتمع الرومانى دون غيرها من الطبقات ، إذا يثبت الواقع أن هذا الانتشار الأفقى صحبه انتشار آخر رأسى تصاعدى من الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا التى تمثل الجانب الأرستقراطى فى المجتمع الرومانى ، ويبدو هذا بوضوح فى كتابات الرومان المعاصرين فى قبرص وسالونيكا وبيثنيا وغيرها من الولايات الرومانية فضلاً عن رسائل القديس بولس ، حقيقة أن الغالبية العظمى ممن اعتنقوا المسيحية فى أوائل عهدها كانوا من الطبقة العاملة ، وأن الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى لم تُقبل على اعتناق المسيحية فى أعداد ضخمة إلا بعد أن تم الصلح بين الكنيسة والدولة بمقتضى مرسوم ميلان سنة ٣١٣ ، ولكن ليس معنى ذلك أن المسيحية عدمت أنصاراً لها بين أفراد الطبقتين الأرستقراطية خلال القرون الثلاثة الأولى عن عمرها .

وهنا نلاحظ أن ظروف الإمبراطورية الرومانية والأوضاع التى أحاطت بها كانت أكبر مساعد على سرعة انتشار المسيحية بين ربوعها فهذه الإمبراطورية امتازت بشبكة واسعة من الطرق الضخمة التى ربطت مدنها وأطرافها برباط وثيق ، فضلاً عن الأمن والسلام الذين سادا ربوعها ونشاط

التبادل التجارى بين مختلف أجزائها ، هذا كله عدا سيادة اللغة اللاتينية فى أجزاء الغربية من الإمبراطورية واللغة اليونانية فى أجزائها الشرقية ، مما جعل من اليسير انتقال الآراء والأفكار والمعتقدات فى سهولة بين مختلف إنحاء الإمبراطورية وبالتالى انتشار المسيحية ووصولها إلى أقصى أطراف البلاد فى سرعة فائقة .

على أن التعارض لم يلبث أن ظهر حاداً بين تعاليم المسيحية وعقائدها من جهة والنظم والقواعد التى قامت عليها الدولة الرومانية من جهة أخرى هذا إلى أن فكرة قيام منظمة دينية أو كنيسة منفصلة عن الدولة جاءت غريبة عن العقلية الرومانية والفكر الرومانى جميعاً .

وكان الوضع المعروف فى النظم الرومانية هو أن فئة واحدة من كبار الموظفين لها أ تمسك بزمام جميع الوظائف الكبرى فى الدولة من سياسة ومدنية وحربية ودينية ، مع ترك حرية العقيدة لكل مواطن رومانى طالما هو يعترف بآلهة الدولة الرسمية من جهة ، وطالما أن عقيدته لا تهدد سلام الإمبراطورية من جهة أخرى ، وكل ما هنالك هو أنه يجب على الرعايا – مع اختلاف عقائدهم – أن يعترفوا بعبادة الإمبراطور القائم ، وهو إجراء يشبه يمين الولاء للحاكم فى أيامنا ، ولم يعف من هذا التكليف الأخير داخل حدود الإمبراطورية الرومانية سوى اليهود فى حين لم يتمتع المسيحيون بهذا القدر من الحرية الدينية .

ومن الثابت أن المسيحية لم تكن الديانة الدخيلة الوحيدة التى كان على الحكومة الرومانية أن تحدد موقفها منها ، لذلك يبدو أن الأمر اختلط على الرومان فى أول الأمر فظنوا أن المسيحية ليست إلا فرقة من الديانة الموسوية اليهودية ، لاسيما أن المسيحيين رفضوا – مثل اليهود – تأليه الإمبراطور وعبادته ، ولكن لم يكد ينتهى القرن الأول حتى أتضح الأمر وظهرت الفوارق واضحة بين الديانتين لأن المسيحيين لم يؤمنوا بأية عقيدة أخرى وأخذوا

يجتمعون سراً لمباشرة طقوسهم الدينية كما رفضوا الخدمة فى الجيش الرومانى ، واتخذوا الأحد أول أيام الأسبوع ليكون ذا صفة دينية بدلاً من السبت عند اليهود وهكذا أخذت الحكومة الرومانية تغير نظرتها إلى المسيحيين وتعتبرهم فئة هدامة تهدد أوضاع الإمبراطورية وسلامتها ، والمعروف أن أية حكومة تعتبر الاجتماعات السرية الخاصة التى يعقدها فريق من رعاياها أمراً يخشى منه على كيانها ، لاسيما إذا كانت هذه الاجتماعات تضم الطبقات الفقيرة التى انتمى إليها معظم المسيحيين الأوائل ، وبعبارة أخرى فإن سبب حنق الحكومة الرومانية على المسيحية كان اجتماعيا لا دينيا ، لأن المسيحية بدت فى صورة ثورة اجتماعية خطيرة تنادى بمبادئ من شأنها تقويض الدعائم التى قام عليها المجتمع الرومانى ، وهنا نلاحظ أن نظرة الحكومات إلى الطوائف والجماعات الصغيرة تختلف عنها إلى الجماعات الكبيرة ، بمعنى أن نظرة الحكومة الرومانية إلى المجتمعات المسيحية الصغيرة فى أول الأمر كانت لا تعدو الاستخفاف بها والتهوين من أمرها ، بعكس ما أصبح الحال عندما ازداد انتشار المسيحية وكثر أتباعها وعندئذ تحولت نظرة الحكومة الرومانية إلى المسيحيين إلى نوع من الخوف والشك فى أمرهم .

وكان أن بدأت الحكومة الرومانية تعتبر اعتناق المسيحية جرما فى حق الدولة ، فمنعت اجتماعات المسيحيين وأخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم ، ولم يقم بهذه الموجه الاضطهادية ضد المسيحيين بعض الحكام المتعسفين المعروفين بجبروتهم مثل نيرون الذى قدم مسيحى روما طعمة للنار العظيمة التى أشعلها سنة ٦٤ فحسب ، بل شارك فيها أيضاً فئة من خيرة الأباطرة المصلحين المعروفين بحرصهم على تنفيذ القانون مثل تراجان وهارديان بيوس وماركوس وأورليوس . (١٥)

وقد عاشت القوتان – المجتمعات المسيحية والحكومة الرومانية – فى وئام فى أيام الإمبراطورية الأول ، ثم بدأ الصراع على عهد الإمبراطور نيرون (

٥٤ – ٦٨م) عنـدما اضـطهد العديـد مـن المسـيحيين فـى رومـا ، وهـو أول اضطهاد فى سلسلة الاضطهادات التى تميز بها تاريخ روما ، وإن كان لا يمكن إقامة الدليل على أنه كان عاماً ، وفى ذلك الاضطهاد الذى نال من المسيحيين فقد القديسان بطرس وبولس حياتهما فى عام واحد لعله عام ٦٤م ، وكانت التهمة الموجهة للمسيحيين أنهم كونوا تنظيماً غير شرعى يتعارض مع سياسة الدولة ، لابد من العمل على استئصاله والقضاء عليه ، لقد وقعت الواقعة بالمسيحيين وزلزلت الأرض تحت أقدامهم ، وتعرضوا لأقسى أنواع العذاب من ذلك أنهم كانوا يلطخون بالقار وتشعل النيران فى البعض منهم ويعدمون حرقاً بشدهم على خازوق ليكونوا بمثابة مشاعل فى الألعاب الليلية بالحدائق الإمبراطورية وسيرك الفاتيكان والبعض الآخر يلقى به إلى الوحوش الضارية فى مدرج أو ساحة الملاعب العامة ، وعلى عهد الإمبراطور دوميتان (٨١ – ٩٦م) وقع الأذى والاضطهاد بالمسيحيين مرة أخرى حتى بلغ الأمر أن وصف الكتاب المسيحيون ذلك الإمبراطور بأنه " ثانى الطغاة " ، ولدينا أقدم وثيقة تاريخية تناولت اضطهاد المسيحيين وتصور ما لاقوه من أجل العقيدة وهى خطاب كتبه بلينى الأصغر *(Pliny the Younger)* حاكم بيثينيا *(Bithynia)* فى آسيا الصغرى إلى تراجان (٩٨ – ١١٧م) جاء فيه أنه أطلق سراح كل الذين قدموا القرابين وأحرقوا البخور أمام تمثال الإمبراطور ، أما أولئك الذين رفضوا وأصروا على مسيحيتهم فقد نفذ فيهم حكم الإعدام .

ومما يثر الدهشة أن البعض من الوثنيين كانوا على استعداد للتستر على أصدقائهم المسيحيين وإخفاء حقيقة عقيدتهم عن أعين السلطات الرومانية ، كما أم حكام الولايات كانوا يحجمون – فى كثير من الأحيان – عن تطبيق العقوبات عليهم ، والجدير بالذكر أن حركة الاضطهاد لم تكن عامة أو واسعة النطاق فى الإمبراطور إلا عند حدوث كوارث طبيعية أو قلاقل وثورات شعبية ، أو إذا أراد حاكم ضعيف لا يتمتع بحب الجماهير أن يصرف الأذهان عنه ، وكما

يقول ترتوليان أجرأ المدافعين عن المسيحية آنذاك : " فإذا فاض نهر التيبر على الأسوار أو نقصت مياه نهر النيل فلم تبلغ الحقول ، أو أمسكت السماء عن المطر ، وإذا زلزلت الأرض ، أو حدثت مجاعة أو انتشر وباء تتعالى الصيحات على الفور هاتفة : " فليلق بالمسيحيين إلى السد " ، وفعلاً كانت تستجيب السلطات الرومانية للشعور العام الذى كان يلقى اللوم دوماً على المسيحيين ، وفى تلك الأثناء كان هناك من المسيحيين من تنقصهم الشجاعة على احتمال البلاء ولو أن الكثير منهم أعطوا المثال الرائع على التضحية واحتمال الشدائد ومن المستحيل قراءة قصص البطولة والاستشهاد دون أن تهتز المشاعر للبطولة الرائعة التى أبداها كل من الرجال والنساء خاصة عندما ندرك أن مضمون هذه القصص عبارة " أنا مسيحى " *(Christianus Sum)* أو " أنا مسيحية " *(Christiana Sum)* وكانت تلك العبارة تعرض قائلها لأبشع أنواع التعذيب والموت . (١٦)

قنسطنطيـــن :

غير أن شهرة قنسطنطين ومكانته البارزة بين زعماء التاريخ تستند إلى اعترافه رسمياً بالديانة المسيحية وجعلها إحدى الديانات المصرح باعتناقها في الإمبراطورية ، ونقله عاصمة الإمبراطورية من روما القديمة إلى مدينة بناها على شاطئ البسفور في الشرق سماها " القسطنطينية " ، ومن أجل ذلك اعتبره المؤرخون محقق الانتقال من العالم القديم إلى العصور الوسطى .

أما بالنسبة للحدث الأول ، فعلى الرغم من أن قنسطنطين تعلق بعبادة إله الشمس ، واعتبره الإله الذي يحمي الإمبراطورية ، ويرعاه ، إلا أن تجوله في أقاليم الإمبراطورية في الشرق ، في صدر حياته ، وزيارته لمصر والأقاليم الآسيوية بصحبة دقلديانوس قد أوقفه دون شك على أحوال المسيحيين ومدى انتشار عقيدتهم فى تلك الجهات ، فضلاً عن أن تعصب جاليريوس بصفة خاصة ضد المسيحيين واضطهاده لهم ، قد ترك فى نفس قنسطنطين أثراً حزيناً

، لاسيما وأن جاليريوس ما لبث أن نازع قنسطنطين السلطة وأظهر شعوراً غير ودى نحو قنسطنطين ، ولما توفى جاليريوس السلطة سنة ٣١١م أثر مرض طول ، واعتبر ذلك جزاءً له على موقفه من المسيحية ، اقتنع قنسطنطين بقوة إله المسيحيين على الأرض ، وبدأ يفكر جدياً فى تغيير سياسته تجاه أتباع تلك العقيدة الجديدة .

بدأ قنسطنطين سياسته الجديدة بأن حرم اضطهاد المسيحيين فى الشطر الغربى من الإمبراطورية فأعطى مسيحيى ذلك الجزء قدراً من الأمان ، وفى نفس الوقت ترك أمام نفسه فسحة من الوقت يقرر فيها الخطوة التالية ، إذا تأكد بصفة قاطعة من قدرة إله المسيحيين علة منحه النصر على أعدائه وخصمه ماكسنتيوس ، فقد تعلق قنسطنطين برؤيات اقتنع أنه بفضلها سوف ينتصر على خصمه فى ظل شعار المسيح وتحت لوائه ، وحين حملته انتصاراته إلى قلب الإمبراطورية وتغلب على خصمه ماكسنتيوس عند جسر مليفيان انتهز المسيحيون الفرصة لإعلان أن ذلك كان بفضل إلههم الذى سبق أن وعده بالنسر ، ولاشك أن هذه الأمور كان لها نصيب فى زلزلة بعض قواعد الوثنية فى نفس قنسطنطين وجعله أكثر تفهماً لقوة العقيدة الجديدة .

وإذ غدا الإمبراطور يعتقد فى إله المسيحيين فإنه كان يؤمن أيضاً بإله الشمس القهار لهذا حبا المسيحيين بكثير من التسامح فى الوقت الذى احتفظ فيه لنفسه بمنصب الكهان الأعظم *(Pontifex Maximus)* وهو المنصب الإمبراطورى فى الديانة الرومانية الوثنية ، كما أن العملة التى سكها حملت على وجه منها علامة الصليب وعلى الوجه الآخر شعار عبادة الشمس ، على أن قنسطنطين ما لبث أن أصدر أوامر صريحة إلى عامله وكبار بوقف اضطهاد المسيحيين ورفع الغبن عنهم ، وأرسل عامله بإفريقية يأمره بإعادة كل أملاك الكنيسة المسيحية التى جرى مصادرتها من قبل وإعفاء رجال الدين المسيحى من كافة أعباء السخرة ، على أن أهم

عمل قام به قنسطنطين فى ذلك هو إصداره مرسوم ميلان المصرح باعتناقها وممارسة شعائرها فى الإمبراطورية مثلها فى ذلك مثل الوثنية واليهودية ، وكفل هذا المرسوم للمسيحيين التمتع بكافة الحقوق التى يتمتع بها غيرهم من إتباع الديانات والشرائع الأخرى ، وفى تبرير هذا العمل جاء فى صلب مرسوم ميلان :

" لابد لنا أن نبذل للمسيحيين وسائر الناس جريتهم فى أن يتبع كل منهم ما شاء من الديانة .. إما ديانة المسيحيين ، وإما ما يختاره لنفسه من ديانة ، معتقداً أنها خير ما يلائمه حتى ينعم الله الأكبر علينا فى كل الأمور بفصله وعطفه .. وأننا منحنا أيضاً حرية دينية تامة مماثلة لغير المسيحيين إذ أن هذه المنحة بالغة الأهمية للسلام فى أيامنا ... "

وتضمن المرسوم أيضاً أوامر برد كل أماكن العبارة والكنائس للمسيحيين من التى سبق مصادرتها دون أن يدفع المسيحيون أثمناً لها أو يتحملون عنها أى أعباء ، على أن السنوات التالية شهدت إصدار عدة تشريعات كانت فى صالح المسيحيين دون شك ، فمنح الأساقفة سلطات قضائية استثنائية ، وجاز لهم النظر فيما يرف لهم من مظالم ، كما جاز للمواطنين أن يهبوا الأملاك للكنيسة ، كما أعفى المسيحيون من تقديم القرابين فى الاحتفالات والأعياد الوثنية وجرى الاعتراف بما كانت تقوم به الكنيسة من عتق الرقيق .

وقد راج حول مرسوم ميلان ، وما استتبعه من تشريعات أقوال كثيرة وقيل أن قنسطنطين كان مسيحياً صادق العقيدة ، وأن ما فعله من أجل المسيحية لا يصدر عن مسيحى راسخ الإيمان بينما قيل أيضاً أن المصالح السياسية هى التى أملت عليه اتخاذ هذه الخطوة ، وأن ما فعله لا يعدو أن يكون أسلوباً لتحقيق أهدافه السياسية وأنه لم يكن قط مسيحياً .

ومهما يكن من أمر فإن هدف قنسطنطين بميله نحو المسيحية ظل غير واضح الأسباب إلى نهاية حياته فلعله كان مسيحياً حقاً ولم يعلن عن عقيدته منذ البداية لظروف بلاده وعظم الأرستقراطية الوثنية فى الإدارة والجيش وقلة المسيحيين الذين لم يتجاوز عددهم حينئذ خمس سكان الإمبراطورية ، ولهذا قدم قنسطنطين ما قدمه من أجل المسيحية ، متظاهراً بأنه رائد التسامح الدينى فى عصر كان يطفح بالتعصب والاضطهاد والهمجية ، ولعله لم يكن مسيحياً أيضاً نظراً لاحتفاظه بلقب الكاهن الأعظم ، وسماحه للوثنيين بممارسة شعائرها جنباً إلى جنب مع المسيحية ، فضلاً عن أنه أتى من الأفعال فى حياته الشخصية ما يتنافى من كونه مسيحياً ، ومن ذلك قتله لزوجته وولده وعدم تعميده إلا وهو على فراش الموت .

وكيفما كان الأمر فإن قنسطنطين كان كريماً مع الوثنية وكريماً مع المسيحية أيضاً ، وربما اضطر لمسايرة الأمور واتخاذ ذلك الموقف المائع ، إذا تشـــير الـــدلائل إلـــى أن الـــوثنيين كـــانوا يمثلـــون غالبيـــة سكان الإمبراطورية ويمثلون الأرستقراطية الإدارية والعسكرية ، قد حملتهم ثقتهم فـــى كثـــرتهم العدديـــة ووزنهـــم فـــى الدولـــة علـــى إفســـاح مكان بين آلهتهم المتعددة ، لإله الأقلية المسيحية ، وهو أمر يمكن قبوله ما داموا يتجهون بولائهم لجوبتر وإله الشمس ومنيرفا ويونو وغيرهم من الآلهة الوثنيـــة ، ومـــن ثـــم لـــم تعـــد هنـــاك كراهيـــة شـــديدة لهـــذا الإلـــه الجديـــد ، ولـــم تعـــد ثمـــة هـــوة ســـحيقة تفصـــلهم عـــن الجانـــب الآخـــر لكـــن الكراهيـــة الحقيقـــة جـــاءت مـــن جهـــة المســـيحيين أنفســـهم الـــذين نظـــروا إلـــى تلـــك الآلهـــة الوثنيـــة نظـــرة الاســـتياء والازدراء والكراهيـــة ، ولـــم يعتبـــروا تلـــك الآلهـــة ســـوى شـــياطين ملؤهـــا الخبـــث والضـــر ، وأنهـــا آلهـــة كاذبـــة ، والـــولاء لهـــا يعـــد إثمـــاً عظيمـــاً ، ومعنـــى ذلـــك أن عقيـــدة الوثنيـــة اتســـعت لتشـــمل إلهـــاً جديـــداً ولكـــن أتبـــاع هـــذا الإلـــه

الجديـد هـم الـذين ضـاقت بهـم حظيـرة الإيمـان عـن اسـتيعاب الآلهـة الأخرى .

وفى ظل هذا الفهم يمكن تصور مشار قنسطنطين الذى حمله إفساح صدره واتساع تسامحه على إظهار الميل للدين الجديد بجانب ولائه لدينه القديم وشمول أشياع المسيحية بعطفه ورعايته ، مع التمسك بالواجهة الدينية القديمة ، وإذا أفنا إلى ذلك ما حدث من اقتناعه بضرورة إظهار الامتنان لإله المسيحيين الذى منحه النصر على أعدائه ورفعه مقاماً علياً فى الإمبراطورية ، جاز لنا فهم ميله الأكثر إلى أتباع هذه العقيدة ، وإن لم يمح ذلك ما عداه من عقائد فى نفسه أو يلفظ رواسب الدين القديم ، وشيئاً فشيئاً كانت المسيحية تتغلغل فى نفسه لتزعزع جذور الوثنية الكامنة ، فبعد مجمع نيقية المسكونى اختفى من العملة شعار عبادة إله الشمس وحل محله رسم للمسيح ، ولكن مع ذلك لم يتقرر هدم معابد الوثنية ، وإنما اكتفى بمنع إقامة الأصنام فيها ، وزاد الاهتمام بتشييد الكنائس فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، لاسيما فى أرض المسيحية الأولى وموطنها فى بيت لحم وجبل الزيتون حيث اكتشف الصليب الأعظم أو الصليب المقدس *(The Holy Cross)* فضلاً عن أنطاكية ونيقوميدا . (١٧)

صحوة الوثنية :

أما عن موقف الوثنية المتداعية فى تلك الحقبة فقد رأينا كيف ظل قسطنطين الأول حتى وفاته سنة ٣٣٧ يتخذ موقفاً وسطاً بين المسيحية بمذهبيها من جهة والوثنية من جهة أخرى ، ولكن حدث أن أبناء هذا الإمبراطور خالفوا أباهم واختاروا عدم الاستمرار فى مجاملة الوثنية وأهلها ، بل شنوا عليها موجة عنيفة من الاضطهاد ، فصادروا ما لمعابدها من أراض وممتلكات حتى إذا ما حلت سنة ٣٤٠ منع الأباطرة الثلاثة تقديم القرابين للآلهة الوثنية ، ثم أغلقت معابدها بعد ذلك بعدة سنوات .

على أن الوثنية لم تستسلم فى سهولة مطلقة إذ أبت ألا أن تصحو من جديـــد ، وذلـــك عنـــدما تـــولى حكـــم الإمبراطوريـــة جوليـــان المرتـــد (٣٦١ – ٣٦٣) الذى كان متمسكاً بأهداب الحضارة اليونانية الوثنية ، فتخلى عن المسيحية سراً قبل أن يتولى منصب الإمبراطورية ، ولم يكد يتولى هذا المنصب عقب وفاة الإمبراطور قسطنطيوس الثانى ٣٦١ ، حتى أعلن ارتداده عن المسيحية ، وأخذ يعمل على تخليص الوثنية من المحنة التى تعرضت لها نتيجة لطغيان المسيحية عليها ، ولذلك أمر بفتح معابد الوثنية التى أغلقت وفقاً لمرسوم قسطنطيوس ، ويبدو لنا من واقع الحقائق التاريخية أن الإمبراطور جوليان لم يكن متعصباً ضد المسيحية ، وإنما أراد فقط أن يرفع عن الوثنية وأهلها الحيف الذى أنزله بهم أنصار الديانة الجديدة ، أو بعبارة أخرى أراد جوليان أن يحقق نوعاً من المساواة والتوازن بين المسيحية والوثنية وفقاً للغرض الذى أملى إصدار مرسوم ميلان سنة ٣١٣ ، ويمكننا أن نحكم على جوليان حكماً أكثر عدالة واتزاناً إذا علمنا أنه امتدح بعض المبادئ الكريمة التى نادت بها المسيحية مثل الإحسان والرحمة والعطف على الفقراء والمرضى ، حتى أنه كتب إلى أحد الكهنة الوثنيين يخبره فى صراحة تامة بأن الوثنية تفتقر إلى مثل هذه الخلال الحميدة .

على أن هذا الشعور لم يمنع الإمبراطور جوليان من العمل على رفع شأن الوثنية حتى لا تبدو فى مستواها دون المسيحية ، فأعاد تنظيم رجال الدين الوثنيين وفق النظام المعمول به فى الكنيسة ، وعنى بالمعابد الوثنية وزينها حتى لا تبدو أقل جمالاً من الكنائس ، وفى الوقت نفسه منع جوليان رجال الكنيسة من السفر مجاناً على حساب الحكومة صحبة البريد الإمبراطورى ، كما أخذ يستبعد المسيحيين تدريجياً من وظائف الجيش والإدارة ليحيل الوثنيين محلهم .

ولكن يبدو أن هذه الصحوة التى مرت بها الوثنية على عهد الإمبراطور جوليان لم تكن إلا صحوة الموت ، إذ لم يلبث المسيحيون أن استردوا فى عهد جوفيان – الذى حكم مدة لا تتجاوز سبعة أشهر – مكانتها وامتيازاتهم التى حرمهم منها جوليان . (١٦)

آباء الكنيسة :

فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ، وفى الوقت الذى كانت فيه عملية التنصير بالدولة الرومانية تتزايد بدرجة كبيرة جداً ، ظهر القديس أمبروز *(Ambrose)* ، وجيروم *(Jerome)* ، وأوغسطين *(Augustine)* ، هؤلاء الرجال يمكن اعتبارهم بدون تحيز " علماء لاهوت الكنيسة اللاتينية " ، لأن كتاباتهم المتعددة المجالات ، والتى بلغت حد الوفرة سيطرت على الفكر فى العصور الوسطى . فكل من الثلاثة درس الفكر الثقافى للتراث اليونانى – الرومانى دراسة مستقلة ، وكل منهم كرس عمله وحياته لخدمة المسيحية ، وكل منهم كان ذات مرة رجل فكر ورجل أعمال .

كان أمبروز (حوالى ٣٤٠ – ٣٩٧م) أسقفاً لمدينة ميلان *(Milan)* العظيمة ، التى حلت محل روما كعاصمة للإمبراطورية الغربية فى أواخر القرن الرابع الميلادى ، وكان مشهوراً بفصاحيته وبراعته الإدارية ، وبقوته فى الدفاع عن المعتقد الثالوثى الأرثوذكسى ضد الأريوسية ، وبالمقدرة والبراعة التى تمكن بها من تطويع التراث الأدبى لكل من شيشرون *(Cicero)* وفيرجيل *(Virgil)* وفلسفة أفلاطون لأهدافه المسيحية ، وقبل كل شئ كان أمبروز أول رجل كنيسة فرض استقلال وتفوق الكنيسة على الدولة فى الشئون الدينية برغم معارضة إمبراطور مسيحى عظيم ، فعندما ذبح الإمبراطور المقتدر ثيودوسيوس الأول الثائرون من سكان مدينة سالونيكا *(Thessalaica)* بوحشية قام أمبروز بمنعه من دخول كنيسة ميلان إلى أن أعلن هذا الإمبراطور ندمه رسمياً وبشكل علنى ، وكان موقف أمبروز الجرئ واستسلام ثيودوسيوس المذل نكسة مذهلة

لمبدأ القصيرية البابوية وبمثابة مقدمة مثيرة لصراع طويل بين الكنيسة والدولة فى الغرب المسيحى .

وكان جيروم (حوالى ٣٤٠ – ٤٢٠م) عالماً مبدعاً ولا يعرف الكلل ومصلحاً محباً للبحث ، به مسحة من الحدة فى الشخصية ، إذا قال ذات مرة لأحد معارضيه " سيدى الفاضل ، إن لديك الرغبة فى الكذب ، بيد أنه ليس لديك المقدرة على الكذب " ، ولما كان من عادته التجول فى كل مكان عبر حدود الإمبراطورية فإنه شيد ديراً فى مدينة بيت لحم *(Bethelehem)* حيث جعل الرهبان التابعين له يقومون بنسخ المخطوطات ، وبذلك أوجد عادة حافظت على التراث اللاتينى فى العالم والمعرفة على امتداد العصور الوسطى ونقله للأدب الوثنى حماسه الدينى ، وحكى عن رؤيا فى منامه حيث طرده عيسى (عليه السلام) من الفردوس قائلاً له " إنك من أتباع شيشرون " ولست بمسيحى " ، بيد أنه عمل فى النهاية على التوفيق بين الثقافة الوثنية والإيمان المسيحى باستخدام الأولى لصالح الأخيرة ، وأعظم مآثره فى الفكر المسيحى كان فى ميدان الترجمة المتعلقة بالكتاب المقدس والتفسيرات التى قدمها – وقبل كل شئ ترجمته التذكارية المهمة والعالمية للكتاب المقدس من العبرية واليونانية إلى اللاتينية ، ولقد استخدم الرومان الكاثوليك ترجمة جيروم للكتاب المقدس منذ ذلك الحين ، وكانت هذه الترجمة هى الأساس لعدد لا حصر له من الترجمات إلى اللغات الحديثة (ويستخدم المتحدثون باللغة الإنجليزية ترجمة دويواى *(Douay)* التى نقلها عن ترجم جيروم) ، إن إنجاز جيروم كان إنجازاً مهماً للحضارة الغربية .

وكان أوغسطين (٣٥٤ – ٤٣٠م) أكثر علماء اللاهوت اللاتينى تبجرا فى المعرفة ، وهو الذى قضى الأربعين عاماً الأخيرة من حياته أسقفاً لمدينة هيبو *(Hippo)* فى شمال أفريقيا ، وعلى شاكلة جيروم كان أوغسطين قد توصل إلى الكثير كما فعل جيروم ، من أن المعرفة اليونانية الرومانية يمكن أن

يستفاد منها بالقدر المناسب لشرح الإيمان المسيحى على الرغم من أنه لا يصح دراستها من أجل المعرفة بها فحسب ، لقد كان أوغسطين أول من وضع الخطوط الأساسية لعلم اللاهوت فى العصور الوسطى ، وكذلك كان أكثر توفيقاً من معاصريه فى دمج التعاليم المسيحية بالفكر اليونانى وبصفة خاصة فلسفة أفلاطون وأتباع أفلاطون الجدد ***(Neo Platonists)*** ، ويقال أن أوغسطين قام بتعميد أفلاطون ، وكأحد المؤمنين يفكر أفلاطون ، أكد أوغسطين على أهمية المثل العليا على الأشياء المادية ، بيد أنه بدلاً من تحديد مكان هذه المثل العليا فى السماء فإنه جعلها فى القدرة الإلهية ، وأن الفكر البشرى لديه المقدرة على أن يكون متقبلاً لتأثر المثل العليا بفضل النعمة الإلهية " الإلهام الإلهى " فحسب . (١٩)

الأريوسية والآثناسيوسية :

شهدت كنيسة الإسكندرية خلافاً دار العلاقة بين الأب والابن خلافاً دار بين مذهبين هما مذهب أريوس ومذهب اثناسيوس .

أولاً : مذهب أريوس (الاريوسية) :

أريوس هو أحد قساوسة الإسكندرية وكان من اصل ليبي إذ ولد في ليبيا سنة ٢٥٦م وتعلم في إنطاكية على يد معلمه لوقيانوس ، ثم ام الإسكندرية حيث اخرط في سلك الكهنوت ، وكان واسع الإطلاع والعلم ، حتى قيل أنه لم يغادر من المعرفة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، كما كان واعظاً مؤثراً يجيد الإقناع والوعظ والإرشاد وكان عالماً زهداً متقشفاً ، ولذلك التف حوله عدد من المؤمنين ، لا سيما عذاري الإسكندرية اللواتي نذرن أنفسهن للعمل الصالح ، إلى جانب عدد من رجال الاكليروس الذين فضلوا الإصغاء إليه والعمل بنصائحه ، ويبدو أنه كان على جانب كبير من الطموح وقوة الشخصية وحدة العقل . ورسم أريوس في عام ٣١٠م شماساً على بطرس بطريرك الإسكندرية . ورقى عام ٣١٣م إلى مرتبة القسيس بعد وفاة بطرس بطريرك الإسكندرية .

ونظراً لتعلم أريوس في مدرسة أنطاكية ، فقد محافظاً على تعاليم هذه المدرسة وأخذ يطبقها ويمارسها في الإسكندرية ، وسرعان ما صاغ آراء مستقلة في العقيدة المسيحية تختلف عن العقائد السائدة . فاعتقد أريوس في المذهب القائل بأن المسيح ليس إلا مخلوقاً جاء من العدم ، وليس من نفس المادة الآلهية ، وأنه ليس من المعقول أن يكون المسيح الابن من نفس طبيعة الإله لأنه من صنعيته وبالتالي فهو أقل مرتبة منه . أي أن الابن لا يساوي الأب في الجوهر . وينكر أريوس بذلك لاهوت المسيح أي أنه ليس إلهاً حقاً ، وأنه كان يريد بتعاليمه وآرائه هذه أن يؤكد وحدانية الله .

على أن أفكار أريوس وآرائه هذه كانت تتعارض مع بعض العقائد السائدة التي كانت تؤكد ألوهية السيد المسيح وأنه (الكلمة) وأنه مظهر من مظاهر اللاهوت شأنه في ذلك شأن الأب والروح القدس ، ومن هنا حدث انقسام في كنيسة الإسكندرية ، فراح فريق يؤكد آراء أريوس وفريق آخر يعارضها وكان على اسكندر بطريرك الإسكندرية أن يتدخل لحسم الخلاف بين أتباع مذهب أريوس وخصومه ، وعقد بالفعل في عام ٣١٩ – ٣٢٠ م مجمعاً في الإسكندرية ، شهده قساوسة مصر وليبيا ، وكان برئاسة اسكندر ومستشاره اثناسيوس ، وناقش هذا المجمع آراء أريوس وفي النهاية أدان هذا المجمع أريوس ، وقرر حرمانه من الكنيسة بل وطرده من مصر ، كما قرر حرمان جميع القساوسة الذين أيدوا آراء أريوس وأفكاره .

وعلى الرغم من إدانة تعاليم أريوس إلا أن أفكاره لاقت رواجاً بين عدد ليس باليسير من رجال الدين في كنيسة الإسكندرية ، هذا بالإضافة إلى أن كثير من المثقفين قد اتخذوا جانب أريوس إيماناً منهم بأن عقيدته هي الحق ، بينما تعاطف معه فريق آخر وضع في اعتباره أن إتباع أريوس إلى نشر تعاليم الأريوسية خارج مصر ، أي في مدن الإمبراطورية الأخرى ، فأرسلوا مندوبين إلى تلك المدن ، وزودوهم بمكاتيب بمغزى وفحوى عقيدتهم . ونتيجة لذلك

انتشرت الأريوسية في فلسطين وليبيا وآسيا الصغرى انتشاراً واسعاً ، وبدأ بطريرك الإسكندرية يشعر بالقلق من انتشار تعاليم أريوس ، ولذلك راح يعمل بنشاط جم بين أساقفة الكنائس فى الولايات الشرقية ، وحثهم على مقاومة دعوة أريوس فى مناطقهم بكل ما أوتوا من قوة ، كذلك عقد مجمعاً آخر فى عام ٣٢١م فى مدينة الإسكندرية حضره أكثر من مائة أسقف وتقرر فى هذه المجمع لعن أريوس وأتباعه .

ولم ييأس أريوس ورحل من الإسكندرية واتجه نحو فلسطين ومنها إلى نيقوميديا حيث يوجد صديقه يوسيبيوس الذى كان يحتل مركزاً مرموقاً فى القصر الإمبراطورى يشكو إليه ما نزل به وبرفاقه من اضطهاد على بطريرك الإسكندرية ، ولذلك قرر يوسيبيوس عقد مجمع فى عام ٣٢٢م ضم اسقفة بيثينيا ، وقرر هذا المجمع اتخاذ جانب أريوس ودعا الأساقفة إلى نصرته وإلى أن يسعوا جاهدين لدى اسكندر لإعادة أريوس ثانية إلى الكنيسة ، على أن اسكندر عارض عودة أريوس إلى الكنيسة ، وأرسل إلى الأساقفة يوضح لهم نواحى الخطيئة فى عقيدته ، فعد الأريوسيون رفض اسكندر هذا إهانة بالغة لهم وازدادوا تمسكا بعقيدتهم وتأييداً لها ، وما لبث أريوس أن عاد إلى الإسكندرية ثانية ، فعم المدينة السخط والاضطراب ، وعقد أنصار الفريقين العديد من المجامع لإصلاح ذات البين ، على أن هذه المجامع أسفرت فى النهاية عن تعميق هوة الخلاف والنزاع بين الفريقين .

ورأى الإمبراطور قسطنطين أن يتدخل – وكان فى ذلك الوقت قد فرغ من مشاكله السياسية بالانتصار على آخر منافسيه وهو ليكينيوس ٣٢٤م – من أجل حل المشكلة الدينية التى تهدد وحدة الإمبراطورية ، فأرسل أولاً هوسيوس مستشاره فى الدين مبعوثاً إلى كل من اسكندر وأريوس فى الإسكندرية بعد أن قررا سويا الكتابة لكل من أريوس واسكندر وأن يذهب هوسيوس بنفسه إلى الإسكندرية للتحقيق من القضية المثالة وتوجيه النصح للفريقين ، وقد حمل

الإمبراطور هوسيوس رسالة إلى كل منهما تتضمن رغبة الإمبراطور وحرصه على إحلال السلام فى ربوع الإمبراطورية وأوضح فيها مدى ما شعر به من الأم وحزن لما حل بالكنيسة من انقسام ، وأن الواجب يقضى بتساهل الفريقين للوصل إلى حل مرض ، غير أن هوسيوس اخفق فى مساعيه وهو محاولة التوفيق بين اسكندر وأريوس إذ عقد فى الاسكندر مجمعاً فى عام ٣٢٤م قرر حرمان أريوس واتباعه وعاد هوسيوس إلى القسطنطينية بخفى حنين .

ثم رأى قسطنطين بعد ذلك ضرورة عقد مسكونى لوضع حد لهذه النزاعات ، ويذهل البعض إلى القول بان أنقرة حددت أولاً كمكان لعقد المجمع ، ولكنها ما لبثت أن عدلت إلى نيقية لأن مناخها الطف من أنقرة ، كما أنها أقرب إلى نيقوميديا مقر حكم الإمبراطور ، وكذلك حتى يتمكن أساقفة إيطاليا وباقى كنائس أوروبا من حضور هذا المجمع ، وبالفعل عقد هذا المجمع فى نيقية عام ٣٢٥م بناء على دعوة وجهها قسطنطين إلى مختلف كنائس الإمبراطورى فى محاولة جديدة وجريئة منه لحل الخلاف والشقاق الذى حدث فى الكنيسة ، ولحسم الأمر دفعه بهذا المجمع الذى يضم ذلك العدد من رجال الكنيسة فى الشرق والغرب ، وأراد قسطنطين من ناحية ثالثة أن يثبت أن سلطانه فوق الكنيسة وأن يظهر بمظهر الحريص على العقيدة وتخليصها من أية شائبة .

اختلف المؤرخون حول تقدير عدد الأساقفة الذين حضروا هذا المجمع ، بـ ٢٥٠ أسقفا فى حين قدره البعض الآخر بـ ٣٢٠ أسقفاً وفريق ثالث بـ ٣١٨ أسقفاً والإجماع على العدد الأخير ، وكان هؤلاء الأساقفة من سوريا وقيليقيا ، وبلاد العرب وفلسطين ومصر وطيبة وليبيا وميسوبوتميا (ما بين النهرين) وآسيا فريجيا وكبادوكيا ومقدونيا وأخايا أبيروس وتراقيا وأسبانيا ، كما حضره مندوبون من فارس وبونطس .

وافتتح المجمع جلساته يوم ٢٠ مايو بعد أن حضر جميع الأساقفة ووقع اختيار الأساقفة على هوسيوس أسقف قرطبة والأب الروحى للإمبراطور وأكبر الأساقفة سنا ليرأس هذا المجمع ، فجلس هوسيوس عن يمين الإمبراطور ورجاله الدولة الذين حضروا المجمع .

ودار النقاش فى هذا المجمع حول نقطتى الخلاف بين الفريقين أولهما : مساواة الابن بالأب فى الجوهر والأزلية ، وبينما رأى أتباع أريوس أن الابن غير مشابه فى الجوهر وليس مساوياً له فى الأزلية ، تمسك مناهضو الأريوسية بمساواة الأب بالأب فى الجوهر والأزلية معاً ، وثانيهما : القول بالخلق أو الولادة ، ولم يفرق أتباع أريوس بين كلمتى مولود أو مخلوق وهم يستخدمون اللفظين للتعبير عن معنى واحد ، أما مناهضو الريوسية فيرون استخدام كلمة مولود بدلاً من كلمة مخلوق لأن الأخير تنسحب على سائر الأشياء ، التى خلقت بالابن ولا يصح أن يكون الابن شبيهاً بها ، وعلى هذا فهو ليس بشئ مخلوق شأن ما خلقه بيده ، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق ، وفى هذا المجمع شرح اثناسيوس – الذى حضر المجمع برفقة اسكندر بطريرك الاسكندر – أمام الحاضرين معنى الإيمان ، وفند أراء أريوس فى براعة واقناع ، اندهش لهما الحاضرون حتى أنهم أخذوا بآرائه ، ومنذ ذلك الحين اكتسب الشاب اثاسيوس الذى كان فى التاسعة والعشرين من عمره شهرة عالمية ومكاناً علياً .

وبعد نقاش طويل قرر المجمع فى النهاية أن الابن مساو للأب فى الجوهر والأزلية ، وحرم كل من يقول بغير ذلك ، وقرر كذلك حرمان أريوس وأتباعه ومنعهم من دخول الإسكندرية ، وتمسك المجمع بأن المسيح مولود غير مخلوق قبل كل الدهور ، وهو إله حق من إله حق ، وبعد أن أقر المجمع هذه الصفة اقترح قسطنطين إضافة لفظة واحدة تصف العلاقة بين الأب والابن وهى أنهما من طبيعة واحدة .

بدأ الإمبراطور فى تنفيذ قرارات مجمع نيقية بالفعل فأمر بنفى أريوس وأتباعه خارج الإسكندرية ، كما أرسل إلى الأساقفة والأهالى فى كل مكان من الإمبراطورية ، يخبرهم بأن أريوس وأتباعه مبتدعون مضللون وأن عليهم لعنة الإمبراطور والأساقفة أجمعين ، وأن كتابات الأريوسيين ومقالات أريوس يجب أن تحرق ، وأن من يضبط وهو يخفى أى منها سوف يموت جزاء الخطيئة وظن الإمبراطور قسطنطين أنه نجح بذلك فى إعادة السلام إلى الكنيسة والإمبراطورية ولكن ما حدث هو العكس فقد ازداد السخط واستمر الخلاف والنزاع الدينى نحو نصف قرن .

وفى أبريل من عام ٣٢٨م مات اسكندر بطريريك الإسكندرية وتم انتخاب مستشاره اثاسيوس بطريركاً وخليفة له على بطريركية الإسكندرية. (٢٠)

ثانياً : مذهب اثناسيوس :

ولد اثناسيوس فى ٢٩٦م وينتمى إلى أسرة مسيحية وكان أبوه كاهناً لإحدى الكنائس ، وقضى اثناسيوس طفولته فى إحدى الكور المجاورة لاخميم (بانوبوليس) بصعيد مصر ، وكثيراً ما كان يتردد على أخميم مع رفاقه من الأطفال ، وقد تعلم فى صباه صنعة حسب تقليد أهل مصر وهى فن البناء ، ثم نزح فى صباه مع أسرته إلى ضواحى الإسكندرية ، وعكف اثناسيوس على تعلم اللغة اليونانية السائدة آنذاك ويبدو أنه درس هذه العلوم فى مدرسة الإسكندرية منارة اللاهوت والفلسفة فى ذلك الوقت ، وعندما بلغ الثالثة والعشرين من عمره ألف أول كتابين له وهما : الأول بعنوان " ضد الوثنيين " والثانى بعنوان " تجسيد الكلمة " ثم تعرف اثناسيوس على اسكندر بطريرك الإسكندرية ، ودخل فى خدمته كابن له وكسكرتير ، وكان اسكندر أستاذه ، راعيه فى آن واحد إذ تلقى منه الرعاية كاملة فكراً وحياة ، هذا فضلاً عن أن اثناسيوس مارس حياة النسك والرهبنة وكانت تربطه بالرهبان فى مصر علاقات مودة وصداقة وخاصة

القـديس انطـون ، وبعـد وفـاة اسـكندر سـنـة ٣٢٨م ارتقـى اثناسـيوس عـرش بطريركية الإسكندرية .

أمـا عـن مذهبـه فقـد كـان اثناسـوس يـؤمن بمـا جـاء فـى مجمـع نيقيـة ٣٢٥م مـن أن للمسيح طبيعيـة إلهيـة ، وأنـه مسـاوٍ لـلأب فـى الجـوهر والأزليـة ، وأن مولود وليس مخلوق ، وقد أخذت عقيدته هذه اسم الاثناسيوسية نسبة إلـى اسمه ، وكانـت هـذه العقيـدة تنـاقض آراء أريـوس لـذلك مـا أن اعتلـى اثناسـيوس عرش بطريركية الإسكندرية فى يونيـه ٣٢٨م حتـى اشتد فـى معاملـة الأريوسـيين وأنزل بهم ألوان الاضطهاد وطرد البقية الباقية منهم من كنائسهم .

وأحـس الإمبراطـور قسـطنطين أن مجمـع نيقيـة ٣٢٥م لـم يـنجح فـى القضاء على الأريوسية ، وأن الأريوسية لم تمت بنفى زعيمها وأن خطرها لازال باقياً ، ورأى ضرورة إيجـاد نـوع مـن التـوازن ، وهـذا ربمـا يتحقـق ب'ادة أريـوس إلى الكنيسة وأصدار العفو عنه ، فبدأ يكتب له يدعوه للعودة إلى حظيرة الإيمـان القويم ، وتحت ضغط وإلحاح الإمبراطور جاء أريوس إلى القسطنطينية فاستقبله الإمبراطـور وسـأله عمـا إذا كـان موافقـاً علـى قـانون الإيمـان النيقـى ، فأعطـاه أريـوس موافقتـه علـى أن صيغة الإيمـان التـى قدمها أريـوس كانـت فـى " جملتهـا مختصرة وماكرة " علـى حد تعبير أحد المؤرخين لأنها كانت خالية من عبارة " مـن نفـس الجـوهر " وعبـارة " مولـود غيـر مخلـوق " وهمـا العبارتـان اللتـان دار حولهما الجدل فى مجمع نيقية .

ورفـض اثناسـيوس بطريـرك الإسـكندرية الانصـياع لأوامـر الإمبراطـور بإعـادة أريـوس وأتباعـه إلـى الكنيسـة وإلـى وظـائفهم الدينيـة ، ممـا أغـار صـدر الإمبراطـور عليـه ، وممـا دفـع الأخيـر إلـى أن يكتـب رسـالة ويبعـث بهـا إلـى الإسكندرية وبطريركها أثناسيوس يهدده بالعزل والنفى إذا رفض الامتثال لأوامره فى قبـول أولئك الـذين يرغبـون فـى العـودة إلـى الكنيسـة مـن الأريوسـيين غيـر أن

أثناسيوس أَر على موقفه متحدياً رغبة الإمبراطور قسطنطين ، وكتب إليه فى محاولة لإثناعه بأنهم هراطقة ولا يمكن قبولهم فى الكنيسة الكاثوليكية .

انتهز الأريوسيون هذه الفرصة ووضعوا خطة لا يغار صدر قسطنطين على اثناسيوس ، تتمثل هذه الخطة فى إثارة غضب الإمبراطور على اثناسيوس بطريرك الإسكندرية ومحاولة إشاعة السخط والتذمر بين الأساقفة جميعاً على اثناسيوس .

ولما كان من العسير تنفيذ هذه الخطة عن طريق اتهام اثناسيوس بالهرطقة لذلك لجأ الأريوسيون إلى طريق آخر غير العقيدة ، وتمثل ذلك فى اتهامه بتهم أخرى من بينها : أنه فرض ضريبة على المصريين يؤدونها من الكتان لاستخدامه فى الرداء الكهنوتى ، وأنه تم جباية هذه الضريبة عنوة ، وعد الإمبراطور هذا الاتهام اعتداء على سلطانه وأرسل يستدعى اثناسيوس على الفـــــــور ليبـــــــرا نفســـــــه مـــــــن هـــــــذا الاتهام ، وانتهز الأريوسيون مجئ اثناسيوس إلى البلاط الإمبراطورى ، وأعدوا له اتهاماً جديداً يتعلق بحياة الإمبراطور نفسه ، إذ أذاعوا أن اثناسيوس يتآمر ضد الإمبراطور ، وأنه أرسل صندوقاً ملئ بالذهب إلى رئيس الحرس لتنفيذ مخططه ، لذلك سمح له بالعودة إلى الكنيسة معززاً مكرماً ، ومع ذلك فقد كان الإمبراطور يدرك تماماً أو وجود اثناسيوس بعدائه للفريق الأريوسى يعد مصدر خطر حقيقى ، وكان يدرك أيضاً أن الوقت لم يحن للتخلص منه .

وتابع الفريق الأريسى تنفيذ خطته ضد اثناسيوس بإثارة الأساقفة عليه ، وذلك بإظهاره فى صورة رجل الدين الذى لا يحترم زملاؤه ، ويحتقر ذوى المرتبة الثانية منهم ، وذلك بأن زينوا للإمبراطور بأن اثناسيوس يجب أن يبرئ ساحته أمام مجمع من الأساقفة يدعى لهذا الغرض ، وصادفت هذه الفكرة هوى فى نفس الإمبراطور إذ كان يظن فى ذلك قضاء تاماً على الاضطراب ، وعلى هـــــــذا الأســـــــاس دعـــــــا فـــــــى

عـــام ٣٣٣م الأســـاقفة للاجتمـــاع فـــى قيســـارية فـــى فلســـطين لفحـــص الاتهامات الموجهة ضد اثناسيوس ، وطلب من اثناسيوس حضور هذا الاجتماع .

ورفض اثناسيوس دعوة الإمبراطور لحضور مجمع قيسارية ويرفضه هذا أضاع من يده فرصة كسب الإمبراطور إلى صفه ثانية ، إذ جاء رفض اثناسيوس هذا تحدياً لسلطان الإمبراطور ، أما الأساقفة فأيقنوا أن اثناسيوس يسخر منهم ولا يعيرهم اهتماماً ، وبذلك أثار اثناسيوس كل من الإمبراطور والأساقفة فى آن واحد .

وعندئذ قرر الإمبراطور عقد مجمع للأساقفة فى صور ٣٣٥م ، وكتب إلى ثناسيوس يأمره بالذهاب إلى صور وامتثل اثناسيوس للأمر على مضض منه وكره ، إذ توعده الإمبراطور بأنه إذا لم يحضر طواعية فسوف يحضره للمجمع عنوة وكرهاً .

وعقد مجمع صور فى عام ٣٣٥م وحضره ستين أسقفاً ، وفيه وجهت العديد من الاتهامات إلى اثناسيوس من بينها أنه عزل أسقف بلوزيوم من منصبه ، وعين بدلاً منه شخصاً آخر ووضعه تحت حراسة عسكرية ، وراح يذيقه ألوان العذاب ، واتهم اثناسيوس أيضاً بتعطيل إبحار القمح المصرى الذى كان يرسل إلى القسطنطينية كل عام ، ثم تأييده لثورة قامت ضد الإمبراطور فى مصر قادها شخص يدعى فيلومينوس سنة ٣٣٥م هذا فضلاً عن أن اثناسيوس رفض الإنصياع لأوامر الإمبراطور بحضور مجمع قيسارية متحدياً ومستخفاً بالأساقفة ، كما أنه حضر مجمع صور وبصحته عدد كبير من الاتباع من أجل إثارة الشغب والفوضى والاضطراب فى المجمع .

ومع أن اثناسيوس استطاع أن ينفى عن نفسه كثيراً من هذه الاتهامات ، إلا أن مجمع صور قرر فى جلسته الختامية إدانة اثناسيوس وعزله ، بل وطلب نفسه من مصر ، وأن يذهب إلى بلاد غاليا أى إلى القسم الغربى من

الإمبراطورية ، على أن هذا المجمع لم يناقش المشكلة الأساسية وهى إعادة أريوس إلى الكنيسة .

وانتهز الإمبراطور فرصة عقد الأساقفة مجمع فى أورشليم عام ٣٣٥م ، وأرسل أريوس إلى هذا المجمع بعد أن أطلع على وثيقة إيمانه التى قدمها إليه ، وأنه مقتنع بما جاء فيها ، وطلب الإمبراطور من الأساقفة إعادة قبول أريوس فى الكنيسة ، وإعادته إلى الإسكندرية ، وكان أن أصدر المجمع قراره بقبول أريوس ورفاقه فى الكنيسة ، وإعادتهم ثانية إلى كنيسة الإسكندرية ، غير أن أتباع اثناسيوس بطريرك الإسكندرية رفضوا الامتثال لقرارات المجمع مما أدى إلى حدوث الاضطراب من جديد فى الإسكندرية .

وأرسل الإمبراطور يستدعى أريوس على الفور إلى القسطنطينية ، وما أن وصل أريوس إليها حتى دخل فى صراع مع بطريركها اسكندر ، الذى نمى إلى علمه أن الفريق الأريوسى يرغب فى أن يقوم بطريك القسطنطينية بقبول أريوس فى الكنيسة ، حتى يكون نموذجاً تحتذيه بقية كنائس الإمبراطور ، وترتب على ذلك أن عمت الفوضى مدينة القسطنطينية التى انقسمت إلى فريقين أحدهما يتمسك بقانون الإيمان النيقى ، والآخر يناضل من أجل أريوس ، وأدرك الإمبراطور خطورة هذا الموقف ، فدعا كل من أريوس واسكندر ، وطلب من الأول أن يعترف بقرارات مجمع نيقية ٣٢٥م ، وأن يقسم على صحة إيمانه ففعل أريوس ، وقبل الإمبراطور صيغة إيمانه وطلب الإمبراطور من اسكندر بطريرك القسطنطينية أن يقبله فى الكنيسة ولم يكن اسكندر يرغب فى ذلك إلا أن أحرج من الإمبراطور ، وتعقدت المشكلة ولكن حلها القدر بوفاة أريوس فى نفس اليوم الذى حدد ليتم فيه قبول اسكندر لأريوس فى الكنيسة ولكن ما هو السر وراء تحول تأييد الإمبراطور من أثناسيوس لأريوس ؟

أدان قسطنطين أراء أريوس فى البداية ، وأيد مجمع نيقية ، وذلك رغبة فى كسب ود الغرب وتأييده لأنه كان لازال يقيم فى الغرب ، وكانت روما بإيطاليا

هى عاصمة الإمبراطورية حتى ذلك الحين ، ومن المعروف أن مذهب أريوس لم يكن سائداً فى الغرب ، فإذا أيد الإمبراطور قسطنطين مذهب أريوس فى مجمع نيقية ، كان هذا يعنى أن السخط سوف يعم معظم أنحاء الغرب الأوروبى ، ولذلك فضل قسطنطين إدانة مذهب أريوس ، ونفيه بدلاً من معارضة أهالى الغرب .

وعندما تغير الوضع فى الإمبراطورية الرومانية وتم نقل عاصمتها من روما إلى القسطنطينية على شواطئ البوسفور كان هذا يعنى أن الإمبراطور أصبح فى حاجة إلى تأييد الشرق ، ولذلك كان من الضرورى أن يسعى قسطنطين لإرضاء القسم الشرقى من الإمبراطورية وذلك بالعفو عن أريوس وإعادته إلى الكنيسة هو وأتباعه ، وبذلك يتضح الدافع وراء تحول قسطنطين من تأييد اثناسيوس إلى تأييد أريوس .

على أية حال إذا كانت الأحوال قد هدأت فى مدينة الإسكندرية بعد مجمع صور وأورشليم عام ٣٣٥م ، كذلك فى القسطنطينية بوفاة أريوس فى العام التالى ٣٣٦م ، إلا أن هذه الأحوال ما لبثت أن اضطربت بعد وفاة الإمبراطور قسطنطين ٣٣٧م ، واستمر النزاع فى الإسكندرية بين أتباع مذهب أريوس وأتباع مذهب اثناسيوس لمدة طويلة ، واستمرت حتى وفاة اثناسيوس فى عام ٣٧٣ . [٢١]

ظهور البابوية :

واستطاع رجال الدين فى روما الوصول بكنيستهم إلى مركز الصدارة فى العالم المسيحى الأوروبى ، بفضل النظم التى وضعوها لتحديد العلاقة بين الكنيسة من جهة ، وبين الدولة والمجتمع من جهة أخرى ، ونال أسقف روما لقب بابا ***(Pope)*** ، وهو لفظ محرف عن الكلمة اللاتينية ***(Papa)*** بمعنى " أب

" ، ولو أن هذا اللقب يصح إطلاقاً على أى فرد من رجال الأسقفيات الكبار فى العالم المسيحى ، إلا أن استعمال اقتصر على أسقف روما تشريفاً وتكريماً له ، بسبب ما ناله تدريجياً من هيبة وسلطان فى غرب أوروبا ، فمنذ انعقاد المجامع الدينية صار للبابا فى روما مكانة مرموقة دون غيره من أقرانه ، أساقفة المدينة المسيحية الكبرى فى شرق الإمبراطورية ، فبينما دأب رجال الدين فى الشرق على الالتجاء إلى السلطات الحاكمة فى القسطنطينية لم يجد البابوات فى روما قوة حاكمة عليا إلى جوارهم تقلل من شأنهم أو تظغى على هيبتهم .

وفى نفس الوقت لم تظهر قوة مدينة أخرى فى غرب أوروبا تنافس أسقف روما فى زعامته للمسيحيين ، إذ تمسك البابوات دون منازع بأنهم خلفاء القديس بطرس الذى أعطاه المسيح مفاتيح ملكوت السماوات ، وأنه مؤسس كنيستهم فى روما نفسها ، وإلى جانب ذلك كان لروما هيبة فى نفوس أهل غرب أوروبا ، على الرغم من انتقال مركز الأباطرة منها ، إذ نظر الناس إلى رجال الدين فيها باعتبارهم ممثلين للسلطات الحاكمة ، وملجأهم فى الحصول على الهدايا والإرشاد ، فدأبت المجامع المحلية على استئناف قضاياها لدى رجال الدين فى روما ، حتى صار أسقف هذه المدينة السيد الأعلى على جميع أساقفة الغرب ، ثم أنه تولى هذا المنصب الأعلى عدة شخصيات قوية امتازت بحسن توجيهها لسياسة الكنيسة الغربية وتدعيم حقوقها مثل البابا " داماس الأول (٣٦٦ –٣٨٤) الذى وضع مؤلفاً أشاد فيه ببسالة الجالسين على كرسى البابوية فى روما وخليفته البابا سبركيوس (٣٨٤ – ٣٩٩) الذى اشتهر بالمراسيم البابوية الأولى ، وقدرته على الفصل فى المسائل التى عرضت عليه ، ثم البابا ليو الأول (٤٤٠ – ٤٦١) الذى تأكدت فى عهد سيادة البابوية تخضع لنظام دقيق وإشراف سليم ، وضعه البابوات الجالسين على كرسى القديس بطرس لا رجال الدولة الحاكمين فى الغرب .

وبذلك ظهر نتيجة علو شأن البابوية كهنوتى أشبه بسلم الوظائف الإدارية فى الإمبراطورية الرومانية ، فكان يتبع البابا مجموعة من الأساقفة الكبار ، ويمتد نفوذ الواحد منهم على عدة أسقفيات محلية ، وكلما ضعف

سلطان الإمبراطورية فى غرب أوروبا نتيجة انصراف الأباطرة إلى شئون الدفاع عن ممتلكاتهم فى الرشق ، كما ازداد شأن الكنيسة فى الغرب ، وأخذ سلطانها يحل تدريجياً محل الإدارة الرومانية هناك ، ثم تدعم مركز الكنيسة كذلك بفضل الامتيازات العديدة التى حصلت عليها من الدولة مثل الإعفاء من الضرائب وما نالته من حق جميع التبرعات وأخذ الهبات التى تدفقت عليها من كل مكان ، فصارت الكنيسة تمتلك الأراضى على تصريف شئون الناس وتوجيه اقتصادياتهم ، ثم اتسع نفوذ الأساقفة نتيجة حصولهم على حق الفصل فى المنازعات التى تنشأ بين المسيحيين وصارت مقاليد الأمور الإدارية الفعلية فى أيديهم ، وأخذ قصر الحاكم الرومانى يتراجع أمام مقر الأسقف الذى امتلأ بالمساعدين والمواطنين وما أرتبط بهم من مظاهر الأبهة والسلطان . (٢٢)

ثم بدأت حركة جديدة بين صفوف رجال الدين لتوجيه المجتمع ، وتأكيد سلطانهم عليه ، إذ قامت مجموعة من كبار مفكرى المسيحية المعروفين باسم " آباء الكنيسة " بالتوفيق بين تعاليم المسيحية وبين مطالب الدولة والناس ، وخلق انسجام يتلائم مع العصر الجديد الذى خلف العصور القديمة بأباطرتها المستبدين ، ومن أمثلة تلك المجهودات تكليف البابا داماس لأحد آباء الكنيسة وهو جيروم بترجمة الإنجيل إلى اللاتينية حتى يتيسر لأهل الغرب اللاتينى معرفة كتابهم المقدس ، وكان للحرية الدينية التى تمتع بها رجال الدين فى الغرب أثر كبير فى تغلغلهم المتصل بين سائر طبقات المجتمع ، وبسط هيبتهم على نفوس تابعيهم ، حتى صار بيدهم السلطان الفعلى على كافة أنحاء البلاد ، فلم يتعرض هذا السلطان كما حدث فى شرق الإمبراطورية إلى جدل خطير يهدد من مجده وجلاله ، وإنما علا شأن رجال الكنيسة الغربية دون أن يصدموا بعقبات سياسية وصاروا يمثلون قوة جديدة فى المجتمع الأوروبى الوسيط ، ولها وزنها وأهميتها الجليلة .

وبذلك اجتمع بيد البابوات الجالسين فى روما سلطتان روحية وزمنية ، مما أذن بانتهاء العصور القديمة فعلاً وقيام العصور الوسطى ، فلم يكن لرجال الدين فى ظل الديانة الوثنية أى قدرة تمكنهم من التدخل فى شئون الإدارة ، أو

فرض أى آراء أو توجيه على رجال تلك الإدارة ، وظلوا على الرغم من عطف الدولة عليهم بعيدين عن تيار الحكم والسياسة ، ولكن التنظيم الكنسى الجديد جعل من رجال الدين قوة تعلو فوق سلطان الحكام ، ولها الحق فى الإشراف التام على سائر أعمال الناس دينية كانت أم سياسية أو اجتماعية ، وغدا لرأس تلك الكنيسة وهو البابا الهيمنة الكبرى على كافة طبقات المجتمع الأوروبى الوسيط ، وصار المحور الذى دارت عليه أحداث جسام ملأت صفحات العصور الوسطى ، وتأكدت زعامة هذه القوة الجديدة منذ سنة ٤٥٥ م حين أصدر الإمبراطور فالنشايان الثالث المقيم فى الغرب مرسوماً يقضى بخضوع كافة أساقفة غرب أوروبا للبابا فى روما إذ دخلت البابوية رسمياً منذ ذلك التاريخ أعتاب السيادة على المجتمع الأوروبى الوسيط . (٢٣)

هوامش الباب الثانى
ظهور وانتشار المسيحية

(١) هلستر (س. ورن) : أوروبا فى العصور الوسطى ، (القاهرة – ١٩٨٨) ، ص ١٣ – ١٦ .

كرستوفر دوش : تكوين أوروبا ، ترجمة ومراجعة : د. محمد مصطفى زيادة ، د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، (القاهرة – ١٩٦٧) ، ص ١ – ٢٧ .

جيبون (إدوارد) : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، جـ١ ، ص ٤٨ – ٥٥ .

(٢) محمود محمد الحويرى : رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، (القاهرة – ١٩٨١) ، ص ١١ – ١٣ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ١١ – ١٢

(٣) ليلى عبد الجواد إسماعيل : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، (القاهرة – ٢٠٠٢) ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٤) موسى (هـ. سانت) : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة : السيد الباز العرينى ، (القاهرة – ١٩٩٨) ، ص ٢٠ – ٢٣ .

(٥) إبراهيم أحمد العدوى : المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى ، القاهرة – ١٩٨٤) ص ١٣ – ١٧ .

روستوفتزف (أ) : تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، ترجمة ومراجعة : زكى على ، محمد سليم سالم ، (القاهرة : ١٩٥٧) ، جـ ١ ، ص ٥٦٠ – ٥٦٣ .

على الغمراوى : دراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، (القاهرة – ١٩٧٥) ، جـ ١ ، ص ٨٠ – ٨١ .

(٦) محمود محمد الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٨ – ٢١ .

ول ريورانت : قصة الحضارة ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

إبراهيم طرخان : نهاية الإمبراطورية الرومانية فى الغرب (٤٧٦م) ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٧) إبراهيم العدوى : المرجع السابق ، ص ٢٥ – ٢٩ .

روستوفتزف (أ) : المرجع السابق ، ص ١٨٨ – ١٩٠ ، ٥٠٠

فشر (هـ. أ . ب) : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ١ ، ص ١٣٢ – ١٣٣ .

(٨) محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، (الإسكندرية – ١٩٩٩) ، ص ٣٦ – ٣٨ .

جيبون (إدوارد) : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، جـ ١ ، ص ٢٨٧

فشر : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص

(٩) السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، (بيروت – ١٩٦٧) ، ص ٣٥ – ٤٠ .

جيبون (إدوارد) : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ – ٢٠٩

(١٠) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ٣٧ – ٣٨ .

رنسيمان (ستيفن) : الحضارة البيزنطية ، ص ١٦ .

بينز ، نورمان : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٧١ – ١٧٢ .

(١١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ١ ، ص ٤٢ – ٤٦ .

جيبون (إدوارد) : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ – ٢٢٦

(١٢) هلستر (س. ورن) : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص٢٢ – ٢٤

ديورانت (ول) : قصة الحضارة ، مجـ٣ ، ص١٤٧.

رنسيمان (ستيفن) : المرجع السابق ، ص ١٩ – ٢٤ .

جيبون (إدوارد) : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٨٨ .

(١٣) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ٥٥ – ٥٨ .

ديورانت (ول) : قصة الحضارة ، مجـ٢ ، ص ٣٠٦ –٣٠٧

كرستوفر دوش : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(١٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٩ – ٥٤ .

رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، جـ١ .

(١٦) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ٦٠ – ٦١ .

بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ١٢٨ – ١٣٠ .

(١٧) محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٥٢ – ٥٨ .

فشر (هـ . أ . ل) : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٧٠٤ .

جيدون (إدوارد) : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٦٢ – ٤٦٣

(١٨) ســـعيد عبـــد الفتـــاح عاشـــور : المرجـــع الســـابق ، جـــ١ ، ص ٦٢ – ٦٤ .

اسحق عبيد : العصور الوسطى الأوروبية ، (بدون تاريخ) ، ص ٣٣ – ٥١ .

معظم الكتب الخاصة بالإمبراطورية البيزنطية تتحدث عن الإمبراطور جولين المرتد

(١٩) هلستر (س. ورن) : المرجع السابق ، ص ٤٥ – ٤٩ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ١ ، ص

محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ٧١ – ٧٨ .

يوسف كرم : تاريخ السفليفة اليونانية ، ص ٢٧٤ – ٢٨٤ .

دورايت (ول) : المرجع السابق ، ص ٣٠٩ – ٣١٣ .

كرستوفر دوش : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢٠) ليلى عبد الجواد إسماعيل : تاريخ أوروبا فى العصور الوسيطى ، ص ٤١ – ٤٦ .

محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٥٥ .

(٢١) ليلى عبد الجواد إسماعيل : المرجع السابق ، ٤٦ – ٤٩ .

محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ٧٩ – ٨٢ .

رافت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، جـ ، ص .

(٢٢) إبراهيم أحمد العدوى : المرجع السابق ، ص ٤٦ – ٤٨ .

(٢٣) إبراهيم أحمد العدوى : المرجع السابق ، ص ٤٨ – ٤٩ .

الباب الثالث
عالم الجرمان وغزواتهم
وتأسيس ممالكهم فى أوروبا

أهداف الباب الثالث

يهدف هذا الباب إلى:

١- التعرف علي الجرمان وأصولهم وحياتهم

٢- التعرف على غزوات الجرمان إلى أوروبا وتأسيس ممالك لهم

٣- التعرف علي العناصر الجرمانية مثل (الهون والوندال والقوط والفرنجة....

أولاً : المجتمع الجرمانى :

يغطى التقسيم الكبير الثانى لتاريخ العصور الوسطى الفترة ما بين القرن الخامس حتى أوائل القرن الثامن ، وهى فترة تتميز بالغزو الذى تعرضت لـه أوروبا الغربية ، وعالم البحر المتوسط ، من قبل مختلف الأقوام الراحل والشعوب البدائية : وهى شعوب المغول ، والجرمان ، وتمثل تأثير ذلك فى قرون ثلاثة ترددت فيها الأوضاع ، وسادت الفوضى الشاملة وهو ما ظهرت نتيجته فى تحول الحكومة الأوروبية والمجتمع الأوروبى ، وكانت أخطر الغزوات هى غزوات الشعوب الجرمانية وتوغلها فى داخل العالم الرومانى – فيما عرف باسم الغزوات البربرية – ذلك أن الجرمان قد استقروا فى أوروبا الغربية وحددوا مصيرها ، وهو ما لم يفعله الغزاة المغول والعرب فى معظم الأحيان .

أخذ الرومان كلمة " بربرى " *(Barbarian)* عن اليونانيين الذين استخدموها للدلالة على الأجنبى ، أى بالتحديد للدلالة على من هو أدنى فى مستواه الحضارى من الرجل اليونانى ، أما الرومان فقد استخدموا كلمة " بربرى " بمدلول الازدراء والتحقير للدلالة على الشعوب التى وفدت لتعيش على حدود الراين والدانوب ، كما أطلق الرومان على هذه الشعوب هذه جميعاً اسم " الجرمان " *(Germani)* وهو الاسم الذى كانت تعرف به فى الواقع قبيلة واحدة فقط من القبائل القاطنة فيما وراء الحدود الرومانية ، إذ كانت تعرف به فى الواقع قبيلة أخرى تسمى " الألمانى " *(Allemani)* ، وهى الكلمة التى صارت فيما بعد أساساً للمصطلحات الفرنسية والأسبانية الدالة على الألمان ، أما الجرمان فكانوا يطلقون على أنفسهم الكلمة التى صارت أساساً لكلمتى " دويتش " *(Seutsch)* و " تيوتون " *(Teuton)* الحديثتين ، وهى كلمة *(Theut)* (تيوث ومعناها " الشعب ") .

فمن هم الجرمان ؟ من أين وفدوا ولماذا ؟ وما هى نظمهم الاجتماعية والسياسية ؟ هذه الأسئلة شغلت عقول الكثيرين من المؤرخين ، كما كانت مراحاً لنشاطهم وخيالهم ، لاسيما فى ألمانيا حيث كانت من الطبيعى أن يشجعهم الشعور القومى على دراسة هجرات الشعوب *(Voelkerwanderungen)* وأياً كان الأمر فإن المصادر الأدبية ضئيلة القيمة إلى حد بعيد ، وكل معلوماتنا عن الجرمان قبل القرن الأول قبل ميلاد المسيح مستمدة من البحوث الأثرية ، فقد كشفت هذه الدراسات الأثرية من أن الغزاة الجرمان الذين اقتحموا الإمبراطورية الرومانية قد وفدوا فى الأصل من سكندیناوة ، ومن ثم فإن الفايكنج *(Vikings)* الذى ظهروا فى فترة لاحقة ، وهاجروا من مواطنهم فى القرن التاسع إلى أوروبا وغزوها كانوا من الشعوب نفسها التى عرفها الرومان باسم الجرمان من حيث أصلهم العرقى ، وحوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد بدأ الجرمان يتحركون من مواطنهم الأصلية فى الدنمرك وجنوب النرويج والسويد الحالية صوب الجنوب ، وحوالى سنة ١٠٠ قبل الميلاد وصلوا فى انتشارهم صوب الجنوب إلى نهر الراين ، وفى وقت لاحق – ربما فى القرن الأول الميلادى – هاجروا إلى حوض نهر الدانوب .

وإذا بدأ الجرمان يضغطون عبر نهر الراين ، كان من اليسير عليهم أن يدفعوا أمامهم بالشعوب " الكلتية " *(Celts)* فقد كانت الكلت شعباً مسالماً يشتغل الزراعة وكان لهم ولع شديد بالشعر والغناء ، ولولا ظهور يوليوس قيصر والفرق الرومانية على مسرح الأحداث فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد لتمكن الجرمان من هزيمة الغال *(Gaul)* ، مثلما فعلوا فيما بعد حين فتحوا بريطانيا ودفعوا بالكلت إلى جبال ويلز ، وقد تمكن يوليوس قيصر بعد قتال مرير أن يدفع بالجرمان إلى ما وراء نهر الراين مرة أخرى واستعمر الرومان النصف الجنوبى فى بلاد الغال استعماراً كلياً ، وفى منتصف القرن الثالث عبر الجرمان نهر الراين لفترة مؤقتة ، وهى الفترة التى سبقت انهيار الإمبراطورية مباشرة ، إلا

أن استحكامات الحدود على جبهة الراين سرعان ما بنيت من جديد وحتى حدوث الانهيار النهائى لتحصينات حدود الراين سنة ٣٠٦ ، لم يعبر النهر الكبير إلى جوف الإمبراطورية سوى القبائل الجرمانية التى أصبحت معاهدة فى الجيش الإمبراطورى .

وما أن حل القرن الثانى بعد الميلاد حتى كان الجرمان قد استقروا فى حوض الدانوب بأعداد كبيرة ، وأخذ هؤلاء يضغطون على الحدود الإمبراطورية فى هذا الإقليم ، وكان الجرمان على طول امتداد نهر الدانوب خاضعين لقسمين كبيرين للأمة القوطية : الفيزيقوط (الحكماء) ***(Visigoth)*** الأوستوقوط ***(Ostrogoth)*** (الساطعون) ، وقد عاش القوط الغربيون بالقرب من الحدود الرومانية ، وفى القرن الثالث الميلادى اخترق الجرمان جبهة الدانوب لفترة مؤقتة أيضاً ، ولكن القوط اضطروا للتراجع إلى ما وراء النهر مرة أخرى قبل أن ينتهى القرن ، ولم يسمح الرومان لأى من قسمى القوط بعبور الدانوب مرة أخرى قبل سنة ٣٧٦ . [١] وليس هناك دليل إيجابى عن أسباب هجرات الشعوب ***(Voelkerwanderungen)*** وكل ما نستطيعه هو أن نخمن الأسباب مسبقاً ، لقد ترك الجرمان سكندیناوة بسبب نقص الأقوات الناتج عن تزايد عدد السكان من ناحية وبسبب الحروب المستمرة بين القبائل والتى كان المهزومون فيها يطردون من مواطنهم لكى يبحثوا لأنفسهم عن موطن جديد فى الجنوب من ناحية أخرى ، وحين اقترب الجرمان من حدود الإمبراطورية اتصلوا بعالم الثورة والتقدم التكنولوجى ، ومناخ البحر المتوسط البديع ، لقد كان هدفهم أن يدخلوا إلى رحاب الإمبراطورية لا أن يدمروها ، وذلك لكى يشاطروا سكانها مستواهم المعيشى المرتفع .

وقد أثارت طبيعة النظم السياسية والقانونية والاجتماعية الباكرة لدى الجرمان اهتماماً كبيراً بين المؤرخين ونشرت حول هذا الموضوع مجلدات عديدة ، وهذا الاهتمام الكبير بالموضوع لا يعود إلى الدافع الوطنى فحسب ، ولكنه

راجع أيضاً إلى أن كثير من النظم التى ظهرت فى أوروبا فى فترة لاحقة ، تبدو وكأنها قد تطورت من خلال الأساليب الجرمانية الباكرة ، أو ترتبط بها على نحو ما ، وفى القرن التاسع عشر بالذات كرس العلماء جهداً ضخماً لدراسة النظم الجرمانية الباكرة ، إذ أنهم كانون متفقين على الرأى القائل بعضوية التطور السياسى والقانونى ، وهو ما يعنى أن النظام السياسى أو النظام القانونى الذى بلغ قمة تطوره ، كانت بذرته هى الشكل البدائى المتمثل فى نظام الجرمان .

والواقع أن مصادر الفترة الباكرة من تاريخ الجرمان ضئيلة ، ويعتبر " تـــاكيتوس " ***(Tacitus)*** المســـمى ***(Germania)*** الـــذى كتـــب ســـنة ٩٨ ميلادية ، أفضل وأقيم وصف كتبه مؤرخ قديم لأنماط الحياة عند الجرمان ، وهو يقع فى حوالى خمسين صفحة بالطباعة الحديثة ولم يزر تاكيتوس مناطق الحدود الجرمانية على الإطلاق ، إلا أنه كان يستطيع أن يجمع معلوماته من أحاديث الجنود الرومان العائدين من الجبهة ، كما كان بوسعه أن يطلع على الوثائق الحكومية ، وأن يطرح أسئلته على موظفى الحكومة ، باعتباره رجلاً أرستقراطياً ذا نفوذ ، ولسوء الحظ أن أغراضه من كتابة مؤلفه ***(Germainia)*** لم يكن يقصد النشر المحايد للمعلومات ، بل أنه أراد أن يصور لقرائه مدى التناقض بين الجرمان البسطاء الذين لم تفسدهم المدنية بنشاطهم وفضائلهم ، والرومان المراوغين المخنثين بانحلالهم الأخلاقى . وقد يؤخذ تصويره المثالى لـ " سيدة البيت " ***(Hausfrau)*** الجرمانية الفاضلة بتحفظ ، بيد أن هناك من المعلومات والتفاضيل الكثيرة عن ظروف وأحوال النظم السياسية والقانونية الجرمانية فى كتاب ***(Germania)*** ، ما يجعل كتاب تاكيتوس هذا ذا أهمية فائقة بالنسبة للمؤرخ .

وتتألف المجموعة الثانية من مصادر تاريخ الجرمان من الشعر الشعبى الجرمانى ، ومن سوء الحظ أن القصيدة الوحيدة الباقية من هذه المجموعة هى قصيدة " بيوفولف ***(Beowolf)*** الأنجلو – سكسونية التى وصلتنا فى شكل

قريب من القصيدة الأصلية ، بحيث يمكن أن تستخدم كمصدر تاريخى ، كما أن ملحمة " نيبيلونج " *(Nibelungenlied)* الكبيرة التى كانت مصدر إلهام الأوبرات التى ألفها " فاجنر " *(Wagner)* لم تصلنا سوى فى نص يرجع إلى القرن الثالث عشر ، وهو نص مثقل بأفكار الفروسية التى لا تتوافق مع المفاهيم التى كانت سائدة فى الوقت الذى ظهرت فيه أنشودة " نيبيلونج " ، أما ملحمة " البيوفولف " فقد دونها أحد رجال الدين فى أواخر القرن الثامن ، ويبدو التأثير المسيحى فيها سطحياً ، إذ أن القصيدة تكشف تماماً عن مثل وأخلاقيات الفئة العليا فى المجتمع الجرمانى ، ومن الممكن تدعيم الصورة التى ترسمها ملحمة البيوفولف للمجتمع الجرمانى من خلال مقارنة هذه الصورة بالصور التى ترسمها الحكايات النثرية *(Sagas)* والشعرية *(Sagas)* الأيسلندية للمثل والأخلاقيات السائدة فى المجتمع الأسكندناوى ، فبينما تصور هذه الحكايات المجتمع الأيسلندى فى العصور فى العصور الوسطى العالية ، فإنها تكشف أيضاً عن مجتمع يمر بمرحلة مشابهة من مراحل تطوره ، وهى المرحلة نفسها التى يمكن أن نضع أيدينا عليها أيضاً فى الشعر الهرمى ، وهذه المرحلة أقرب ما تكون إلى ما يسميه العالم الإنجليزى " شاوديك " *(H.C.Chadwcik)* بـ " العصر البطولى " *(Heroic-age)* وباستثناء كتاب " شادويك " الرائد الذى ظهر منذ نصف قرن مضى ، فإن العلماء لم يبذلوا حتى الآن سوى القليل من الجهد فى سبيل إلقاء الضوء على الحياة الجرمانية الباكرة ، من خلال استخدام هذا المنهج المقارن فى دراسة النظم الاجتماعية .

أما المجموعة الثالثة من مصادر تاريخ الجرمان الباكر ، فتتمثل فى المجموعة التى تعرف باسم مجموعة القوانين الجرمانية : والواقع أنها ليست مجموعات قانونية على الإطلاق ، وإنما هى تقارير مكتوبة قصد بها توضيح الشطر الأكبر من القانون الجرمانى الذى ظل شفوياً وعرفياً ، وعلى الرغم من تحديدها الصارم ، فإن هذه القوانين الجرمانية ،

مثل قوانين البيرجنديين والفرنجة (القانون السالى) وقوانين الأنجلو سكسون (الأحكام الأحكام ***The Dooms***) تحمل قيمة فائقة بسبب ما تحويه من معلومات عن الحياة السياسية والقانونية .

وأخيراً ، فإن الدليل الأثرى قد ساهم فى محاولة المؤرخين لإعادة تصوير الحياة الجرمانية الباكرة ، إذا أن علم الآثار يمكن أن يقتفى أثر هجرة أى شعب من الشعوب الجرمانية ، كما يستطيع أن يزيح النقاب تماماً عن المستوى التكنولوجى والحضارى لهذا الشعب ، ويجب من ناحية أخرى أن نعترف بأن نتائج الأبحاث الأثرية التى تهتم بتارئخ العصور الوسطى تستعصى على التفسير فى أغلب الأحوال ويرجع السبب فى هذا إلى أن عالم الآثار المتخصص فى العصور الوسطى – على عكس من ينقب بحفائره فى أطلال الحضارة المصرية القديمة وحضارة بلاد النهرين – مقيد فى بحوثه الأثرية بحقيقة أم مواقع الضياع والمدن والطرق التى كانت مستخدمة فى العصور الوسطى لا تزال مستخدمة حالياً فى معظم الأحوال ، ولذا فإن لا يستطيع القيام بحفائر منتظمة فى هذه البقاع . (٢)

أما عن حياة الشعوب الجرمانية وعاداتها وتقاليدها ، فقد رسم لنا المؤرخ " كورنيليوس تاكيتوس " ***(Cornelius Tacitus)*** صورة رائعة عنهم فى كتابه " جرمانيا " ***(Germania)*** واسمه كاملاً تحت أصل " الشعوب الجرمانية ووطنها وطرق معيشتها " ***(De Origine Moribus et Populis Germaniae)*** .

يقول " تاكيتوس " : ما لم يخرج الجرمان للقتال ، أمضوا من الوقت أقله فى الصيد ، وأكثره فى الدعة والكسل ، بأن استسلموا للنوم والمرح ، بل إن أشجعهم وأكثر شغفاً بالقتال لا يؤدى شيئاً ، فأمر البيت والأراضى كان موكولاً إلى النساء والشيوخ وسائر أفراد الأسرة الذين لا يميلون للقتال ، فيخلد السادة إلى الدعة ، لما غلب على طبعهم من التقلب الذى يدعو هؤلاء الرجال إلى ا،

يهووا الكسل ويكرهوا السلام ، وجرت عادة الإمارات على إن تبذل لسادة القوم شطراً من الماشية أو الحبوب ، تؤديه كل منها على حده وعن طيب خاطر ، ومتى جرى قبوله على سبيل التحية أضحى كافياً لسد حاجاتهم الضرورية ، وأكثر ما نعموا به من هدايا القبائل المجاورة ، تلك التى لم يرسلها فحسب الأفراد ، بل أيضاً الدولة كالجياد المنتقاة ، والدروع الرائعة وسروج الخيل والسلاسل التى يتخذونها عقودا ، ونحن (الرومان) من جانبنا علمناهم فى الوقت الراهن أن يقبلوا أيضاً النقود .

والمعروف أن شعوب جرمانيا لا يقطنون المدن المسورة ، بل أنهم ينفرون من الدور المتلاصقة ، فقد تبعثرت مساكنهم وفصلت بينها مسافات فسيحة حسبما يسترعى اهتمامهم نبع ماء أو مرعى أو غابة ، ولم يسيروا على نهجنا فى أن يجعلوا منازل القرية متلاصقة وممتدة ، فكل شخص يحيط داره بأرض خالية من النبات ، إما لوقايتها من كوارث الحريق ، وإما لافتقارهم إلى المهارة فى البناء ، فلم يستخدموا فى البناء الحجارة أو الآجر ، بل استعملوا الخشب فى جميع الأغراض ، فى كتل غليظة جافة دون حلية أو زينة ، على أنهم حرصوا على أن يطلوا بعض أجزاء المبانى ، بطفل بلغ من النقاء والنصاعة ، ما جعله أشبه بالدهان أو الرسم الملون ، ودرجوا أيضاً على أن يحفروا كهوفاً تحت الأرض ، ويجعلوا عليها أكواماً من روث الماشية ، واتخذوها ملجأ يقيهم برد الشتاء ، أو مستودعاً لمحصول السنة ، وبفضل هذه المواضع خفت وطأة البرد ، فإذا أقبل العدو وخرب البلاد العزلاء كان كل ما جرى إخفاؤه أو دفنه لم يعرف العدو بوجوده أو أنه أفلت منه لأن العثور عليه يقتضى البحث عنه .

ويتدثر الجرمان فى عباءة يثبتها بملقط أو شوكة نبات ، إذا لم يتيسر الحصول على الملقط ، وقد تعرى ما تبقى من الجسد ويمضى الجرمان أياماً كاملة إلى جانب موقد النار ، وما يمتاز به أكثرهم غنى وثروة أنهم يتخذون من الملابس الداخلية ما ليس طويلاً كالذى يتخذه السرامطة والبارثيون ، غير أنها

كانـت مـن الضـيق أنهـا أظهـرت أطـراف الجسـم ويرتـدى الجرمـان أيضـاً جلـود الحيوانات غير أن القبائل النازلة على الراين والدانوب لم تحفل بنهدامها ، لأنها لم تحصل على غير هذا الملابس من التجارة ، بينما ازداد تأنق القبائل التى تقيم بالداخل ، إذ كانت تنتقى حيوانات معينة ، وتسلخ عنها جلودها وتغايرها بما تجعله من قطع من جلود الحيوانات التى يزخر بها المحيط الخارجى ، الذى لا بعلم أحد مدى اتساع مياهه ، ولا يختلف النساء عن الرجال فيما يتخذنه من أسلوب فى الزى ، إلا فى أن النساء ارتدين عادة الثياب المصنوعة من التيل ، وقد طرزن أطرافها بالزركش الأحمر ، ولم يجعلن أكماماً للقميص ، وبذا صار كل الذراع والجزء الأعلى من الصدر مكشوفين . (٣)

ومع ذلك فإن رباط الزوج كان بالغ المتانة والشدة فى جرمانيا ، والواقع أنه ما من جانب من أحوالهم يفوقه إطراء وثناء ، فالجرمان هم وحدهم من دون سائر المتبربرين ، الذين يقنعون بزوجة واحدة باستثناء فئة قليلة منهم ، نظراً لأن عراقة أصلهم جعلت عروض الزواج تنهال عليهم ، ولا تؤدى الزوجة البائنة لزوجها ، بل إن الزوج هو الذى يدفع مهراً للزوجة ، ويشهد الوالدان والأقارب عقد الزواج ويفقدون هدايا الزواج التى لم يقصد بها أن تناسب ذوق المرأة ، أو التى يزينها بها العريس ، بل شملت الثيران وجواداً مطهما وترسا ورمحا وسيفاً ، وبهذه الأشياء يظفر الرجل بزوجته التى تبذل له بدورها هدية من الأسلحة .

ويعتبرون هذا أقوى رباط للاتحاد ، يوعدون هذه الأشياء من أسرارهم المقدسة ، وآلهة الزواج عندهم ، ولكيلا تظن الزوجة أنها تقف بعيداً عن مجال أعمال البطولة ، وأخطار الحرب ، جرى تذكيرها دائماً أثناء الاحتفال الذى يقام عقب الزواج ، أنها لم تقدم إلى زوجها إلا لتشاركه ما يتعرض له من عناء وخطر ، وتقاسمه ذلك فى حالتى السلم والحرب ، ويؤكد هذه الحقيقة ما بذل من الثيران والجواد المطهم وهدية الأسلحة ، وينبغى أن تعيش وأن تموت على

أساس إدراكها أن ما تلقته من شئ ينبغى أن تسلمه إلى أطفالها ، لم ينقص شئ من قيمته ، ثم يتسلمه أصهارها وأحفادها .

وإذ جرت صيانة عفتهم عاشوا دون أن تفسدهم مغريات المظاهر العامة ، أو مثيرات اللهو والفجور ، ولم تكن رسائل الحب الخفية معروفة عند الرجال والنساء سواء ، وقلما جرى الزنا بين هذا العد الكبير من السكان ، وفى وسع الزوج أن يبادر إلى إنزال العقوبة على الفور متى حدث ذلك ، إذ أن الزوج يطرد الزانية من داره بحضور قومها ، بعد أن يقص شعرها ويجردها من ملابسها ثم يجلدها بسوطه أثناء طوافه بها فى القرية ، فلا مغفرة لمن فقد عفتها ، ومهما كان للزانية من جمال وشباب وثروة فلن تحظى بزوج ، فما من أحد بجرمانيا يقر الرذيلة ، أو يعتبر الفساد والإفساد من سبيل الحياة ، أو عندئذ ينتهى كل ما تبتغيه العروس من آمال وطماع ، إذ نحصل النساء على زوج واحد ، وإذ ليس لهن إلا جسد واحد أو حياة واحدة ، فلا تتعدى أفكارهن هذا الزواج الوحيد ، ولا تتجاوز رغباتهن الجامحة ولا يبذلن الحب له على أنه زوج فحسب بل على أنه يمثل حياة زوجية ، ويعتبر من الأمور المنكرة تحديد النسل أو قتل الأطفال عند ولادتهم بعد وفاة الزوج ، وهذه العادات الطيبة لأكثر نفعاً هنا من القوانين الصالحة فى مكان آخر . (٤)

ثانياً : غزوات الجرمان وتأسيس ممالكهم فى أوروبا :

(مرحلة الغزو الأول)

والواقع أن الإمبراطورية الرومانية اصطدمت بمجموعتين كبيرتين انقسم إليهما الجرمان ، بعد انسياب الجانب الأعظم منهم من شبه جزيرة استكندیناوة إلى جوف القارة الأوروبية ، فضمت مجموعة الجرمان الغربيين : الفرنجة

والإنجليز والسكسون والسويفيين والألمان ، وضمت مجموعة الجرمان الشرقيين : القوط والندال والجبيداى والبرجنديين واللمبارديين والروجيين وغيرهم ، وفى حين بقى فريق من الجرمان فى شبه جزيرة اسكندیناوة حيث تفرعت الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية ، وصل فريق فى رحلته جنوباً بغرب عبر ألماني – سعياً وراء العيش أو الجو الدافئ أو حباً فى المغامرة والحرب – إلى حوض نهر الراين فى حين اتجه فريق ثالث وجهة شرقية فوصل إلى ضفاف نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود ، وهذا التياران المتباعدان من تيارات الهجرة الجرمانية هما اللذان اصطدمت بهما الإمبراطورية الرومانية .

وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك اختلاف كبير بين الجرمان قبل هجراتهم فإن الاختلافات ما لبثت أن ظهرت بينتهم بعد الهجرات بسبب اضطرار كل فريق إلى مواءمة حياته فى البيئة التى حل بها ، فبينما انسابت جماعات الفرنجة والوسفيين والسكسون والألمانى من مواطنها نحو الجنوب إلى بلاد لا تختلف كثيراً فى طبيعتها عن بلادهم فصاروا إلى شئ من الزراعة والاستقرار قبل أن يغيروا على الإمبراطورية الرومانية ، نجد القوط والوندال واللمبارديين فى الفرع الشرقى قد هاجروا إلى سهول البحر الأسود وإلى بلاد بالغة الاختلاف عن بيئاتهم ولهذا ظلوا رعاة يضربون فى مناكب الأرض الوعرة والغابات بسمائتهم وعرباتهم طلباً للعيش والمراعى ، كما ظلوا فرساناً شديدى البأس .

وهكذا ظلا الجرمان الشرقيين فى حالة بداوة لم يصبهم كثير من التغير وغاراتهم ليست سوى هجرات وتحركات تبدأ وتنتهى من آن لآن بحثاً عن مراعى جديدة ومواطن صالحة لهذه الحياة ، بينما اتخذ غزوات الجرمان الغربيين صفة الزحف الدائم مع الاحتفاظ بالأصول والموطن تمد وتدعم وتقوى بانتظام ، وظل الجرمان يختلفون اختلافاً بيناً عن سكان الإمبراطورية الرومانية حتى بعد انتقالهم إلى تخوم الدولة ، فبقوا قبائل متحاربة وعشائر متشاجرة ، وظلوا أمماً

متخلفة من الناحية الحضارية تفتقر إلى نظم إدارية وثقافية وفكرية ، وبقيت حياة البداوة تغلب عليهم ، وليس لهم شئ من التجارة والصناعة ، ولكنهم كانوا شديدى التحمس للإفادة من مظاهر الحضارة التى غدوا بقربها ، وعلى استعداد لتقبل كل من شأنه أن يرقى بهم حتى ليصبح من الصعوبة بمكان أن نفرق بين ما هو من أصل جرمانى بحت وما هو من أصل رومانى .

على أن الإفادة من مظاهر هذه الحضارة والإفادة من ثروة الأراضى الرومانية وخصبها كانتا من بين الأسباب التى أدت إلى تحرك الجرمان إلى تخوم الإمبراطورية الرومانية ، فضلاً عما اكتنف المنطقة من حولهم من تغيرات أسهمت فى دفعهم إلى جوف الدولة الرومانية ابتداء من أواخر القرن الثانى الميلادى ، فقد ضاقت بهم سبلا العيش نظراً لتزايد أعدادهم وفقر أراضيهم ، وشغل مساحات شاسعة منها بالغابات والمستنقعات وعدم كفاية زراعاتهم البدائية لحاجة السكان ، فضلاً عن تعرضهم لكوارث الطبيعة من جفاف ومجاعات وفيضانات وحرائق فى الغابات وصواعق أدت إلى تحركهم إلى مواطن جديدة ، هذا بالإضافة إلى ما حدث من ضغط قبائل أخرى كالصقالبة أو السلاف من جهى الشرق ، كل هذا جعلهم يتركون مواطنهم إلتماساً لمواطن جديدة عبر نهرى الراين والدانوب ، يتطلعون فى حسد وغيرة للأراضى الوادعة والحقول المزروعة والمدن الصاخبة – على الجانب الآخر من ضفاف النهرين الكبيرين .

غير أن تحرك فريق من الجرمان الشرقيين وهم القوط إلى داخل لإمبراطورية الرومانية كان نتيجة لتحرك شعب آسيوى آخر أشد ضراوة وأكثر وحشية وهم شعب الهون ، إذا يبدو أن الظروف المناخية كانت قد تغيرت فى آسيا الوسطى وازدادت البيئة فيها قسوة ، فأدى ذلك إلى اندفاع شعوب متبربرة وضغطها على سكان الجهات المجاورة ، وكان تحرك الهون صوب الجنوب والغرب مجتازين قارة آسيا إلى حوض نهر الدانوب فى النصف الثانى من القرن

الرابع الميلادى فهزموا القوط الشرقيين وراحوا يدفعونهم وغيرهم من الجرمان إلى جوف الإمبراطورية الرومانية . (٥)

والواقع أن علاقة الجرمان بالإمبراطورية الرومانية مرت بأدوار مختلفة وانتهت بغزو الجرمان للأراضى الإمبراطورية وإقامة ممالك جرمانية بين ربوعها ، وتشير كثير من الدلائل إلى أن هذه العلاقة بدأت بفترة من السلم والتعاون بين الجانبين استغرقت نحو قرنين من الزمان ، حتى نهاية القرن الثانى الميلادى ، وبالتحديد نهاية عهد الإمبراطور " ماركوس أوريليوس " سنة ١٨٠ م حيث أخلدت القبائل الجرمانية المرابطة على حدود الدولة إلى السكنية فى حين تكفلت استحكامات الدفاع الرومانية بكبح جماح هذه القبائل ووضع حد لأطماعها ، لكن الأمور أخذت تتبدل فى غير صالح السلام ابتداء من أواخر القرن الثانى ، حين عاثت قبائل الجرمان فى حوض نهر الدانوب وأخذت هجماتهم طوال هذا الدور طابع الهجمات المتفرقة والعمليات الحربية المتقطعة المفتقرة للرباط أو الوحدة أو الخطة الشاملة والمعتمدة على الظروف المتغيرة والعوامل المحركة كضغط القبائل الأخرى وحدوث المجاعات ، غير أن عبث القوط امتد فى البلقان سنوات طويلة خلال القرن الثالث حتى تمكنت الإمبراطورية من هزيمتهم سنة ٢٧٠م ، وتأخير تغلغلهم فى أراضيها وساعد فى كبح جماح هذه القبائل حينذاك ما حدث من تنازل الإمبراطورية عن إقليم " داشيا " بالبلقان حينذاك ليقيم فيه القوط ، فاستقروا به وأخلدوا إلى السلم فترة وتأثروا بالمسيحية وأخذوا يفيدون من مظاهر الحضارة الرومانية ، واستمر تغلغل الجرمان فى جوف الإمبراطورية بالهجوم تارة وبالتسرب البطئ تارة أخرى حتى أواخر القرن الرابع الميلادى وساعد على ذلك ما حدث من اتجاه الإمبراطورية للإفادة من هذه العناصر المتحمسة الوافرة النشاط واستخدامهم جنداً مرتزقة فى الجيوش الرومانية ، وأَبح بعض المهيمنين على مصائر الإمبراطورية من القادة تجرى فى عروقهم دماء جرمانية ، بعد أن أصبح التفاعل والتزاوج بين الجانبين أمراً مألوفاً فى القرنين

الثالث والرابع ، على أن الهجمات الجرمانية ما لبثت أن تجددت فى الربع الأخير من القرن الرابع بطرية جديدة تعين بداية مرحلة ثالثة فى العلاقات بين الجانبين ، ذلك أن هجمات الجرمان فى هذا الدور اتسمت بطابع الهجمات المنظمة والهجرات الجماعية الكبيرة ، المرتكزة على خطط حربية هامة واستمرت هذه الحركة نحو قرنين من الزمان استطاعت خلالها القبائل الجرمانية إخضاع أقاليم رومانية كبيرة وفرض استقرارها داخل حدود الإمبراطورية الرومانية قهراً وإقامة ممالك جرمانية ظلت قائمة فترات متفاوتة تسهم فى صنع التاريخ الأوروبى الوسيط . (٦)

الهـــون *Huns* :

أما الهون الآسيويون فكانوا قد اجتاحوا إقليم الدانوب الأدنى بعد أن تغلغل القوط الغربيون داخل جسم الإمبراطورية سنة ٣٧٥ ، ثم ظل الهون مقيمين على شواطئ البحر الأسود حتى سنة ٤٢٥ عندما نفذوا إلى " تراقيا " وأخذوا يهددون " القسطنطينية " ، ويبدو أنه اشتد عبث الهون – تحت زعامة اتيلا – بالولايات الرومانية الواقعة فى حوض الدانوب الأدنى بين سنتى ٤٣٠ – ٤٣٣ ، مما اضطر " ثيودوسيوس الثانى " إمبراطور الدولة الشرقية (٤٠٨ – ٤٥٠) إلى دفع جزية مالية سنوية لهم مقابل عدم اعتدائهم على على أراضى دولته ، ومن ثم أخذوا يوجهون نشاطهم تجاه الغرب ، وكان أن تقدم " أتيلا " غرباً بحذاء الدانوب سنة ٤٤٧ فخرب " مواشيا " و " تراقيا " و " اليريا " و " بانونيا " حتى عبر الراين وهاجم غاليا سنة ٤٥١ ، وقد نهب الهون كثيراً من مدن غاليا مثل " تريف " و " مينز " وتروى " وشالون " وغيرها من المدن المهمة التى فر أهلها من وجه الهون طلباً للنجاة ، بعد ما شاع عنهم من قصص طويلة يعبر عن بطشهم وفسوتهم ، ولم يكن منتظراً من الإمبراطور الغربى عندئذ – وهو فالنشيان الثالث – أن يقوم بعمل إيجابى ضد هذا الخطر الجاثم ، ولكن قائه " ايتيوس " *(Aetlus)* برز فى تلك الظروف ليحمل عبء

الـدفاع عـن غاليـا ، وعندئـذ حـدثت ظـاهرة جـديرة بالاهتمـام ، وهـى أن القـوط الغربيين تحـالفوا مـع الجيوش الرومانيـة لـدفع خطر الـهون المشترك حتـى أنـزل الحلفـاء الـهزيمـة بجموع " أتيلا " قرب شمال " شـالون "سنة ٤٥١ ، ولسنا فى حاجة إلى القول بأن هذه الموقعة تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ ، إذا أنقذت غرب أوروبا مـن وحشية الـهون الـذين ارتدوا عبـر الـراين ليقوموا تحت قيادة " أتيلا " بغزوة مفاجئـة لإيطالي فى العام التـالى (٤٥٢) ، ولم تلبث روما أن وجدت نفسها أمام خطر ساحق جديد مما جعل أسقفها البابا " ليو " العظيم يخرج بنفسه لمفاوضة " أتيلا " ، وهنا تجمع الأساطير المعاصرة على أن طيف القديس " بطرس " أفزع " أتيلا " فأسرع بالأياب ، وإن كان الواقع هو أن " أتيلا " أحس باقتراب الجيوش الرومانية بقيادة القائد الرومانى الشـهير " أيتيوس " مما جعله يسرع بإخلاء إيطاليا فى يوليو سنـة ٤٥٢ بعد أن أخذ وعدا بالحصول على جزية سنوية ، ولم يلبث أن توفى " أتيلا " فى العالم التالى فى " بانونيا " وعندئذ حـاول أبنـاؤه اقتسـام إمبراطوريتـه الواسـعة ، ولكـن الشـعوب الخاضـعة للـهـون انتهزت الفرصة وثارت وأنزلت بهم الهزيمـة فى موقعة " نـديو " *(Nedeo)* سنة ٤٥٤ ، وبـذلك انـهـار إمبراطوريـة الـهـون قبـل أن يمضـى علـى وفـاة " أتـيلا " عشرون عاماً . (٧)

القوط الغربيون : *Visigoths*

يبدو من خلال أساطير القوط أنهم عبروا البحر البلطى من جنـوب شبه جزيـرة اسـكندناوة فـى القـرن السـادس قبـل المـيلاد حتـى وصـلوا مصـب نـهـر " الفسـتولا " *(Vistula)* وحـوالى سـنـة ٢٥٠ ق.م ظهـروا تاريخيـاً عنـدما شـرعت بعض القبائل القوطية فى التحرك صوب الجنـوب الشرقى إلى أعلـى ا" الفستولا " خـلال مستنقعات " البريبت " *(Pripet)* حتـى استقرت فـى النـهايـة فى حـوض " الدنيبر " الأدنى والساحل الشمالى للبحر الأسود ، وهناك انقسم القوط إلـى فرعين

قبليـين كبيـرين همـا : القـوط التـرفنج *(Tervingi)* والقـوط الجـروتنج *(Greutungi)* ، وقد استقر فرع الترفنج بين الدانوب والدنيستر ، وعرف فيما بعد باسم القوط الغربيين *(Visigoths)* ، أما الفرع الآخر الجروتنج فقد أقاتم فى جنوب روسيا على نهر الدنيبر ، وعرف فيما بعد باسم القوط الشرقيين *(Ostrogoths)* وتجدر الإارة إلى أن خط التمييز الجغرافى بين القوط الغربيين والقوط الشرقيين ظل واحداً حتى بعد أن تكونت ممالك القوط فيمنا بعد ، فكان القوط الغربيون فى تولوز بينما كان القوط الشرقيين فى إيطاليا شرقيتهم .

وقد ظهر خطر القوط واضحاً فى منتصف القرن الثالث الميلادى ، عندما اشتدت إغاراتهم البربرية على ولايات الجزء الشرقى من الإمبراطورية ، فاجتاحوا إقليم مؤيسيا السفلى ، ثم فرضوا الحصار على موقيانوبولس *(Marcianopolis)* (بالقرب من فرنا) عاصم الإقليم غير أنهم ما لبثوا أن فكوا الحصار عن تلك المدينة بعد أن دفع السكان مبلغاً ضخماً من المال ، ثم قفلوا عائدين إلى بلادهم ، وإبان عهد الإمبراطور " ديكيسوس " *(Decius)* (٢٤٩ – ٢٥١م) عبر القوط الدانوب الأدنى واجتاحوا تراقيا ومقدونيا ، وظلوا ينشرون الدمار والخراب حتى وجد نفسه مضطراً لمواجهتهم خلال زحفهم على مدينة " فيلبوبوليس " *(Philip Popolis)* (عاصمة تراقيا) ، ولكنه لقى الهزيمة رغم شجاعته ونشاطه ، والحق أن تلك الهزيمة لم تنل من عزيمة الإمبراطور ، فما لبث أن جمع قواته المبعثرة وشرع فى إنقاذ المدينة من الحصار الذى فرضه عليها القوط ، وفعلاً تغير الموقف بعد أن طال أمد الحصار ، فقد قاسى القوط عناء الانتظار تحت أسوار المدينة وخاب أملهم فى الاستيلاء عليها ، وأسقط فى يدهم فراسلوا ديكيوس يعرضون عليهم تسلمي الأسرى وإعادة الغنائم بشرط أن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم سالمين ، ولكن الإمبراطور رفض ذلك العرض ، اعتقاداً منه أن القضاء عليهم بات أمراً ميسوراً ، وبذلك ارتكب خطأ لا يمكن تلافيه ، إذ نسىّ أن القوط يدافعون هذه المرة عن

طوق نجاتهم أو بالأحرى يدافعون عن حياتهم دفاعاً المستميت ، الأمر الذى أرغمهم على خوض معركة عنيفة فى عام ٢٥١م ، كلفت الإمبراطور وابنه حياتهما ، وبعد أن كانوا يطلبون طوق النجاة ، إذا بهم قد استولوا على الولايات الدانوبية بعد أن عجزت القوات الرومانية عن ردهم ، وقد انعكست هذه الهزيمة على موقف " جالوس " (٢٥١ – ٢٥٢م) عندما اعتلى عرش الإمبراطورية ، ذلك أنه أحس بعجزه عن مواجهة القوط ، وعدم قدرته على طردهم بالقوة خاصة بسبب الطاعون الذى اجتاح ولايات الدانوب ، فاتفق معهم على مغادرة أراضى الإمبراطورية نظير دفع جزية ضخمة سنوياً .

وهنا نلاحظ أن القوط ظلوا سادرين فى غيهم فواصلوا إغارتهم على أملاك الإمبراطورية ، وقد ساعدتهم أحوال الإمبراطورية على ذلك فبين سنتى ٢٥٣ و ٢٦٨م هدد الجرمان الجزء الغربى من الإمبراطورية فى الوقت الذى واجهت فيه المتاعب مع فارس ، ومما يذكر أن تاريخ القوط خلال تلك الفترة كان مليئاً بالفظائع ونشر الرعب والفزع ، بالإضافة إلى نهب المدن الغنية التى تعرضت لغزوات ضارية ، وأخيراً فى عام ٢٦٩م نشأ تحالف قوى بين القوط وجماعات من الجرمان مثل الجيبيداى والهيولى وغيرهم استهدف مهاجمة أملاك الإمبراطورية بحراً ، وفعلاً أبحر أسطول مؤلف من خمسمائة سفينة من الساحل الغربى للبحر الأسود وصل الساحل الغربى لآسيا الصغرى ، ثم عبر البحر الإيجى متجهاً إلى بلاد اليونان ، وكانت المدينة العريقة أثينا من بين المدن التى تعرضت لنهب القوط ثم توجه الأطول إلى البحر الأدرياتى ، إذ يبدو أن القوط كانوا يفكرون فى غزو إيطاليا ، ولكن النزاع الذى شب بين زعماء البرابرة أدى إلى انقسام الجيش القوطى إلى جماعتين إحداها عادت إلى موطنها الأول شمال البحر الأسود ، واتجهت الأخرى إلى إقليم مؤيسيا قاصدة غزوه ، وفعلاً سقط فريسة فى أيديها ، وفى تلك الأثناء كان " كلوديوس الثانى " ***(Claudius-II)*** (٢٦٨-)

٢٧٠م) قد وصل إلى عرش الإمبراطورية ، وعقد العزم على تطهير الإمبراطورية من البرابرة الغزاة ، فخرج لملاقاتهم على رأس جيوشه ، والتقى الفريقان عند نيسوس " نيس " *(Naissus)* فى معركة دامية حدثت فى عام ٢٧٠م ، وأسفرت عن هزيمة القوط هزيمة ساحقة ، راح ضحيتها خمسون ألف قوطى ، فضلاً عن ألوف عديدة أخرى وقعت فى ذل الاسترقاق ، أما باقى القوط فقد ارتدوا إلى شمال الدانوب ، ثم توالت انتصارات " كلوديوس الثانى " على القوط لدرجة أفقدتهم الثقة فى أنفسهم ، وذاع صيت " كلوديوس الثانى " بأنه قاهر القوط ، واستحق عن جدارة لقب " القوطى " *(Gothicus)* الذى عرف فى التاريخ ، وبعد أن توفى " كلوديوس الثانى " بمرض الطاعون خلفه " أوريليان " (٢٧٠ – ٢٧٥) على عرش الإمبراطورية ، وفى بداية عهده عاد القوط لمهاجمة أراضى الإمبراطورية واشتبكوا مع الإمبراطور فى معركة لم يتحدد مصيرها ، ولكنها كلفت الجانبين الكثير من الخسائر ، مما أدى إلى اتفاقهما على الصلح ، وكان أن رأى الإمبراطور أن احتفاظه بولاية داكيا سوف يجلب المتاعب للإمبراطورية ، فضلاً عن صعوبة الاحتفاظ بها آنذاك ، ولذلك أمر بسحب الحامية الرومانية من تلك الولاية ، وإخلائها من السكان الرومان ، ثم تسليمها للقوط للإقامة بها ، وهكذا صارت أحداث ولاية ضمتها الإمبراطورية إلى نفوذها أول ولاية تفرضط فيها للجرمان ، ورغم أن " أوريليان " قد حل مشكلة داكيا على حساب الإمبراطورية ، إلا أنه فى الواقع أبعد الخطر القوطى عن أملاكه مدة خمسين سنة ، ومنذ ذلك الوقت صار جنوب الدانوب الحد الشمالى للإمبراطورية كما كان الوضع فى أيام الإمبراطورية ألولى .

جنح القوط إلى الهدوء إلى الهدوء خلال فترة الخمسين عاماً التى أعقبت قيام الصلح بينهم وبين الإمبراطورية بدليل أن المصادر المعاصرة لم تذكر شيئاً عن أحداثهم إبان تلك الفترة ، وعلى أية حال فقد خرجوا عن هدوئهم الطويل على عهد قنسطنطين العظيم ، فحدث

أول صدام بينه وبينهم فى عام ٣٢٢م ، استطاع خلاله أن يحقق النصر عليهم فى ثلاث معارك متتالية ، أجبرتهم على الخضوع له ، ثم بعد ذلك بثمانى سنوات (٣٣٠م) اشتبك معهم فى حرب أسفرت عن هزيميتهم هزيمة فادحة ، وهنا نلاحظ أن قنسطنطين عامل أولئك البرابرة بعدئذ معاملة طيبة ، فقعد معهم معاهدة صاروا بمقتضاها حلفاء *Foederayi(Allies)* للرومان ، وجرى الاتفاق أيضاً على أن يسلم الملك القوطى ابنه الأكبر رهينة فى أيدى الإمبراطور إعراباً عن إخلاصه وصدق ولائه

ثم حدث الحدث الأعظم فى تاريخ القوط عندما شقت المسيحية طريقها إليهم فى منتصف القرن الرابع ، عن طريق المبشر القوطى الآريوسى المذهب أولفلاس *(Ulfilas)* (٣١١-٣٨١) الذى لقنهم الدين الجديد على المذهب الآريوسى ، مخالفاً لمذهب الآثناسيوسى المنتشر فى الغرب الأوروبى ، الأمر الذى كان له عواقب بعيدة المدى على مستقبل قبائل القوط الغربيين والشرقيين والوندال والبرجنديين واللومبارديين وغيرهم ، وكان أولفلاس قد أتى إلى منطقة شمال الدانوب بعد أن قرر مجمع أنطاكية فى حوالى عام ٣٤٠م برئاسة أيوزيب المناهض أولفلاس إلى القيام بمهمته خير قيام ، ويعزى إليه الفضل فى ترجمة الإنجيل إلى لغة القوط الذين لم تكن لهم دراية بالكتابة آنذاك ، ولهذا نراه قد استتعار الحروف اليونانية للتعبير عن الأصوات الجرمانية واضعاً بذلك أساس الكتابة عند الجرمان ، وبلغت شهرته فى التبشير حداً جعلته يعرف باسم حوارى القوط أو رسولهم *(Apostle of the Goths)* . [٨]

وحوالى عام ٣٧٠م ظهر خطر الهون الذى زلزل الأرض بشدة تحت أقام الشعوب المتبربرة بما فيها القوط ، وبداية خرجت جموع الهون من مواطنها الأصلية فى شكل إعصار مدمر ، انقض على قبائل الآلان الجرمانية فى المنطقة الواقعة بين القوقاز والدون ، فاجتاحها وبعد ذلك بخمس سنوات (٣٧٥م) تعرض القوط الشرقيون فى جنوب روسيا لهجوم الهون فلم يقدروا على

درئه ، وما لبثت مقاومتهم أن انهارت وهزموا شر هزيمة ، انقسموا على أثرها إلى قسمين : قسم يمثل الغالبية اضوى تحت سيادة الهون ولذلك عوملوا معاملة طيبة ، أما القسم الآخر فقد اتجه إلى الدنيستر ثم إلى الدانوب ، حيث انضموا إلى إخوانهم القوط الغربيين الذين كانوا قد سبقوهم إلى هناك ، ولكن القوط الغربيين بعد الكارثة التى ألمت بإخوانهم القوط الشرقيين خشوا أن يقعوا فريسة فى أيدى الهون فاضطروا إلى التقهقر نحو الغرب ، وفعلاً كانت جحافل الهوية لهم بالمرصاد ، إذ لم تلبث أن ضغطت عليهم فأسقط فى أيدى القوط الغربيين ، لاسيما بعد أن تصوروا جسامة الفظائع التى ستنالهم إذا أمسكت بهم قبائل الهون ، وتلفتوا حولهم فلم يجدوا خلاصهم إلا فى أراضى الإمبراطورية ، فالتمسوا الإذن من الإمبراطور " فالنز " ***(Valens)*** (٣٦٤-٣٧٨) بالسماح لهم بعبور نهر الدانوب ، وكان الإمبراطور مشغولاً آنذاك بمشاريعه الحربية ضد الفرس ، فوافق على عبورهم الدانوب فى ربيع عام ٣٧٦م ، على شرط أن يصيروا حلفاء للإمبراطورية يلتزمون بالدفاع عن حدودها مقابل إمدادهم بالمؤن ، ولسنا فى حاجة إلى تصور الأعداد الهائلة من القوط الغربيين المهاجرين – أطفالاً ونساء ورجالاً وشيوخاً – الذين عبروا نهر الدانوب ، فقد ازدحم مجراه بالسفن ازدحاماً خانقاً مما أدى إلى غرق البعض منها ، وهنا نلاحظ أن الرومان حاولوا إحصاء عدد اللاجئين ولكن أعدادهم الغفيرة حالت دون إتمام هذه المهمة ، ثم إن إيواءهم ليس أمراً سهلاً كما نتخيل بل هو أمر لابد أن يثير المتاعب والقلاقل من حيث ندرة المؤن والأقوات آنذاك ، وأحداث الفوضى والإخلال بالأمن والنظام علاوة على ما تعرض له أولئك اللاجئون من تعنت الموظفين الرومان وسوء معاملتهم ، كل ذلك دفع القوط الغربيين إلى مخالفة ما عاهدوا الإمبراطورية عليه ، وأعلنوا الثورة عليها . وبدأ القوط ثورتهم فى عام ٣٧٧م بأن عبروا جبال البلقان ثم انقضوا على تراقيا من بلاد اليونان الحالية فسقطت فى ايديهم ، بعد أن عجز قائد القوات الرومانية عن صدهم ، واضطرته الهزيمة

للفرار إلـى مدينـة مرقيـانوبوليس ، وفـى تلـك الأثنـاء كـان الإمبراطـور غائبـاً عـن عاصـمته فـى آسـيا ، فلمـا علـم بالاضـطرابات التـى أحـدثها القـوط فـى أراضـى الـدانوب ، رجـع إلـى عاصـمته فوصـلها فـى ٣٠ مـايو ٣٧٨م ، وفـى خـلال ذلـك الوقت أيضاً كان " جراتيان " *(Gratian)* زميل الإمبراطور فى الغرب الأوروبى – وهو فى نفس الوقت ابن أخيه – قد هزم الجرمـان علـى جبهـة الراين ، واستطاع إعادة الهدوء إليها ، وما لبث " جراتيان " بعد أن فرغ من مهمته أن وجـه جهوده إلـى العمـل علـى إزالـة الكارثـة التـى لحقت بالرومـان فـى منطقـة الـدانوب ، وحتـى يحقـق ذلـك أسـرع بـالهبوط إلـى تلـك المنطقـة فوصـل " سـرميوم " عاسـمة إقلـيم ايلليريـا ، وهنـاك أرسـل إلـى عمـه الإمبراطـور يطلـب منـه ألا يجـازف بقواتـه قبـل وصوله للاشتراك معاً – بقواتهما – فـى عمل حربى من شأنه أن يحقق النصر علـى أعدائـه ، ولكـن المتملقـين المحيطـين بـالإمبراطور أوعـزوا لـه ألا ينتظـر وصول ابن أخيه حتى لا يشاركه فرحة النصر ويجمع الأضواء حولـه ، وأكـدوا لـه ثقتهم الزائـدة فـى مقدرتـه وكفاءتـه ، وكـان أن زحـف الإمبراطـور علـى رأس قواتـه البالـغ عددها عشرة آلاف محارب فى ٩ أغسطس سنة ٣٧٨ ، وعلـى مقربـة من أدرنـة " أدريانوبـل " *(Hadrianople)* فـى إقلـيم تراقيـا دار قتـال عنيـف بـين الفريقين ، انتهى بسحق القوات الرومانية وإبادتها ، ولقى الإمبراطور مصرعه ، نتيجـة طيشـه واندفاعـه وتجدر الإشـارة إلـى أن اسـتخدام القـوط الغربيين للخيانـة الثقيلـة فـى تلـك المعركـة سـاهم فـى تحقيـق الانتصـار ، وصـارت الخيالـة الثقيلـة وفنونها العسكرية منذئذ هى العامل الحاسم فى المعارك ، وضقت أن تكون لمدة ألف سنة هى الأداة الفعالة فى الحروب الأوروبية ، وبعبارة أخرى لم يعد للجنود المشاة السيطرة بعد ذلك على ميدان المعركة .

وإزاء تلـك الكارثـة التـى ألمـت بالإمبراطوريـة توقـف المـؤرخ " أميـانوس مارسللينوس " (٣٢٥–٣٩١م) عن ذكر أية تفاصيل عنها ، إذ أن مـا رواه عنها جاء غامضاً ، أما المؤرخ الإنجليزى " جيبون " *(Gibbon)* فقد كان أحد الأوائل

الذين رأوا فى معركة أدريانوبل نقطة تحول فى التاريخ ، أما المؤرخ " برادلى " *(Bradley)* فقد ذكر أن القوط لو كانوا قد توحدوا ونظموا صفوفهم وعرفوا كيف يستغل ما أحرزوه من نصر لكان من المحتمل أن تنساق الإمبراطورية الشرقية إلى نهاية سريعة ، ولكن فن الغزو الذى ألفوه كان ينقصه الكثير ، ويشير المؤرخ " كانتور " *(Cantor)* إلى أن هذه المعركة أظهرت أن بمقدور أية قبيلة جرمانية أن تهزم جيشاً رومانياً ، وكانت هذه الحقيقة المشئومة بمثابة جرس الموت للسلطة الرومانية .

وكان من حسن حظ الإمبراطورية أن يرتقى عرشها " ثيودوسيوس العظيم " (٣٧٨-٣٩٥م) الذى بعث الثقة فى قلوب جنده ، ورفع من روحهم المعنوية بعد كارثة أدريانوبل ، وبفضل مهارته وحكمته ودبلوماسيته ، أمكن تحويل القوط الغربيين بأن عقد معهم اتفاقية فى ٣ أ:توبر عام ٣٨٢م بعد مفاوضات دامت أربع سنين صاروا بمقتضاها معاهدين *(Foederati)* ومنحهم أرضاً لإقامتهم فى إقليمى مؤيسيا فضلاً عن منطقة بانونيا ، ومن الممكن القول أن تلك الاتفاقية كانت فى صالح الإمبراطورية ، ففضلاً عما أكدته من سلام فى أراضى الدانوب ، تعهد القوط الغربيون بتقديم عون حربى للإمبراطورية كل عام

توفى " ثيودوسيوس العظيم " فى ١٧ يناير سنة ٣٩٥م وهو فى سن الخمسين بعد أن استطاع – قدر جهده – الحفاظ على الإمبراطورية فى فترة من أحلك الفترات التى مرت بها ، ولذلك عرف فى التاريخ بأنه آخر الأباطرة الرومان العظام ، وبعد موته تغيرت الأوضاع فى الإمبراطورية بشكل لم تألفه من قبل ، ويتضح ذلك فى ازدياد شأن القواد الجرمان ، فبعد أن كانوا فى قبضة ذلك الإمبراطور العظيم ، صار بوسعهم التحكم فى مصائر الأباطرة ، كما أن الإمبراطورية قد قسمت بين ولديه ، فكان القسم الشرقى وعاصمته القسطنطينية من نصيب " أركاديوس " *(Arcadius)* (٣٩٥-٤٠٨) وهو شاب فى الثامنية عشرة من عمره ، والقسم الغربى وعاصمته رافتنا بشمال إيطالي من نصيب "

هونوريوس " *(Honorius)* (٣٩٥-٤٢٣) ، وهو شاب فى الحادية عشر من عمره ، ومن الملاحظ أن ولدى ثيودوسيوس أحاطت بكل منهما حاشية فاسدة ضعيفة افتقرت إلى الصفات التى تؤهلها لمواجهة متاعب الإمبراطورية ، أضف إلى ذلك أن الأخوين لم يعتمدا فى ممارسة نفوذهما على مهارتهما الشخصية ، بل سلما زمام أمورهما لشخصين جاوزتا الحد المتاح لهما ، فقد اعتمد هونوريوس فى الغرب على قائد وندالى قدير هو " ستليكو " *(Stilicho)* فى حين اعتمد أركاديوس فى الشرق على " روزفينوس " *(Rufinus)* وهو وزير قوطى عرف بالقسوة ، استطاع أن يجعل مقاليد الأمور فى يده ، وصاحب انقسام الإمبراطورية إلى شطرين تحول خطير فى فى السياسة الرومانية – الجرمانية ، ذلك أن أباطرة القسم الشرقى عمدوا إلى حل المشكلة الجرمانية على حساب القسم الغربى غافلين وحدة الإمبراطورية كأن لم يعد لها وجود ، مما جعل عام ٣٩٥م يمثل بداية الانهيار الرسمى للإمبراطورية فى الغرب ، ومن الآثار التى تمخضت عن انقسام الإمبراطورية ظهور فوارق فى التشريعات والقوانين ، بحيث صار كل قسم مختلفاً عن الآخر اختلافاً واضحاً ، ورغم ذلك لم يعترف المعاصرون بأى تقسيم رسمى فى الإمبراطورية ، إذا ظلت فى نظرهم تمثل وحدة لا ينفصم عراها .

وفى تلك ألثناء اختار القوط الغربيون " ألاريك " *(Alaric)* ملكاً عليهم وهو شاب فى العشرين من عمره من بيت " بالثى " *(Balthi)* القوطى العريق ، والذى معناه " الشجعان " ، وقد عمد " ألاريك " إلى الانخراط فى سلك الجيش الرومانى شأنه فى ذلك شأن الكثير من زعماء الجرمان ، أملاً فى الوصول إلى مركز هام فى الإمبراطورية ، ولكنه فشله فى تحقيق غايته جعله يخرج على شروط المعاهدين ويعادى الإمبراطورية . ويرى البعض أن ألاريك لم يكن فى نيته بادئ ذى بدء تدمير الإمبراطورية والقضاء على حضارتها ، أو تفتيت النفوذ الإمبراطورى فى أراضى الدانوب ، فكل ما كان يبتغيه هو الحصول على

أقـاليم خصـيبة واسـعة لشـعبه للإقامـة فيهـا ، وكـان مـن المحتمـل تجنـب الإمبراطورية المتاعب التى أحاطت بها ، والتى كان لها أثرها فى تحطيم نفوذها فى الجزء الغربى ، لو أن الإمبراطور الشرقى بادر بتحقيق طلباته المتواضعة ، ولكن الإمبراطور قصير النظر رفض الاستجابة لمطالبه فى عناد وإصرار ، الأمر الذى أثار ألاريك ودفعه بالتالى إلى محاربة الإمبراطورية . (٩)

خـرج ألاريـك مـن مؤيسـيا علـى راس قومـه متجهـاً إلـى القسـطنطينية مستهدفاً تحقيق أطماعه فنهب مقدونيا وتساليا فى طريقه ، ثم دخل بلاد اليونـان ، واخذ يحرق المدن ويسترق الأهالى حتى وصل أثينا فلم يتعرض لها بسوء بعد أن دفع الأهالى له مبلغاً ضخماً من المال ، ولكن مدناً أخرى عريقة مثل كورنثه وميجارات وأسبرطه لم تسلم من ا'لمال النهب والسلب ، وعندما وجد أركاديوس صاحب القسم الشرقى من الإمبراطورية نفسه فى موقف صعب لا يحسد عليه خرج روفينوس من القسطنطينية فى مارس سنة ٣٩٥م ، وأجرى مفاوضات مع الزعيم القوطى ، حصل الأخير بمقتضاها على مبلغ من المال فضلاً عهن تعيينه قائداً أعلى لجيوش إقليم إيلليريا . غير أن ذلك الإقليم لم يحقق الأطماع التى كانت تجيش فى صدر ألاريك من ناحية ، ولم يكن كل ما يأمله من القسطنطينية من ناحية أخرى ، ولذلك رأى أن يوجه أنظاره نحو الغرب لغزو إيطاليا سنة ٤٠٠ م فعبر جبال الألب فى العام التالى (٤٠١م) ، وواصل تقدمه بلا هوادة فى شمال إيطاليا حتى عسكر بقواته أمام ميلانو ، وعندئذ جمع هونوريوس صاحب القسم الغربى من الإمبراطورية كل قواته خشية وقوع إيطاليا فى أيدى ألاريك ، وزاد على ذلك أن أعاد تحصين أسوار روما توقعاً لأى هجوم يشن عليها ، ثم ما لبث أن استدعى القائد الرومانى ستليكو من الغال لإدارة العمليات الحربية ، واستطاع ذلك القائد مباغتة معسكر ألاريك بالقرب من " بولانزو " *(Pollamnzo)* أثناء انشغاله – مع قومه – بالاحتفال بعيد الفصح (١٩ مارس سنة ٤٠٢م) مما أدى إلى شل حركتهم وفقدانهم السيطرة على زمام

المعركة التى انتهت بهزيمة قاسية كبدتهم خسائر فادحة ، وفى العامل التالى (٤٠٣م) ألحق ستليكو بالقوط الغربيين هزيمة أخرى مماثلة فى موقعة " فيرونا " *(Virona)* فى شمال إيطاليا جعلت ألايك لا يستطيع الإلات من الهلاك إلا بفضل جواده السريع ، وكان بإمكان ستليكو أن يقضى على ألاريك آنذاك ، ولكنه لم يتعجل الأمر رغبة فى استخدامه ورقة رابحة فى يده ضد منافسيه فى بلاط أركاديوس ، وجرت بينهما مفاوضات انسحب ألاريك بموجبها من إيطاليا عائداً إلى إيلليريا بعد أن حصل على مبلغ ضخم من المال . والجدير بالذكر أن ستليكو كان الشخصية الوحيدة التى تستطيع إبعاد الخطر القوطى عن إيطاليا ولكنه كان فى الحقيقة مكروهاً وسط حاشية البلاط وموظفيه لأسباب عدة أهمها سيطرته على الإمبراطور سيطرة تامة وهو الجرمانى الأصل أريوسى المذهب ، ومن المحتمل أنه كان يحلم ببناء إمبراطورية يحكمها ابنه ، ولذلك دفعت الغيرة القاتلة رجال البلاط إلى التآمر عليه ، فأوغروا صدر الإمبراطور هونوريوس ضده ، وجعلوا الشكوك تساوره فى صحة إخلاصه مما أدى إلى استياء الإمبراطور من قائده ، وجرى اعتقاله بتهمة الخيانة سنة ٤٠٨م .

ولا جدال أن إعدام ستلايكو قد أزاح عقبة كأداء من طريق ألاريك فى الوقت الذى وجد هونوريوس نفسه وجهاً لوجه أمام الزعيم القوطى ضعيفاً عاجزاً ، تعوزه الشجاعة وروح القيادة ، لذلك لم يدع ألاريك الفرصة تفلت من يديه فدبر لغزو روما ، وكان ما قام به أن عبر جبال الألب ثم استولى على المدن التى اعترضت طريقه فى شبه الجزيرة الإيطالية مثل أكويليا وكونكورديا وكريمونا وغيرها ، حتى استطاع أن يضرب خيام معسكره تحت أسوار روما فى بداية عام ٤٠٩م ، وتلا ذلك أن فرض عليها حصاراً محكماً عنيفاً أدى إلى نقص الطعام والأقوات وموت الآلاف من سكانها ، ومما زاد من خطورة الموقف أن الإمبراطور العاجز لم يبد أية مقاومة وقتذاك ، بل فر إلى مدينة رافنا تاركاً المدينة العريقة نهباً لمصيرها فسقطت فى أيدى الزعيم البربرى فى ٢٤ أغسطس سنة ٤١٠م ،

وكان من الطبيعى أن يعترى الناس هول وفزع من جراء سقوط مدينتهم الخالدة ، وجرى اعتقادهم أن ما حدث لروما هو نذير بنهاية العالم والقضاء على حضارته وليس من السهل تصور الانطباع الذى تركه سقوط روما فى نفوس المعاصرين ، إذا راو فيه حدثاً لم تشهده الإمبراطورية الرومانية المتأخرة من قبل حنى أن القديس جيروم (حوالى ٣٤٠ – ٤٢٠م) بكى فى صومعته فى بيت لحم البعيدة قائلاً : " لقد انطفأ مصباح العالم وضاعت الإنسانية كلها بين حطام روما " . وكتب أيضاً : " لقد ارتبك عقلى وتشتت أفكارى حتى أننى نسيت نفسى فالمدينة التى امتلكت العالم وقعت نفسها فى الأسر " ، وترتب على سقوط روما فى أيدى أولئك البرابرة أن صارت فريسة للنهب والسب فأحرقت دور الأغنياء ودمرت الكنوز النادرة ، وما أكثر الأوانى الذهبية والذخائر والتحف التى حطمت ببلطة أثناء تقسيم الغنائم والأسلاب بين أولئك الغزاة ، وترتب على تلك الكارثة أيضاً أن تشتت السكان فلجأ الكثير منهم إلى الأماكن النائية المنعزلة طلباً للأمن . وعندما سار وفد من أهل المدينة إلى ألاريك ليسأله عن شروط الصلح وافق على الانسحاب إذا أعطى كل ما فى المدينة من ذهب وفضة ، ولما سأله أعضاء الوفد : " وأى شئ بعد هذا يبقى لنا ؟ " أجابهم فى ازدراء " حياتكم " . وجدير بالذكر أن ألاريك رغم أنه كان مسيحياً آريوسيا إلا أنه احترم الكنائس الكاثوليكية ، فلم يتعرض لها بسوء ولم يمس آثارها وكنوزها ، وعلى أية حال تعتبر هذه المرة هى الأولى التى دخل فيها البرابرة مدينة روما منذ أن خرجت على أيدى هانيبال عام ٢١٦ قبل الميلاد .

ترك ألاريك روما بعد أن نهبها برابرته القساة ثلاثة أيام صارت خلالها خرباً موحشاً خالية من ثرواته وكنوزها ، على أن سقوطها فى الواقع لم يعط ألاريك أية ميزة حقيقية ، وبعبارة أخرى لم تحقق أحلامه التى ستعى إليها فى روما أو إيلليريا من قبل ، ففى هاتين المدينتين لم يجد المأوى والاستقرار المنشود لشعبه ، ويبدوا أنه أدرك ذلك تماماً بدليل أنه قرر الجلاء عن روما

والتوجه إلى إفريقية بهدف التحكم فى ذلك الإقليم الغنى بالقمح والعمل على منع إيطاليا من الحصول عليه ، وكان أن زحف على رأس قومه ساعياً إلى هدفه بحماس لا فتر حتى بلغ الطرف الجنوبى من غيطاليا وعندما ركب البحر إلى صقلية هبت عاصفة هوجاء حطمت أسطوله وأعقب ذلك أن توفى فجأة قبل نهاية عام ٤١٠م فى أبوليا بالقرب من " كوتسنزا " ***(Cosenza)*** ولم يرغب القوط الغربيون فى دفن زعيمهم فى مقبرة شأنه شأن بقية الناس ولكنهم اعتزموا أن يعطوا جنازته ومراسيم دفنه أنشودة ملحمية فقاموا بتحويل مجرى نهر " بوزنتو "***(Busento)*** وهو نهر صغير فى كالابريا وأقاموا ضريحه فى قاع النهر الذى خلا من المياه ودفنوا معه كنوزه وغنائمه ، ثم أعيد النهر إلى مجراه الأصلى ، وحتى لا يعرف مكانه قام القوط بقتل العبيد الذين كلفوا بأعمال الحفر حتى يظل قبره سراً غامضاً إلى الأبد .

بعد وفاة ألاريك اختار القوط الغربيون " أثولف " ***(Athaulf)*** ملكاً عليهم ويقال أنه فكر فى الإطاحة بالإمبراطورية الرومانية وإقامة إمبراطورية قوطية على أنقاضها ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن تلك الرغبة بعد أن تبين له أن القوط الغربيون لا يصلحون ورثة للرومان لما عرف عنهم من ضيق بالقوانين وعدم الخضوع لها ، كما أنه رأى الاستحالة على جرمانى أن ينتزع التاج الإمبراطورى ولقب الإمبراطور الرومانى ، وكان أن عول فى نهاية الأمر على وضع قواته وشعبه فى خدمة الإمبراطورية متخذاً لنفسه لقب " باعث مجد الإمبراطورية الرومانية " ***(Restitutor Orbis Romani)*** وفى نفس الوقت استقر رايه على اتخاذ إقليم الغال وطناً لقومه ، وما لبث أن قادهم إلى شمال إيطاليا ثم عبر بهم جبال الألب إلى جنوب بلاد الغال ، حيث صار سيداً لمعظم تلك المنطقة قبل نهاية عام ٤١٣م بعد أن بسط سيطرته على مدينة هامة مثل بلنسية وبوردون وناربون وتولوز التى صارت عاصمة للقوط الغربيين فيما بعد .

وفـى العـام التـالى (٤١٤م) عقـد أثولـف قرانـه علـى أخـت الإمبراطـور الأميرة " جـالا بلاسيديا " *(Galla Placidia)* فـى نـاربون ، وكانـت تلك الأميرة التـى تشـع مرحـاً وذكـاء وحيويـة ، قـد وقعت أسيرة فـى يـده بعد سقوط رومـا ، وعاملـها معاملـة طيبـة جعلتها تقـع فـى حبـه وتقبـل الـزواج بيد أن قنسطنطيوس قائد الجيش الرومـانى الـذى خلف ستليكو أعلن معارضته لأنـه كـان يـود الـزواج مـن بلاسيديا ، وزاد مـن حقـده مـا لمسـه مـن حـرص أثولـف علـى تأكيـد نفـوذه وسيطرته فـى إقليم الغـال ، ومـن جراء ذلك خرج قنسطنطيوس علـى رأس جيش ضخم متوجهاً لإقليم الغال لمنـع أثولف من تحقي مآربـه فـى الوقت الـذى أرسل فيه أسطولاً ضخماً استطاع منع وصل المؤن إلى الموانى الغاليـة ، ولذلك عنـدما ضـاق الخنـاق علـى القوط وظهر شبح المجاعـة فـى الأفق اضطر اثولـف إلـى التحـرك مـرة أخـرى باحثـاً لقومـه عـن مـوطن آخـر فعبـر بهـم جبـال البـرانس (البرينيه) إلى أسبانيا .

لم يعش أثولف طويلاً بعد ذلك غذ اغتيل علـى يد أحد خدمـه فـى مدينـة برشـــلونة فـــى أغســـطس ســـنة ٤١٥م ، واختـــار القـــوط الغربيـــون " سـيجريك " *(Sigeric)* خلفـاً لـه فاسـتهل حكمـه بقتـل أولاد أثولـف ، وإلحـاق الأذى بالأرملـة الشـابة جـالا بلاسيديا ، مـن ذلـك أنـه أجبرهـا علـى السير بجوار فرسه مسافة اثنتى عشرة ميلاً ولذلك لم ينعم طويلاً بالحكم فقد جرى قتلـه بعد أســـبوع واحـــد مـــن توليتـــه العـــرش علـــى يـــد زعـــيم اســـمه " واليا " *(Wallia)* واستطاع ذلك الزعيم أن يحصل لشعبه بالطرق الدبلوماسية ما فشل سابقوه من ملوك القوط فى الحصول عليـه بالحرب والعداء ، وممـا يدل على ذلك أنه عقد اتفاقيـة سلام مـع الرومـان فـى عام ٤١٨م ، وافقوا بمقتضـاها على استقرار القوط الغربيين فى إقليم أكوتين (اكويتانيا) وهو يشمل المنطقة التى تضمها فرنسا الحديثة جنوب نهر اللوار ، وقد عرفت تلك المنطقة بالمملكة التولوزية بعد أن اتخذ القوط الغربيون من تولوز عاصمة لمملكتهم التى تمتعت

بالاستقلال الذاتى فى ظل الإمبراطورية . كما وافقت الإمبراطورية أيضاً على مدهم بالقمح ، وفى المقابل وافق القوط الغربيون على أن يكون معاهدين (محالفين) للإمبراطورية وأن ينهضوا بتطهير أسبانيا من جموع الوندال والآلان والسويفى لصالح الإمبراطورية ، أما الأميرة جالا بلاسيديا فقد وافق القوط الغربيون على إرجاعها إلى إيطاليا ، وهناك أجبرت على الزواج من قنسطنطيوس رغم بغضها له .

وبعد وفاة واليا فى عام ٤١٩م انتخب القوط الغربيون " ثيودريك الأول " *(Theoderic-I)* ملكاً عليهم ، وإبان عهده ظهر خطر الهون بزعامة اتيلا مكتسحاً فى طريقه صوب الغرب البلاد والمدن ومخلفاً وراءه الدمار والخراب ، وعندما وصل أتيلا منطقة " أورليان " *(Orleans)* كان يأمل أن يقف القوط الغربيون فى صفه ضد القوات الرومانية ، ولكن ثيودريك آثر الانضمام إلى القوات الرومانية وحلفائها مما أدى إلى رجحان كفة الرومان فى المعركة التى دارت رحاها بالقرب من شالون سنة ٤٥١م ، وفيها لقى ثيودريك حتفه كما ذكرنا من قبل ولم تنقض بضع سنوات حتى صار " إيوريك " *(Euric)* ملكاً على القوط الغربيين فى عام ٤٦٦م ، وعلى عهده بلغت مملكة القوط الغربيين ذروتها فى القوة والنفوذ ، فقد ازدادت أراضيها اتساعاً لم تشهده من قبل وبمعنى آخر نجح القوط الغربيون فى توطيد سيادتهم فى الغال وأسبانيا بحيث صارت فى حوزتهم المنطقة الممتدة بين المحيط الأطلسى وجبال الألب ومن مضيق جبل طارق حتى أكوتين فيما عدا إقليم جليقية – فى الركن الشمالى الغربى من أسبانيا – الذى سيطرت عليه قبائل السويفى الجرمانية .

على أن مملكة القوط الغربيين ما لبثت أن تمزقت بعد وفاة ملكها إيوريك سنة ٤٨٥م لأن خلفاءه كانوا يفتقرون إلى المقدرة والكفاءة التى تميز بها ، ولا يغيب عن الباب أيضاً أن آريوسية القوط الغربيين كانت حجر الزاوية

فى انهيار مملكتهم وتمزقها ، فالغالبية العظمى من رعاياهم فى إقليم الغال كانت على المذهب الكاثوليكى المناهض للآريوسية ، وإذا تصورنا مدى الكراهية التى تبادلها أَنار المذهبين لأدركنا أنه كان من المستحيل على أى ملك قوطى أن يحوز رضاء أتباع يعتبرونه هرطقياً فى نظرهم . (١٠)

الوندال : *Vandals*

الواندال من الشعوب الجرمانية الشرقية شأنها فى ذلك شأن البرجنديين ، وقد غادروا ساحل بحر البلطيق فى وقت سابق لتحرك القوط ، ومع حلول القرن الأول الميلادى نجدهم وقد نزلوا فى سيليزيا وبوهيما ، وعلى أثر الاضطرابات التى أثارتها حرب الماركومانى *(Marcomani)* (بوهيما) حوالى ١٦٦م تعرضت هذه الأقوام للتفرق والتشتت فتحرك إلى هنغاريا شعب الوندال الأسدنجيين *(Asdings)* الذى اشتق اسمه على ما يبدو من اسم البيت المالك فيه ، أما الواندال السلينجيون *(Silings)* فقد بقوا فى سيليزيا الذى يبدو أن اسمها جاء تحريفاً للامس " سيلينجيا " *(Siliningia)* وبعدما يقرب من مائة عام هاجر عدد منهم إلى الحوض الأوسط لنهر المين ، وأصاب الوندال الأسدنجيين الضعف فترة من الزمان بسبب صراعهم مع القوط ، وفى نهاية القرن الرابع الميلادى أدركوا أن الأرض التى يعيشون عليها عند نهر ثيس *(Theiss)* لا تفى باحتياجاتهم ، لذلك غادرها عدد كبير منهم تحت قيادة ملكهم جوديجسيل *(Godigisel)* وانضموا إلى الآلان الذين فروا من أمام الهون وعبروا نهر الدانوب الأعلى حيث توقفوا هناك ، وظلوا مدة خمسة سنوات داخل الإمبراطورية بوصفهم معاهدين ، وحدث فى عام ٤٠٦م أن تغيرت الأوضاع حين اضطرت الإمبراطورية لسحب قواتها من حدود نهر الراين لتوجه خطر القوط الغربيين ، وكان فى ذلك فرصة للوندال الأسدنجيين والآلان الذين عبروا الراين وازدادوا عدداً بفضل ما انضم إليهم من السويفى والوندال السيلينجيين فى أواخر العام نفسه (٤٠٦م) .

وعاثت جموعهم المتناثرة من الفرسان فى الجانب الأكبر من فرنسا فساداً وتدميراً طوال السنتين التاليتين دون أن تواجه أية مقاومة منظمة ، باستثناء مدينة تولوز *(Toulouse)* التى قاومت هجماتهم بفضل أسقف المدينة تالذى استبسل فى الدفاع عنها ، ولكن هذا التخريب ما لبث أن توقف عندما عبر الوندال وحلفاؤهم جبال البرانس ونزلوا بأسبانيا حيث عاثوا فى الأرض فساداً لمدة سنتين أخريتين ، ولم يتوقف هذا الفساد إلا عندما تدخلت روما وعقدت فى عام ٤١٠ تسوية مؤقتة نزل بموجبها الوندال الأسدنجيون والسويفى فى جاليسيا *(Galicia)* والوندال السيلينجيون فى اندلوسيا *(Andalusia)* على حين استقر الآلان فى البرتغال وشمال شرق أسبانيا ، ورغم ذلك فإن روما لم تنس سياستها القديمة وهى سياسة (فرق تسد) وعهدت إلى واليا ملك القوط فى عام ٤١٦م بمهاجمة الوندال فى أسبانيا ، وكانت تهدف من وراء ذلك أن يهلك الطرفين ، وقد نجح واليا فى مهمته نجاحاً بارهاً وسحق الوندال السيلينجيين سحقاً ، واضطر بقايا الآلان أن تندمج فى الوندال الأسدنجيين ، ولما أحست روما بأن القوط الغربيين أصبحوا قوة أكثر مما ينبغى استدعتهم من أسبانيا ومنحتهم الأراضى فى أكويتين ، وفى الوقت نفسه لجأت روما إلى السويفى لضرب الوندال والآلان ، ونجحت عناصر السويفى فى مهمتها ودفعوا بالوندال والآلان إلى جنوب أسبانيا حيث أعادوا جمع شملهم مرة أخرى وصدوا جنود الرومان ، كما نجحوا أيضاً فى إسقاط المدن الساحلية الحصينة بفضل ضرباتهم القوية التى انهالت على المدن من البر والبحر حتى سقطت أشبيلية *(Seville)* وقرطاجنة *(Cartagena)* ونهبوها .

وفى عام ٤٢٨م أصبح جيسريك *(Gaiseric)* ملكاً على الوندال ويعتبر جيسريك ٤٢٨ – ٤٧٧م من أعظم شخصيات عصره ، فقد كان سياسياً بارعاً فاق كل زعماء البرابرة عدا ثيودريك وكلوفس ، فضلاً عن كونه محارباً شجاعاً لا يجد الخوف إلى قلبه سبيلاً ، فهو الذى أدار دفة غزو إفريقية ، فقد

كان الساحل الإفريقى غير مستقر الأحوال حيث كانت الثورة قائمة بين سكان البربر *(Moorish)* ، يضاف إلى هذه الثورة ما أضافه المذهب الدوناتى المسيحى من انشقاق ، هذا فى الوقت الذى لم يكن لدى القائد الرومانى بونيفاس *(Bonifzce)* القوات الكافية لصد أى غزو عليه . (١١)

أما عن أسباب غزو الوندال للساحل الإفريقى فيرى البعض أن القائد الرومانى بونيفاس استدعى الوندال بعدما استبدت به الغيرة من ايتيوس وهو قائد رومانى أيضاً قربته الإمبراطورة جالا بلاسديا إليها ولكن بونيفاس ندم على استدعاء الوندال وحاربهم .

وعلى أية حال قاد جسيريك فى عام ٤٢٩م الوندال وكان عددهم حوالى ثمانين ألفاً وعبر مضيق عمودى هرقل (جبل طارق) ونزلوا بالساحل الشمالى الإفريقى وتحالفوا مع قبائل البربر وهزموا القائد الرومانى بونيفاس فى معركة ضارية وحصاروه فى مدينة هيبو *(Hippo)* الساحلية أربعة عشر شهراً ورفض القديس أوغسطين الذى كان أسقفاً لتلك المدينة أن يغادرها وألهب شجاعة سكانها بعظاته وأنقذته وفاته فى عام ٤٣٠م من أن يكون شاهد عيان لهزيمة جديدة تلحق بالقائد الرومانى بونيفاس ، وأخيراً سقطت مدينة هيبو واضطر الرومان إلى التخلى عن الساحل الإفريقى عام ٤٣١م ، وبعد أربع سنوات (٤٣٥م) اعترف الإمبراطور فالنتنيان بموجب معاهدة بقيام مملكة الوندال ، وكانت هذه هى الدولة الثالثة التى يؤسسها البرابرة ولم يقدر لها أن تعمر طويلاً .

وعلى أية حال فقد كان لمؤسسها بعض الأفكار الجيدة وظهرت عبقريته فى الإفادة مم مميزات وضعه الجديد فاستولى على قرطاج فى عام ٤٣٩م ، وحاول بعث القوة البحرية التى كانت هذه المدجن قاعدتها وبنى الوندال السفن وشيدوا قوة بحرية واستولوا على جزر كورسيكا وسردينيا وجزر البابار ، واخذوا

يغيرون على سواحل تسكانيا وبحر إيجة ، وبعبارة أخرى أخذ جيسيرك يتحدى القسطنطينية كما فعل مع روما وأًبح سيد البحر المتوسط .

ونتيجة الغزو الوندالى للساحل الإفريقى فقدت الإمبراطورية الرومانية جزءاً هاماً من أراضيها كان يمدها بالغلال فضلاً عن ضياع الجزية ، والمهم أن دولة الوندال قد نمت وزادت قوتها خاصة بعد بناء البحرية الوندالية ، ولكن الوندال عاشوا غريباً فى هذه المنطقة لاعتناقهم المذهب الاريوسى المخالف لمذهب أهل المنطقة الذين دانوا بالمذهب الاثناسيوسى الذى دانت به روما والمذهب الدوناتى الذى دان به جانب من سكان الشمال الإفريقى .

وجاءت الفرصة للوندال لضرب روما عام ٤٥٥م وترجع هذه الأحداث إلى مصر الإمبراطور فالنتنيان الثالث على يد أحد أعضاء مجلس الشيوخ ويدعى بترونيوس *(Petronius)* الذى أجبر الإمبراطورة الأرملة يودوكسيا *(Eudoxia)* على الزواج منه ، فسرعان ما طلبت يودوكسيا مساعدة الوندال فتحرك الوندال عبر البحر لمساعدتها وحاصروا روما ، ولم تنجح محاولات البابا ليو الأول *(Leo-I)* (٤٤٠-٤٦١م) فى إنقاذ المدينة وأبيحت روما للنهب لمدة أربعة عشر يوماً بطريقة بربرية أصبح معها اسم الوندالية *(Vandilism)* يطلق على كل تخريب يتم فيه التدمير لإشباع رغبة التدمير فقط ، وقد حكم جيسريك البحر المتوسط بعد ذلك عشرين عاماً متحدياً الإمبراطوريتين ومات فى عام ٤٧٧م وماتت معه عظمة شعبه ، لأن مملكة الوندال قد مزقتها الخلافات الدينية وثورات البربر ، وأخيراً سقطت على يد القائد البيزنطيى بلزاريوس *(Belissarius)* فى عهد الإمبراطور ستينان الأول عام ٥٣٤م . [١٢]

البرجنديون : *Burgundians*

كان البيت البرجندى الحاكم قد أزيل ، فى اثر هزيمة البرجندين القاسية على أيدى الهون سنة ٤٣٦ ، وتولى الحكم بيت آخر جديد لعب أفراده دوراً بارزاً فى تاريخ المملكة البرجندية قرب منتصف القرن الخامس الميلادى ، وكان

البرجنديون قد استقروا فى سابوديا *(Sapaudia)* فى سنة ٤٤٣ بموافقة القائد إيتيوس ، وقووا مركزهم بقيادة ملكهم جونجوك *(Gunhok)* وكان أحد أفراد القبيلة الملكية القديمة ، وأخذوا فى التوسع فيما حولهم فى ذلك الوقت وسلكوا فى سبيل الحفاظ على مملكتهم طريق القوة حيناً والدهاء أحياناً أخرى ، فقد شارك البرجنديون القائد إيتسو جهوده فى صد الهون حينما تطرقوا إلى غالة سنة ٤٥١ ، وافادوا من هذه المشاركة فحصلوا على سلام امتد سنوات حتى وفاة القائد إيتيوس والإمبراطور فالنشيان الثالث سنة ٤٥٥م ، وفى سنة ٤٥٦ دخلوا فى خدمة الإمبراطورية فى غالة ، وقاموا بحملة عسكرية فى أسبانيا ضد السويفيين بقيادة ملوكهم من الأسرة الجدية وقد كانوا محالفين للإمبراطورية داخلين فى طاعتها .

ويبدو أن البرجنديين انتهزوا فرصة ذلك التحالف لمد نفوذهم فى الجهات المجاورة ، فأخذوا فى التوسع فيما وراء مضاربهم بجنوب شرق غالة إلى أن وصل الإمبراطور ماجوريان إلى غالة لمحاولة إعادة السلطة الرومانية فيها ، فعاد البرجنديون من جديد إلى حدود الطاعة ، وبعد وفاة هذا الإمبراطور سنة ٤٦١م زالت العقبات من طريق توسعهم فاستولوا على ليون *(Lyone)* ، ثم على فيين *(Vienne)* ثم داى *(Die)* ثم فيفارى *(Vivaris)* ، فيما بين سنتى ٤٦١ ، ٤٢٠م . لكنهم لم يستطيعوا الانتشار فى بروفنس *(Provenace)* ، وفيما وراء جبال الألب بسبب وجود آلايك القوطى الغربى ، فقد كان يتحكم حينذاك فى مداخل نهر الرون والساحل البروفنسالى ، وفى السنة الأخيرة من حياة جونجوك عين ابنه جندوباد *(Gundobad)* حاكماً فى إيطاليا عقب وفاة ريسمير *(Ricimer)* وعند وفاة جونجوك سنة ٤٧٣ احتل أبناؤه الثلاثة : جندوباد وجودجزل وشلبريك مكان الصدارة وقيادة الأسرة المالك الجديدة .

كان جندوباد (٤٨٠ –٥١٦) قد عين حاكماً رومانياً على يد الإمبراطور الغربى أولبريوس *(Plybruis)* وذلك قبل أن يصبح جندوباد ملكاً على البرجنديين ويحكم المنطقة الممتدة من سهول شمبانيا *(Champagne)* إلى الديورنس *(Durance)* ويبدو أنه باعتلاء الإمبراطور جليكريوس *(Glycarius)* ثم جوليوس نبوس *(Nepes)* عرش الإمبراطورية الغربية ، فضل هذا البرجندى العودة إلى غالة فعاد إلى وادى نهر الرون ، حيث أرسى البرجنديون دعائم مملكتهم فى تلك الجهات . واحتل جندوباد وادى نهر الساءون الأوسط والأعلى حتى منابعهما ، وتشير بعض الروايات إلى أن جندوباد لجأ إلى قتل أخيه شلبريك لينفرد بالسلطة فى المملكة ، ويمد نفوذه إلى ساحل البحر المتوسط ، غير أن الصراع بينه وبين أخيه الآخر جودجزل *(Godegisel)* قد تأجل لفترة أخرى . وحكم جندوباد من أفينون حتى بيسانسون *(Besancon)* ولانجر *(Langer)* وحاول أن يثبت أقدام البرجنديون فى مواقعهم الجديدة ، ويؤكد استقلال مملكتهم الناشئة ، ولاسيما بعد أن غزا الفرنجة غالة ، لكن يبدو أن البرجنديين كانوا أكثر تفوقاً فى امتدادهم جهة الشرق والشمال ، فقد نجحوا فى إزاحة الألمانى عن تلك الجهات والحلول محلهم ، وفى سنة ٤٩١ حاول جندوباد أن يدلى بدلوه فى الأحداث الجارية بإيطاليا ويمد يد المساعدة لأدوآكر ضد ثيودريك ملك القوط الشرقيين ، وعبر فعلاً جبال الألب إلى إيطاليا ، لكنه ما لبث أن سحب قواته وعاد إلى بلاده مسرعاً ، ربما خوفاً من هجوم القوط الغربيين على مملكته وتأكده من ضعف وحرج موقف أودآكر فى إيطاليا ، ثم تلا ذلك مصاهرة سياسية بين البيت الحاكم البرجندى وثيودريك العظيم بإيطاليا ، فقد تزوج سجسموند *(Sigismund)* – ابن جندوباد ووارثه – إحدى ابنتى ثيودريك العظيم غير الشرعيتين ، وتزوج القوطى الغربى الابنة الثانية ، وفى نهاية القرن الخامس كانت مملكة البرجنديين تمتد من ديورانس فى الجنوب إلى مشارف شمبانيا فى الشمال ،

ومـن سـفينى *(Cevenne)* إلـى ريـوس *(Reusse)* وأقـام ملـوكهم فـى ليـون وفيـين *(Vienne)* وجنيفـا *(Jeneva)* وبسانسـون وبصـفة خاصـة فـى جنيفـا وليون . (١٣)

ولقد عانت الكنيسة الكاثوليكية كثيراً فى أيدى البرجنديين الأريوسيين ، ولهذا أظهرت الفرح حين أندلع التنافس والصراع بين أفراد البيت البرجندى ، فى حين كلن الفرنجة يرقبون ما يجرى فى برجنديا بحذر وترقب ، ولاسيما بعد اعتناق كلوفس الكاثوليكية وتحفزه ضد الأريوسيين فى غالة فضلاً عما أبداه رعايا البرجنديين من تجاوب مع ما كان يجرى فى بقية غالة على أيدى الفرنجة ، وكانت زوجة كلوفس ابنة شلبريك البرجندى ، تحقد على جندوباد (عمها) لما فعلـه بوالـدها وإخواتهـا ، فحفـزت زوجهـا علـى العمـل ضـد ملـك برجنـديا الطاغيـة ، وإذا أضـفنا إلـى ذلـك قيـام الأخ الآخـر لجنـدوباد (جـودجزل) بطلـب معونة كلوفس ، أدركنا خطورة الأوضاع داخل مملكة البرجنديين .

فلقد واجه جندوباد مصاعب جمة من قبل كلوفس ، الذى أحزانه أن يجد ممالك أريوسية فى غالة ، فشرع فى محاولة تصفية المملكة البرجندية وذلك فى السنة الأخيرة من القرن الخامس الميلادى (٥٠٠م) وهيأ لـه النزاع الذى اندلع بين جندوباد وأخيه الأصغر جودجزل فرصة مواتية للتدخل ، فقد اتفقا سرياً مع الأخ الثائر لمدة بالمساعدة ، على أن يتم تقسيم المملكة بينهما بعد ذلك ، وجرى الاتفاق على أن يقوم الأخ المتآمر بإشعال نار الفتنة فى هلفتيا *(Helevetia)* حيث يوجد إقطاعه وأعوانه الإقطاعيين ، فى حين يقوم ملك الفرنجة بمهاجمة جندوباد فى وادى نهر الساءون ، ولقد نجح كلوفس فعلاً فى إلحاق الهزيمة بجندوباد فى ديجون *(Dijon)* وطرده منها ومن ليون وفالنس *(Valence)* فلجأ جندوباد فى النهاية إلى أفينون وهى قلعة فى أقصى الجنوب من مملكته ، بينما نصب أخوة الثائر ملكاً بمساعدة كلوفس ، ليصبح فصلاً *(Vassal)* من أفصال هذا الملك ، ثم زحف كلوفس ليحاصر جندوباد فى

أفينون ، ولكنه فشل فى اقتحام المدينة واضطر إلى الارتداد عنها ، وفى العام التالى (٥٠١م) ، نجح جندوباد فى استعادة كل ما فقده من أملاك ، وقبض على أخيه الثائر وأعدمه وطرد بقايا الفرنجة خارج برجنديا دون تدخل من كلوفس ، ويبدو أن كلوفس اضطر إزاء هذه الأحداث ونظراً لانشغاله بمحاولة تحقيق حلمه الآخر بقذف القوط الغربيين خارج غالة ، إلى إقامة سلام مع جندوباد ، ثم أتى جندوباد عملاً كبيراً بإعلان اعتناقه للكاثوليكية ، فساعد على تدعيم السلام مع كلوفس من ناحية واكتساب مرضاة الأهالى والكنيسة الغربية من ناحية أخرلاى ، ولعل هذه الخطوة هى التى مهدت السبيل لإقامة تحالف بينه وبين كلوفس للقضاء على مملكة القوط الغربيين الأريوسية ، ونجح كلوفس فى إنزال هزيمة كبيرة بالقوط الغربيين فى فوييه سنة ٥٠٧ – كما سبق الإشارة – وقتل ملكهم آلاريك الثانى ، وتدفقت جيوش الحلفاء من الفرنجة والبرجنديين لمحاصرة مدينة آل واستوالى جندوباد على ناربون ، وعلى أثر مقتل آلاريك نصب الطفل أملريك ملكاً على القوط الغربيين ، وكان هذا الطفل حفيداً لثيودريك العظيم ، فتحرك هذا للحفاظ على مملكة حفيده ، وأعلن الحرب على كل من جندوباد وكلوفس ، وأرسل جيوشه عبر جبال الألب لتدافع عن المملكة القوطية الغربية ، وعبر أحد جيوشه جبال الألب وانقض على برجنديا ، ودخل جيش آخر بروفنس ، وضرب الحلفاء المحاصرين لمدينة آرل ، ونجح ثيودريك العظيم فى استعادة كل مناطق غالة الواقعة جنوب الديورانس والسفينى ***(Cevennes)*** سنة ٥٠٩م ، حتى إن غزو كلوفس اقتصر بذلك على إقليم إكوتين ، وبعد ذلك توفى كلوفس سنة ٥١١م وساد السلام فى تلك المنطقة فترة قبل أن تتبدل الظرف من جديد وتسنح الفرصة لثيودريك التدخل فى غالة . [١٤]

أما عن علاقة جندوباد بالإمبراطورية الشرقية فيبدو أنها كانت علاقة طيبة تميزت بولاء هذا الملك للإمبراطورية ، وحرصه على الفوز بألقاب التشريف التى كانت تخلعها الإمبراطورية على ملوك الجرمان المحالفين فى ذلك الوقت ،

أما بالنسبة لأعمال جندوباد الداخلية ، فقد أَدر بعض القوانين الهامة ، وأظهر حماساً شديداً لإصلاح النظم الحكومية فى مملكته وتنظيم العلاقات مع الكاثوليك ونجح فى ذلك إلى حد بعيد ، وامتلأ بلاط البرجنديين بالشعراء والأدباء والمبرزين فى الناحية الفكرية والثقافية وأظهر الملوك البرجنديين حصراً على رعاية العلوم والفنون والآداب وتقريب النابهين فى الحياة العلمية والأدبية .

اعتلى سجسموند *(Sigismund)* عرش المملكة البرجندية بعد والده جندوباد (٥١٦-٥٢٣) ، وكان سجسموند زوجاً لأبنه ثيودريك العظيم ، ويبدو أنه لذلك اطمأن من جهة صهره واتجه إلى الاستمرار فى سياسة والده تجاه الإمبراطورية الشرقية فكتب إلى الإمبراطور أنستاسيوس يقول له : " لقد حافظ أسلافى على ولائهم للإمبراطورية ولم يكن أشرف عندهم من الألقاب التى خلعتموها عليهم ، ولقد التمس أفراد عائلتى دائماً ألقاب التشريف من الأباطرة ، لأنها أشفت عليهم مجداً أعظم مما ورثوه من آبائهم وأجدادهم ، ثم أضاف هذا الملك " عند وفاة والدى الذى كان كثير الولاء للإمبراطور ، أرسلت لكم أحد مستشارى ليعرض عليكم ، وتحت رعايتكم عروضى فى الولاء والخدمة ، فشعبى فى حوزتكم ن وإننى لأقوم بحكمة فى طاعتكم ، وإنى لأجد فى تلك الطاعة من الحبور والسعادة ، أكثر مما أجد فى القيام بحكم هذا الشعب ، وربما أظهر بمظهر الملك بين هذا الشعب ، ولكننى لست إلا جندياً من جنودكم ، وإننى لأنتظر منكم الأوامر التى تتفضلون بإصدارها إلىّ " .

والواقع أن الإمبراطور الشرقية نظرت لمملكة البرجنديين باعتبارها حليفة للشـــعب الرومـــانى ، لمـــا ا؟هـــره كـــل مـــن جنـــدوباد وابنه سجسموند من آيات الطاعة والولاء ، كما قرر ذلك جوردان *(Jordanes)*

وعلى الرغم مما يدو فى هذا الكلام من تعقل ، فقد كان سيسموند طاغية من الدرجة الأولى ، وكان متشككاً وكئيباً ، وكان قد تزوج ابنه ثيودريك العظيم – كما سبقت الإشارة – لكنه ما لبث أن أقدم على ارتكاب جريمة جلبت

عليه غضب ملك القوط الشرقيين وأحنق عليه كثير من المعاصرين ، وذلك أنـه قـام بقتـل ولـده وولـى عهـد سـجريك *(Sigeric)* الـذى كـان حفيـداً لثيودريـك ، فاستبد الغضب بهذا وشرع فى معاقبـة هذا الطاغيـة الأحمق ، فعقد محالفـة مـع الفرنجـة ، وقـام بمهاجمـة برجنـديا واسـتولى علـى بعـض أراضـيها فيمـا بـين الـــــــديورانس والـــــــــدروم *(Dromc)* بمــــــــا فيهـــــــا مـــدن أفينيـــون وأورانـــج *(Orange)* وففييـــر *(Viviers)* حتـــى بلـــغ المـــد القـوطى الشـرق أقصـى مـداه فـى الناحيـة الشـمالية الغربيـة وتعرض سجسـموند أيضـــاً للهجـــوم مـــن جانـــب ملـــوك الفرنجـــة فـــأذاقوه الهزيمـــة والـــردى ، فقـــد هاجمـــه كـــل مـــن شـــلدبرت *(Childerbart)* وكلـــودومير *(Chlodomer)* سـنة ٥٢٣ ، وانـزلاً بـه هزيمـة قاسـية وأخـذاه أسـيراً وقـذفا بـه وبزوجتـه وابنـه فـى بئـر ، وبـدا وكـأن مملكـة البرجنـديين علـى وشـك الضـياع والاختفاء من غالـة ولقى سجسموند ما أنزله من جرم فى حق ابنـه وولـى عهده ومرح الفرنجة فى برجنديا فى محاولة لمحو المملكة البرجندية نهائياً .

تسلم جنـدومار *(Gundomer)* الحكـم البرجنـدى (٥٢٣-٥٣٢) تركـة مثقلة بالهموم والمتاعب بعد أن هزم الفرنجة أخاه سجسموند وقتلوه سنة ٥٢٣م ، وكـان علـى هـذا الملـك الجديـد أن يتصـدى لهـم ويحـاول مـنعهم مـن تصـفية المملكـة ، ومـن حسـن حظـه أن نجـح فـى هـذا إلـى حد بعيـد وأسعده الحظ سنة ٥٢٤ بإلحاق الهزيمة بالفرنجة فى موقعة فيزرونس *(Vesorence)* فـى معركـة قتل فيها أحد ملوك الفرنجة وهو كلودومير ملك أورليان ، وساعد جنـدومار علـى التقاط أنفاسه شيئاً ما ، أن أخوة الملك المقتول توقفوا عن متابعـة الحـرب فتـرة ريثمـا يتمكنـوا مـن تقسـيم ونـهب مملكـة الأخ الراحل ، ولاسيما أن هـذا الأخـر لـم يترك سوى بعض الأبناء الصغار ، ولهذا اجتاح كل من شلدبيرت وكلوثير أراضيه علـى نـهر اللوار غير أم جندومار عاد ليواجه المتاعب من جديد من قبـل الفرنجـة بعد ذلـك بسنوات قليلـة ، وإذ اسـتأنف شـلدبيرت محاولـة غـزو برجنـديا وتصـفية

أملاك جندومار بها ، مستعيناً فى ذلك بأخيه كلوثير الذى قاد جيشه والتحق به سنة ٥٣٢ ، وهكذا اتحدت قوات ملكى باريس وسواسون لتحقيق هذا المشروع وسارا معها صاعدين فى وادى اليون *(Yenne)* حيث ألقيا الحصار على أتون *(Sutun)* ، وحينما تصدى لهم جندومار محاولاً تخليص أوتون تعرض لهزيمة ساحقة فر على أثرها إلى إيطاليا متخلياً عن مملكته ، وما لبث الفرنجة أن أخذوا يستولون على مدينة تلو مدينة فى برجنديا ليصلوا بفتوحاتهم إلى حدود المملكة البرجندية مع القوط الشرقيين على جبال الألب والدروم ، وليصبحوا سادة غالة كلها تقريباً ومن بينها برجنديا ، ويعدوا العدة لإرسال حملة جدية عند جيرانهم ولاسيما القوط الغربيين .

وهكذا انتهت مملكة البرجنديين بجنوب شرق غالة فى نهاية الثلث الأول من القرن السادس الميلادى ولاشك أنها كانت مملكة ضعيفة لم تستطع الثبات أمام أخطار العصر ، أو التصدى لأطماع جيرانها ، فإذا كان جندوباد قد كفل لها الاستمرار فترة بتحوله إلى الكاثوليكية وتحالفه مع كلوفس وولائه للإمبراطورية الشرقية ، فإن خلفاءه لم يستطيعوا تنفيذ هذه السياسة المرنة فى ظل اختلاف المصالح وتضارب الأهواء فى غالة وبين جيران اشتد طمعهم فى تلك المملكة الصغيرة الضعيفة ، ولاسيما أن ولاء هذه المملكة للإمبراطور الشرقية لم يفدها فى شئ لبعد الشقة بينهما من ناحية ولانشغال أباطرة الشرق بما هو أهم من ناحية أخرى ، ولو لم تكن مملكة الابرجنديين قد انهارت أمام ضربات الفرنجة فمن المحتمل أنها كانت سوف تنهار على أيدى القوط الغربيين الذين تطلعوا إليها فى وقت من الأوقات قبل أن ينغمسوا فى مشاكلهم الداخلية بأسبانيا وتضعف هممهم ، حقيقة كانت سلطة الملك فى برجنديا سلطة تامة ومطلقة على شبعه ، لا ينازعه فيها أحد ، فإذا كان له أكثر من ولد جعلهم جميعاً نواباً للملك دون أن يقسم المملكة بينهم ، إلا أن ملوك البرجنديين اعتبروا أنفسهم منتمين إلى الإمبراطورية الشرقية ، ومنفذين لسياستها ، وكان بلاطهم

آهلاً بالموظفين الرومان ، وإداراتهم المالية ونظام ضرائبهم كلها رومانية وليس ثمة ما ينبئ عن وجود جماعات المحاربين وإن وجد ما عرف بالباجى *(Pagi)* أو *(Civitate)* ويرأسهم الـ *(Come)* وبجانبهم كان يوجد مجلس قضاء *(Judex Deputatus)* لتنظيم القضاء يعين أفراده الملك ، وكان الملك البرجندى يدفع الرواتب لنوابه وممثليه ، ولقد تأثرات المملكة البرجندية بالنظم الرومانية كثيراً حتى عاش البرجنديون والرومان فى ظل قوانين متشابهة ، ولم تكن بين الجانبين هوة ولاسيما بعد أن انتشرت الكاثوليكية بين البرجنديين ، ومع كل ذلك انهارت المملكة البرجندية سريعاً أمام أطماع الفرنجة سادة غالة وأقوى مملكة فى تلك الجهات . (١٥)

الفرنجـــة : *Franks*

ظهر الفرنجة خلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادى ، بنزولهم فى الحوض الأدنى لنهر الراين فى مجموعتين هما : الفرنجة البحريون أو الساليون *(Salian Franks)* أى الذين ينزلون قرب البحر والفرنجة البريون أو الريبواريون *(Ripuarian Franks)* أى الذين يقيمون على شاطئ النهر وقد درج الجغرافيون الرومان فى ذلك القرن على إطلاق اسم فرانكيا *(Francia)* على الإقليم الواقع حول الضفة اليمنى لنهر الراين الممتد من نيمجين *(Nimegen)* حتى كوبلنز *(Coblentz)* والذى كان يشغله منذ أيام المؤرخ تاكيتوس (توفى حوالى عام ١٢٠م) قبائل السيكامبرى *Sicambri* والشامافى *Chamavi* ، والبروكتيرى *(Bructeri)* والشاتى والشاوكى *(Chauci)* ، وبداية كان ظهور الفرنجة الساليين – وهم أشهر الفرنجة – فى المنطقة الواقعى شرقى نهر سالاً (المعروف باسم الأيزيل *Te Issel* فى الأراضى المنخفضة) ، وهو نفش المكان الذى كان مقراً للسيكامبرى ومن المحتمل أنهم اشتقوا اسمهم من ذلك النهر ، بيد أننا نلاحظ أن اسم الفرنجة قد غلب على جميع أسماء القبائل الأخرى أكثر من الساليين ورغم أن اسم الفرنجة

(Free-Men) أو *(Franks)* كان مثار جدل وخلاف ، فقد جرى الاتفاق على أنـه لفظ شائع لتحالف غير مستقر للقبائل المقيمة على نهر الويرز والراين الأدنى ، وهس *(Hesse)* ، وبرونزويك *(Brunswick)* وبين تلك القبائل التى ضمها ذلك التحالف صار الفرنجة الساليون أعظمها شهرة ، ويصف الفرنجة الساليون أنفسهم فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى بأنهم الشعب الجـرئ السـريع الـذى لا تلـين لـه قنـاة ، وكـانوا يـرون فـى الشـجاعة أسمى الفضائل كلها ويريدون دوماً أنهم رجال أحرار تجرى النبالة فى عروقهم ، ولـم يعتبـروا أنفسـهم برابـرة ، ومـن المعـروف أن الفرنجـة السـاليين كـانوا طـوال القامـة شـقر الوجـوه يجمعـون شـعورهم الطويلـة ويعقـدونها فـوق رؤوسـهم ثـم يتركونـه يتـدلى منهـا فـى شـكل أشـبه مـا يكـون بـذل الحصـان وكـانوا يطلقـون شواربهم ويحلقون لحاهم .

ويحدثنا التاريخ لأول مرة عن ذلك التحالف تحت اسم " الفرنجة " فى القرن الثالث الميلادى عندما اجتاحت القبائل التى يضمها ذلك التحالف إقليم الغال سنة ٢٥٣م ، وواصلت زحفها جنوباً فعبرت جبال البرانس حتى الجزء الشمالى الشرقى من أسبانيا تاركة بصماتها فيما خلفته من حطام وخرائب ، وفى تلك الفترة المظلمة من تاريخ الإمبراطورية نجح القواد الرومان فى إيقاع الهزيمة بقبائل الفرنجة ، وردها إلى مواطن استقرارها على الوزير والراين ، على أن سكوت الفرنجة لم يستمر طويلاً فقد انتهزوا فرصة ظهور الفوضى والقلاقل التى قامت فى منطقة الراين فى عام ٢٥٩م بسبب اغتيال ابن الإمبراطور فاليريان على يد القائد الطموح بوستوموس فى كولون ، وبادروا بشق طريقهم مرة أخرى إلى إقليم الغال وظلوا يتجولون فى أنحائه ناشرين الفوضى والخراب ، ليس هناك من قوة تستطيع كسر حدة اندفاعهم ، وإيقاف اعتدائهم فالإمبراطورية كانت غارقة آنذاك فى لجة مشاكلها الداخلية والخارجية وفى تلك الأثناء اعتلى بروبس *(Probus)* – وهو محاب شجاع – عرش الإمبراطورية ، ورغم أن فترة

حكمه (٢٧٦-٢٨٢م) كانت قصيرة إلا أنها كانت بمثابة شعاع من الضوء ظهر فى تلك الأيام المظلمة من تاريخ الإمبراطورية بدليل انه قاد عدة حملات ناجحة فى منطقة الراين أدت إلى تطهير بلاد الغال من الفرنجة ، وأخذ الآلاف العديد منهم أسرى ، وأنزلهم إلى مرتبة العبودية ، وقد كتب إلى مجلس السناتو فى عام ٢٧٧م مزهواً بانتصاراته قائلاً : " والآن يعمل البرابرة من أجلكم ويزرعون أرضكم " ، ويذكر مؤرخ سيرته أنه قام بنقل الآلاف من الأسرى إلى المناطق المهجورة التى كانت تحتاج إلى تعمير ، كما أنه أدخل العديد منهم فى الفرق العسكرية وأرسل بهم إلى بريطانيا وتراقيا وآسيا الصغرى ، ورغم ما قام به بروبس فإن خطرهم فى الواقع لم يجتث من جذوره ، وكان أن تحسن الموقف على جبهة الراين تحسناً ملموساً ، عندما وصل دقلديانوس إلى عرش الإمبراطورية سنة ٢٨٤ فبفضل جهوده الشخصية ومقدرته الفائقة أمكن إعادة الاستقرار والهدوء إلى تلك الجبهة بعد أم كبح جماح الجرمان .

على أن المتأمل فى تحركات الفرنجة خلال القرن الرابع يلمس مدى الفارق بينها وبين نظيرتها فى القرن السابق ، فقد اتصفت بطابع الاستيطان أو الاستقرار الدائم بدلاً من مجرد غزو هدفه الحصول على الغنائم المادية ومما ساعد على ذلك أن القوات الرومانية كانت فى حقيقة أمرها أضعف من أن تستطيع إيقافهم عند حدهم سواء بطريق القوة أو بطريق الدبلوماسية ، ويتضح ذلك من المحاولات التى قامت بها القوات الرومانية فى عامى ٣٤١ ، ٣٤٢م بغرض الوقوف فى وجه الفرنجة ولكنها باءت بالفشل ، وترتب على ذلك أن عقد معهم الإمبراطور قنسطانز (٣٣٧-٣٥٠م) ***(Constans)*** اتفاقية سلام لم تدم طويلاً ، ففى غضون عشرة سنوات اقتحمت قبائل الأيمانى والفرنجة جبهة الراين ، ثم شقت طريقها إلى إقليم الغال ، حيث أخذت مدن ذلك الإقليم الرائعة – مثل كولون وتريف وغيرها من المدن الهامة – تتساقط فى أيدها واحدة بعد أخرى ، حتى اضطر العديد من أهلها إلى الفرار ، ولم يستطيع أحد غير جوليان أن ينقذ

موقف الإمبراطورية المنهار فى جبهة الراين ، فقد استطاع على رأس قواته فى عام ٣٥٧م – كما رأينا من قبل – أن ينزل الهزيمة بالغزاة وينجح فى استعادة الضفة الغالية لنهر الراين الممتدة من ستراسبورج إلى كولون ، لكنه لم يقم بعمل حاسم فى العالم التالى (٣٥٨م) ، عندما اكتشفت السلطات الرومانية أن الفرنجة الساليين قد استقروا فى اقات سابقة فى إقليم الغال فى المنطقة التى يطلق عليها توكساندريا *(Toxandria)* (شمال بلجيكا الحالية) داخل الحدود الرومانية ، وكل ما فعله هو أن سمح لهم بالإقامة كمعاهدين ، ومن الواضح أن مسلك الإمبراطور على هذا النحو حقق للفرنجة الحصول على أول وطن استقروا فيه داخل أراضى الإمبراطورية ، وفى ذلك الوطن أخذوا يمارسون الزراعة فى جو مفعم بالطمأنينة الأمر الذى جعلهم ينهضون بدور حضارى هام فى الغرب الأوروبى فيما بعد .

والجدير بالذكر أن العلاقات بين الإمبراطورية وشعوب الفرنجة لم تكن عدائية دائماً فالكثير منهم كان على صلة طيبة بروما ، كما أن البلاط الإمبراطورى قد ازدحم بالشخصيات الفرنجية المغامرة التى علا شأنها منذ أوائل القرن الرابع الميلاد ، وتأثرت بالحضارة الرومانية ، حتى لم يعد لديها الإحساس بأصلها الفرنجى أو الشعور بالولاء لمواطنيها من الفرنجة ، ووصل الأمر بها إلى الوقوف ضد أبناء أرومتهم الذين ظلوا برابرة إذا اقتضت مصالح الإمبراطورية ذلك ، وقد تبوأ العديد من الفرنجة مناصب عالية فى الإمبراطورية فمنهم من وصل إلى قواد فرسان وحكام إقليم ، كما وصل البعض منهم إلى مرتبة القنصلية ، والبعض الآخر إلى مرتبة الأوغسطس زميلاً للإمبراطور ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، وصل ريكومير *(Richomer)* إلى منصب القائد الأعلى للجيوش الرومانية فى عهدى جراتيان (٣٧٥-٣٨٣م) وثيودوسيوس الأول (٣٧٨-٣٩٥) ، كما وصل أربوجاستس *(Arbogastes)* إلى نفس المنصب ، وكان صاحب الفضل فى وصل إيوجنيوس *(Eugenius)* إلى عرش الإمبراطورية ،

ولا جدال أن تلك الأسماء وغيرها معاً تكشف لنا النقاب عن طموح الفرنجة فى الربع الأخير من القرن الرابع ذلك الطموح الذى امتد نطاقه إلى قلب الإمبراطورية ، مثلما امتد نفوذهم التوسعى إلى المنطقة الواقعة بين الراين الأدنى والميز والشلد من جهة وعلى امتداد الموزل الأدنى من جهة أخرى .

وقد ازدادت الروابط بين الإمبراطورية والفرنجة قوة ومتانة منذ القرن الخامس الميلادى ذلك أنه فى الأيام الأخيرة من سنة ٤٠٦م اجتاحت الجموع الجرمانية والمتبربرة جبهة الراين فى حشود ضخمة لم يسبق لها مثيل ، ثم اندفعت إلى إقليم الغال ، الأمر الذى جعل الفرنجة يحاربون إلى جانب القوات الرومانية على أن الفرنجة لم يقفوا جميعاً وقفة رجل واحد فى صف الإمبراطورية بل هناك من سلك نحوها مسلكاً عدائياً أملته أحداث الفوضى والاضطرابات التى انتشرت آنذاك وتؤكد ذلك الشذرات التى حفظها لنا المؤرخ جريجورى مؤلف كتاب " تاريخ الفرنجة " *(Historia Francorum)* ، فقد روى أن البعض من الفرنجة كان يحارب فى صف الإمبراطورية ضد الوندال والألمانى على حين كان يقوم البعض الآخر بنهب المدن الرومانية ، مثل مدينة تريف التى نهبوها وأحرقوها أربع مرات بين سنتى ٤٠٩ و ٤١٥م . (١٦)

ويعتبر شلوجيو *(Chlogio)* أول ملوك الفرنجة الساليين فى منطقة توكساندريا ببلاد الغال ، وقد نجح ذلك الملك فى التوسع ناحية الجنوب الغربى ، فاستولى على كامبراى *(Cambrai)* بعد أن أنزل الهزيمة بالقوات الرومانية ، ثم واصل نشاطه التوسعى حتى وصل نهر السوم *(Somme)* ولكن أئتيوس أعظم القواد الرومان فى عصره ، لم يلبث أن أوقف أطماعه التوسعية فقد انتهز فرصة انشغال الفرنجة بزواج أحد زعمائهم شمالى ذلك النهر حوالى سنة ٤٤٧م ، وانقض عليهم فى سرعة ألحقت بهم خسائر فادحة ، ولم يمض وقت طويل حتى توفى شلوجيو فى العام التالى (٤٤٨م) بعد حكم دام عشرين سنة ، وأتى من بعده ميروفيتش *(Merovechus)* وهو الذى أحاطت به مسحة من

الغموض والمعجزات وسميت باسمه السرة الميروفنجية التى حكمت الفرنجة حتى عام ٧٥١م ، وقد شهدت البلاد الغالية إبان عهده الذى تميز بالضعف حدثاً من أهم الأحداث التاريخية ، إذا اتت قبائل الهون المتبربرة تسبقها شهرة من البطش والقسوة أجبرت العديد من سكان المدن الغالية على الفرار والمعروف – كما أسلفنا القول – أن بعض القبائل الجرمانية تحالفت مع القوات الرومانية لدفع خطر الهون المشترك فانضم الفرنجة الساليون أتباع ميروفيتش إلى جانب القائد الرومانى أئتيوس صاحب الدور الهام فى تلك المعركة ويرى المؤرخ جوردان *(Jordanes)* الذى عاش فى القرن السادس الميلادى أن الفرنجة الساليين حاربوا بشجاعة فائقة جديرة بأصلهم ، أما فرع الفرنجية الريبواريين فقد حاربوا تحت راية أتيلا زعيم الهون .

وليس من شك فى أن الفترة التى أعقبت مقتل الإمبراطور فالنتنيان الثالث سنة ٤٥٥م ، تعتبر من أسوأ الفترات الحالكة التى مرت الإمبراطورية بها وخير صورة توضيح ذلك نلمسها فى المصير الذى آلت إليه جبهة الراين وقتذاك فالفرنجة الريبواريون قد استولوا على ضفتى نهر الراين فى المناطق الممتدة من ليب *(Lippe)* إلى لاهن *(Lahn)* ، واستغل البرجنديون فرصة اشتراكهم فى معركة شالون مع الرومان وأخذوا يتوسعون سليماً حتى استقر بهم الأمر سنة ٤٨٦م فى المنطقة الواقعة حول نهرى الرون والسؤون ، أما القوط الغربيون فقد صارت تحت أيديهم كل المنطقة الواقعة غربى الغال حتى نهر اللوار أما الفرنجة الساليون ، فعلى الرغم من الخسائر الفادحة التى لحقت بهم فى معركة شالوم وأضعفت من قوتهم ، فقد وصلوا بزعامة شلدريك *(Childeric)* عليهم فى عام ٤٥٨م إلى تورناى *(Tournai)* (بالقرب من حدود فرنسا وبلجيكا الحالية) ، وإلى الجنوب من منطقة الفرنجة الساليين نجد أن النفوذ الرومانى لازال قائماً فى منطقة سواسون *(Soissons)* يمثله سياجروس ، ومن المشاهد أن المنطقة الأخيرة ظلت فى أيدى السياجريين باسم روما ، وإن كانوا فى الواقع قد

استقلوا بها فى زحمة الأحداث التى ألمت بالغرب الأوروبى آنذاك ، ويمكن القول أن سواسون تعتبر بمثابة جزيرة " رومانية " صغيرة وسط محيط واسع من الممتلكات الجرمانية فى إقليم الغال .

وعندما توفى شلدريك سنة ٤٨١م خلفه على عرش دولة الفرنجة الساليين ابنه كلوفيس (٤٨١-٥١١م) الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لتلك الدولة ، وطبقاً لما أورده المؤرخ جريجورى التورى ، تولى كلوفيس العرش فى السادسة عشرة من عمره وعرف بمقدرته الحربية وشخصيته القاسية التى لا تقم للمبادئ الأخلاقية وزناً الأمر الذى أهله لزعامة جميع قبائل الساليين من ناحية ووضع اللبنة الأولى فى صرح مملكة الفرنجة الميروفنجية – نسبة إلى جده الأسطورى ميروفيتش – من ناحية أخرى ، وقد حرص كلوفيس على توسيع رقعة مملكته فشرع فى عام ٤٨٦م فى الزحف بجيوشه بغية القضاء على سياجروس آخر بقايا النفوذ الرومانى فى سواسون وفى القتال الذى دار بين الجانبين لحقت

الهزيمة بسياجروس واضطر عندئذ إلى ترك فلول جيشه فاراً إلى ألاريك الثانى (٤٨٥-٥٠٧) ملك القوط الغربيين فى تولوز طالباً الحماية ، ولما بلغ كوفيس ذلك هدد بشن الحرب على آلاريك إذا لم يبادر بتسليم اللاجئ ويبدو أن ألاريك لم يكن فى موقف يسمح له بالوقوف ضد كلوفيس فأذعن لطلبه وجرى قتل سياجروس على أيدى كلوفيس وضم سواسون إلى ممتلكات ، كذلك استطاع كلوفيس أن يزيح من طريقه سيجبرت *(Sigibert)* ملك الفرنجة الريبواريين ، رغم أن هذا الملك قدم له العون خلال حروبه ضد ألاريك القوطى ، وأخضع شعب الأليمانى – فى الألزاس – لنفوذه فى عامك ٤٩٦م ، كما انتصر على آلاريك عند فوييه من بواتييه الشهير سنة ٥٠٧م منهياً بذلك حكم القوط الغربيين فى الغال ، وبذلك يكون كلوفيس قد حقق الكثير من الانتصارات

والأمجاد لقومه ، ويكفى أن ما استولى عليه من أراض قبل وفاته بلغ ما يعادل ثلاثة أرباع إقليم الغال .

على أن أهم خطوة قام بها كلوفيس هى اعتناقه المسيحية على المذهب الكاثوليكى أو الأثناسيوسى مخالفاً بذلك جميع الطوائف الجرمانية الآريوسية وكان كلوفيس قد أقدم – مثلما أسلفنا القول – على الزواج من كلوتيلد وهى أميرة برجندية دانت بالمذهب الكاثوليكى ومهما قيل من أن أسباب اعتناقه لذلك المذهب كان بإيحاء منها أو أنه استمع لنصيحة رئيس أساقفة ريمس الذى أشار عليه بالتحالف مع الكنيسة الغربية حتى يضمن ولاء شعوب إقليم الغال ، أو أنه تعهد باعتناق المسيحية فى حالة انتصاره على الأليمانى سنة ٤٩٦م ، فالحقيقة التى لا مراء فيها أن ذلك كله يعنى أنه صار بطلاً من أبطال الكنيسة الكاثوليكية وإذا كانت تلك الكنيسة قد وقفت إلى جانبه فى صراعه مع الشعوب الجرمانية الأخرى فإن الغالبية العظمى مم يدينون بالمذهب الكاثوليكى قد وقفت إلى جانبه أيضاً الأمر الذى وطد نفوذه ، وأوجد رباطاً وثيقاً بينه وبين رعاياه فى إقليم الغال من جهة ، ومكنه من الانتصار على منافسيه من جهة أخرى . (١٧)

القوط الشرقيون فى إيطاليا :

كانت أحوال إيطاليا مضطربة تماماً طيلة القرن الخامس : فلقد تعرضت لهجوم قوطى غربى بقيادة آلارك ، ثم لغزوة وندالية بقيادة جنزريك ، وخرب الاثنان مدينة روما تباعاً ، وبعد موت الإمبراطور فالنتنيان الثالث تعاقب على العرض الرومانى عدد وافر من الأباطرة ولكنهم لم يعمروا كثيراً ، وقد هلك أغلبهم نتيجة لمؤامرات القصر وقادة الفرق المرتزقة بالجيش الرومانى ، والواقع أن معظم هؤلاء الأباطرة كانوا قد وصلوا إلى العرض بمساعدة الزعماء الجرمان ، سواء أكان هؤلاء من القوط الغربيين أو من البرغنديين أو من الوندال ، ولقد نظر الإمبراطور الشرقى فى القسطنطينية إلى هؤلاء الأباطرة على أنهم

مغتصبون للعرش ، أما عن الكتائب الإمبراطورية فى الغرب فقد باتت مؤلفة من عناصر متبربرة سيطر زعماؤها على مقاليد الأمور .

وفى سنة ٤٧٦ قررت بعض الفرق المتبربرة الاستقرار فى إيطاليا ، ثم هجمت على مدينة بافيا ، حيث كان والد روموليوس أغسطيولوس آخر الأباطرة الرومان فى الغرب مختبئاً ، وأشعلوا فى المدينة النيران ثم أعلنت هذه الجماعات ولاءها لزعيم هريولى اسمه أدواكر ، وطالبت به ملكاً على إيطاليا ، وأصبح أدواكر ملكاً ثم كافأ أتباعه بتوزيع ثلث أراضى إيطاليا هبات لهم على جهودهم وولائهم له ، وسارع مجلس الشيوخ الرومانى إلى الاعتراف بأدواكر ، وأوفدوا سفارة من بينهم إلى القسطنطينية لتطلب من الإمبراطور زينون أن ينعم على أدواكر بلقب " باتريكيان " ، وبأن يفوضه فى حكم إيطاليا ، ولم ينتظر أدواكر رداً من زينون ، والحق أن الإمبراطور الشرقى لم يكن فى موقف يسمح له بتحدى أدواكر ، وكان أدواكر قد أجبر الإمبراطور روميلوس أغسطيولوس على أن يمثل أمام مجلس الشيوخ حيث عزله من منصلبه وجرده من علامات الإمبراطورية ثم أرسله إلى المنفى فى نابلى ، وبعث أدواكر بالعلامات الإمبراطورية إلى الإمبراطور الشرقى زينون مؤكداً له أن النصف الغربى للدولة لم يعد بحاجة إلى إمبراطور ، لأنه – أى أدواكر – قد قرر أن يصبح ملكاً على إيطاليا .

اضطلع أدواكر بمهمة الدفاع عن إيطاليا ضد الإغارات المتكررة على أراضيها من جانب جمعيات كانت قد استقرت على شواطئ الدانوب فى منطقة نوريكوم ، من الروجيين والتورنجيين والألمان . وقد وجه الملك الجرمانى حملتين ضد الروجيين ، أصابتا بعض النجاح ، ورغم هذه الجهود إلا أن منطقة الدانوب ظلت تمثل تهدياً على إيطاليا ، ففى سنة ٤٨٨ فرت أعداد كبيرة من السكان نحو البندقية تحت إشراف الكونت بيئريوس على إيطاليا بهدف القضاء على أدواكر نفسه .

كان القوط الشرقيون أعداء قدامى للإمبراطورية الرومانية منذ هزيمتهم المرة على يد المغول واضطرهم إلى الخدمة فى جيش آتيللا الجبار ضد المصالح الرومانية ، وبعد هزيمتهم على يد آتيللا ، أصبح القوط الشرقيون جنداً " معاهدين " فى خدمة الدولة الرومانية ، وسمحت لهم السلطات بالاستقرار فى معسكراتهم فى موئيزيا السفلى ، غير أن ملكهم الجديد ثيودريك الذى كان قد أمضى فترة طويلة رهينة فى البلاط الإمبراطورى فى القسطنطينية أصبح على صلة وطيدة بالإمبراطور الشرقى زينون ، وقد حصل الملك القوطى من الإمبراطور على تفويض فى شن الحرب ضد أدواكر فى إيطاليا ، وقد سلك ثيودريك فى زحفه على إيطاليا الطريق التقليدى عبر أقويليا ، ثم انقض على غريمه وألحق به هزيمتين متتاليتين ، واضطر أدواكر إلى الاحتماء وراء أسوار رافنا ، ولقد ألقى الرومان بتأييدهم وراء الجهاد الرابح كما هى عادتهم ، فأخذوا يتملقون ثيودريك ويتنكرون لحاميهم أدوكر ، ثم دخل ثيودريك مدينة ميلانو دون أن يصادف مقاومة تذكر ، وأرسلت مدن الشمال الإيطالى سفارتها لتهنئة الزعيم الجديد على انتصاراته المتلاحقة وللترحيب بمقدمه ، وقد شاركت روما ومدن الجنوب الإيطالى وجزيرة صقلية فى الترحيب بالملك القوطى الشرقى .

غير أن تطوراً مفاجئاً قد قلب الموقف : ذلك أن فرقة من رجال أدواكر التى كانت قد هجرته وانضمت إلى معسكر ثيودريك قد تمردت على الأخير ورجعت للخدمة تحت لواء سيدها الأول ، واضطر الزعيم القوطى إلى الانسحاب من ميلانو ، دخلها أدواكر ثم ألقى القبض على أسقفها لورنتيوس وعلى أعيان المدينة الموالين لثيودريك وأرسل بهم جميعاً إلى المنفى فى صقلية والجنوب الإيطالى . وأخذ نفوذ أدواكر فى الازدياد فى شمال إيطاليا بينما أخذت أسهم ثيودريك فى التدهور ، واضطر الملك القوطى الشرقى إلى الهروب إلى مدينة بافيا هو وعائلته وحرسه الخاص للاحتماء وراء أسوار المدينة .

وقد كان من نتيجة تقلب الأحوال على هذا المنوال أن أصيبت المدن الإيطالية بالخراب والفقر ، كما يتضح لنا من رسائل البابا جيلازيوس ، حيث يضع مسئولية الدمار الذى أصاب إيطاليا وضواحى روما على الزعيمين الجرمانيين المتكالبين على الحكم ، كما أن البابا فى مقام آخر عن وقوفه ضد أدواكر الأريوسى المذهب ومقاومته له مشبهاً موقفه هذا بموقف يوجنيوس أسقف قرطاج من طاغية الوندال هونريك .

لم ينقذ ثيودريك من ورطته إلا وصول فرق قوطية غربية من غالة لمؤازرته ضد خصمه الهريولى أدواكر ، ودارت الدائرة على أدواكر ، فهرب إلى رافنا وبقى وراء أسوارها لا يجرؤ على التحرك منها لمدة عامين ونصف ، ثم توسط أحد الأساقفة واسمه يوحنا لإبرام هدنة بين ثيودريك وأدواكر ، وأقيم استقبال حافل للملك ثيودريك فى رافنا حيث وقعت معاهدة سلام بين الطرفين ، ثم دبر ثيودريك مؤامرة دنيئة – على مأدبة عشاء – تم فيها اغتيال أدواكر وأتباعه وأفراد أسرته .

وبعدها بدأ فى تقليم أظافر الإيطاليين الذين ساندوا أدواكر ، وكلف لجنة خاصة بتولى هذه المهمة على أن تقوم اللجنة بتجريد كل من تثبت إدانته من حقوقه المدنية .

غير أن لورنتيوس أسقف ميلانو وابيفانيوس أسقف بافيا سافرا إلى رافنا لمقابلة ثيودريك وللتوسل إليه بضرورة تجاهل أمر تلك اللجنة ، وقد استجاب الملك لمطابهما ، كذلك طلب منه البابا سيماخوس ألا يعزل الشيوخ الذين قد اضطروا إلى تعيين أدواكر ملكاً على إيطاليا .

وقد أثار ثيودريك دهشة المعاصرين فى موقفه من نبيل رومانى اسمه ليبريوس الذى كان من حزب أدواكر حتى النهاية ، ويبدو أن الملك القوطى – الذى كان عليماً بنفاق الرومان – قد أعجب كل الإعجاب بوفاء ليبريوس وأصالته لأنه لم يتخل – مثل الآخرين – عن أدواكر فى وقت محنته ، بل ظل

وفيتً له حتى مقتله ، وقد عبر الملك القوطى عن مشاعره تجاه ليبريوس فى رسالة بعث بها إلى مجلس الشيوخ تضمنت الآتى : " إنه (ليبريوس) لم يسارع للانضمام إلى حوبنا كلاجئ رخيص ، ولم يتنكر أبداً لسيده (أدواكر) وقت الشدة أو يتظاهر بالكراهية له لضمان الحظوة عندنا ، بل بقى على مبدئه ، ولم تفسد شخصيته تقلبات الأزمات ، صابراً على حكم الله وقضائه ، ولم تسول للرجال نفسه أن يسعى لكسب عطف الملك الجديد ، بل ظل حتى النهاية وفيما لسيده أدواكر " .

ولقد كان هذا الوفاء من جانب ليبريوس سبباً فى أن يختاره ثيودريك مساعداً له فى بلاط رافنا لكى يشرف على " المؤاخاة " بين القوط والرومان ، ويبدو أن ليبريوس قد نجح فى المهمة التى وكلت إليه ، فنال إعجاباً متزايداً من جانب سيده الجديد : " يسرنا أن نعلن أن ليبريوس قد ألف بين قلوب القوط والرومان لا فى مجال الأرض الزراعية فحسب ، وإنما أيضاً فى محبة القلب ، إن جيرة الناس بعضهم للبعض الآخر تؤدى بالضرورة إلى قيام الخلاف بينتهم ولكن حكمة ليبريوس قد مكنته من توزيع الأرض فى هوادة ، ومن خلق روح متضامنة بين الفريقين وحدت بينهما فى الإدارة .

إن هذا الإنجاز أمر رائع لا نظير له فى السابق وهو أمر يستوجب كل الثناء ها هى البغضاء تتحول إلى محبة بين الشعبين ، إن الرومانى وهو يتنازل عن جزء من أرضه للقوطى يضمن لنفسه ولأرضه حامياً أكيداً يوفر له الأمن .

وإننا لا نبالغ عندما نقرر أن هذه النتائج الطيبة ترجع إلى حكمة ليبريوس الذى وطد أواصر المحبة فى قلوب الشعبين .

سعى ثيودريك إلى كسب محبة الرومان ، فعمل على إطلاق سراح العديدين من الأسرى الرومان الذين كانوا فى أيدى البرغنديين ، فبعث بسفارة مؤلفة من أنوديوس وأبيفانيوس من بلدة بافيا ، وفكتور من تورينو إلى مدينتى ليون وجنيف للتفاوض مع السلطات البرغندية لإطلاق سراح هؤلاء الأسرى ، وقد

استجاب البرغنديون لمطلب ثيودريك وأطلقوا سراح ٦.٠٠٠ من الإيطاليين ، ولما أن عاد هؤلاء إلى وطنهم أمر ثيودريك بإعادة أراضيهم إليهم (سنة ٤٩٤) . وقد ساهم هذا الموقف فى إعلاء قدر الملك القوطى الشرقى فى نظر الرومان ، ويلاحظ أن معظم وزرائه كانوا من النبلاء الرومان وعلى رأسهم الزير كاسيودوروس .

على أنه ينبغى ملاحظة أن القوط الشرقيين كانوا على المذهب الأريوسى ، ولذا فإنهم حيثما استقروا فى إيطاليا قاموا بإنشاء كنائس خاصة بهم ليمارسوا فيها طقوسهم على مذهبه الذى كان ينظر إليه من قبل الشعب الرومانى على أنه هرطقة .

وفى سنة ٥٠٠م قام ثيودريك بزيارة لروما ، ثم قصد فى خشوع زائد إلى ضريح القديس بطرس ليؤدى لكبير الرسل فروض الولاء والاحترام ولكأنه بهذا المسلك واحد من أبناء الكاثوليكية ، وقد أدى هذا السلوك المهذب من جانب الملك الآريوسى المتبربر إلى خلق شعور من الارتياح بين الأوساط الدينية فى روما ، وقد قرض الشاعر أنوديوس قصيدة أشاد فيها بموقف ثيوريك (سنة ٥٠٦) وعبر فيها بأن روما تنتظر على يديه بعثاً جدياً ، وأن المدن الإيطالية تتطلع إلى أن تخرج بهمته من أكفانها ، كذلك أكد الشاعر أن الملك القوطى قد بعث نهضة أدبية تبشر بعصر ذهبى للبلاد ، وأنه أمن الناس على مذهبهم الكاثوليكى رغم أريوسيته ولكن الشاعر والرومانى معه يشعرون بلوعة واحدة وهى أن ثيودريك ليس له وريث ولد ليخلفه فى حكم إيطاليا ، ولا يتحرج هذا الشاعر من أن يخلع على الملك المتبربر لقب " إبراطورناً " *(Imperator Noster)* .

وفى سنة ٥٢٢م قرض النبيل الرومانى بؤثيوس قصيدة فى مديح ثيودريك ، بمناسبة تعيين ابن لبؤثيوس فى منصب القنصلية ، وكان ثيودريك قد

أنعم على أسرة بؤثيوس بنعم كثيرة ، كما أنه شجع بؤثيوس وحماه سيماخوس على البحث فى الآداب والفلسفة القديمة . (١٨)

وفى نفس الوقت انكب كاسيودوروس على جمع مادة تاريخية يمجد بها سيرة القوط ، وكان فى ذلك يتبع خطى والده الذى كان هو أيضاً فى خدمة البلاط القوطى ، وقد أصبح كاسيودوروس كبير وزراء ثيودريك ، واختص بالمراسلات الملكية فى الديوان ، وقد حرص فى تلك المراسلات على ألا ينعت القوط الشرقيين بكلمة " المتبربرين " المألوفة فى سجلات العصر ، وفى كتابه عن تاريخ القوط يبشر كاسيودوروس بعصر جديد يتناغم فيه القوط مع الرومان : " كما أن أراضيكم – أيها القوط – تلاصق أملاك الرومان جنباً إلى جنب ، فإنه ينبغى عليكم أن توطدوا هذا الحوار بالمعاملة الطيبة ، وعليكم يا معشر الرومان أن تحبوا القوط من قلوبكم لأنتهم فى وقت السلم يزيدون من عدد سكانكم ، وفى وقت الحرب يذودون عن الدولة بسلاحهم الذى لا يقهر " .

ويرى الكاتب أن حكومة ثيودريك سوف تعيد السلام لشعب روما ، وينصح بنى جلدته بأن يتجاهلوا بعض الأحداث الفردية التى قد تقع من بعض القوط ، ويرسم كاسيودوروس لسيده صورة الملك ، الذى إن كان مستبداً إلا أنه حاكم مستنير يحقق المثال الأعلى للحكم الذى كان يحلم به أفلاطون ، وعندما عين يوثارك *(Eutharic)* – زوج ابنة ثيودريك – ولياً للعهد فى حكم إيطاليا ، نظم كاسيودوروس مديحاً فى شخص الأمير الشاب ، ثم عرج على سيرة القوط الباكرة فى محاولة لتبرير حوادث العنف التى وقعت من جانبهم ضد الرومان ، ويمتدح الكاتب أيضاً الزعيم القوطى الغربى آلارك ويشيد بحسن معاملته لشعب روما بعد سقوط مدينتهم فى يده سنة ٤١٠م ، هذا وقد طلب ثيودريك من وزيره كاسيودوروس أن يضع تاريخاً كاملاً لأمة القوط ، وقد أنجز الكاتب هذا العمل فى ١٢ جزءاً ، ولم يصل إلينا من هذه الكتابات إلا موجز فى كتاب المؤرخ جوردان بعنوان " القوط " ، ونطالع فى هذا التاريخ أن النسب

الأول للقوط يرجع إلى السكيزينن وإلى أعرق بيوت النبالة الجرمانية وهو بيت آمالى ، أى " اللامعين " أما غزوات الشعوب الجرمانية للأراضى الرومانية فهى علامات على الشجاعة والرجولة ، وهى صفات امتدحها يوليوس قيصر نفسه . ويخص الكاتب أمة القوط دون سائر الشعوب الجرمانية الأخرى بالحكمة : " إن هذه الأمة كانت تحت لواء ملك فيلسوف هو زالموكسيز ***Zalmoxes*** الذى شهد له جميع الكتاب بالعم والمعرفة ، وقبله كانت أمة القوط تنعم بحكماء حكماء ، من بينهم زيوتاس ***Zeutas*** ثم ديقنيوس ***Dicineus*** ، كما كان لدى القوط أساتذتهم الذين علموهم الحكمة ، ولقد ظلت هذه الأمة طيلة تاريخها أمة مستنيرة تتميز عن سائر الشعوب الجرمانية المتبربرة الأخرى ، وهم فى هذا التميز صنو للإغريق ، كما شهد بذلك الكاتب ديون الذى سجل تاريخ القوط باللسان اليونانى " . ويزعم الكاتب بعد هذا أن جنس القوط قد زودوا روما بإمبراطور من أصل قوطى هو ماكسيميان ، ولكن هذا الزعم ليس لخ ما يبرره على ضوء الدراسات الحديثة ، ثم يشبه الكاتب الملك القوطى هرمانرك بالإسكندر الأكبر المقدونى ، ويقرر أن القوط قد دخلوا فى خدمة الدولة الرومانية منذ عهد قسطنطين العظيم كجند " معاهدين " ، أما عن اعتناق القوط للمذهب الأريوسى ، فإن الإثم فى هذا ليس من صنع القوط أنفسهم بقد ما يرجع إلى سياسة الإمبراطور فالنس الذى كان على الأريوسية ، فأرسل بمبشرين آريوسيين نشروا هذا المذهب المهرطق بين أمة القوط ، وإذا كان القوط قد حملوا السلاح ضد الإمبراطور فالنس سنة ٣٧٨ ، فإن هذا يرجع إلى اليأس الذى وقعوا فيه فى معسكراتهم ، لأن المنطقة التى سمح لهم بالاستقرار فيها كانت جرداء فقيرة ، كما وأن الجنرالات الرومان كانوا يبيعون القوت الضرورى للقوط بأسعار باهظة ، وليتهم باعوهم مؤناً تؤكل بل باعوهم لحوم الكلاب والحيوانات النجسة ، كما أنهم أكرهوهم على دفع أبنائهم إلى الرق ، ولما أن استفحل الخطر اضطر القوط إلى

اللجوء للسلاح للدفاع عن أرواحهم ولو أدى هذا إلى القضاء على " السلام الرومانى " .

ويمضى جوردان – نقلاً عن كاسيودوروس – ليبين أن آلارك قد زحف على روما وهو يشعر بالأسف الشديد ، وقد دفعه إلى هذا المسلك تلك السياسة الرعناء التى كان ينتهجها الأخوان أركاديوس وهونوريوس اللذان قطعاً الرواتب والمؤن عن القوط الذين ظلوا فى خدمة الدولة الرومانية ، كما أن القائد ستيليكون قد غدر بلآرك فى واقعة بوللنتيا ، رغم الهدنة المبرمة بين الطرفين ، ولما أن سقطت روما فى أيدى آلاريك عامل أهلها بالرحمة ، ومنع جنوده من ارتكاب الجرائم أو إشعال الحرائق كما وأن القوط الغربيين هم الذين تحالفوا مع الرومان فى الكفاح ضد جرائم الوندال ، وهم أصحاب اليد الطولى فى دحر الجبار آتيللا المغولى فى غالة .

وإذا كان الملك القوطى الغربى يورك قد أنهى الحكم الرومانى فى غالة فإن ذلك يرجع – عند نفس الكاتب – إلى أباطرة تلك الفترة كانوا يتكالبون على العرش بطريقة مخزية ويستعدون الزعماء الجرمان على خصومهم للحصول على التاج . أما ثيودريك فهو الملك الشرعى لإيطاليا لأن الإمبراطور الشرقى زينون قد فوضه فى ذلك الحكم .

على أنه لكى يبرهن ثيودريك على حسن نواياه تجاه الرومان ، فإنه كان ينبغى عليه أن يترجم هذه الأقوال إلى أفعال ، وذلك بأن يصون مصالح أهل الأرض من جور بنى جلدته ولكن ثيودريك كان ملكاً طموحاً ، وكان يهدف إلى تثبيت أقدامه فى إيطاليا وأيضاً إلى الظهور أمام إمبراطور القسطنطينية بمظهر الزعيم الأكبر لكل الشعوب الجرمانية فى غرب أوروبا ، وقد نتج عن هذه السياسة الطموحة من جانب ثيودريك أن أية بادرة معارضة لمواقفه صارت أمراً لا يغتفر ، وقد جاء الاختبار الصعب لنوايا ثيودريك من منطقة

بروفانس حيث كانت عدة قوى متبربرة تتصارع على تلم الأرض من برغنديين وفرنجة وقوط غربيين ثم القوط الشرقيين .

بدأ الصراع أصلاً بين الفرنجة بزعامة كلوفس وبين القوط الغربيين أسياد تواوز وكان الزعيم الفرنجى قد اعتنق الكاثوليكية ، ومن ثم أخذ على عاتقه مهمة محاربة القوط الغربيين فى غالة بحجة أريوسيتهم ، والوقاع أن رجال الدين الكاثوليك الخاضعين للقوط الغربيين راحوا يرنون بأبصارهم نحو كلوفس الفرنجى عله يخلصهم من نير القوط الغربيين وليس من باب الصدفة أن المؤرخ جريجورى أسقف تور يشبه كلوفس بعد اعتناقه للكاثوليكية ، تلبية لطلب زوجته البرغندية كلوتلدة بالإمبراطور قسطنطين العظيم ، وقد أحس آلارك الثانى بالخطر الفرنجى على مدينة تور وطرد قسطنطين العظيم ، أسقفها فوازيانوس ، وفى سنة ٥٠٥ قام بنفى الأسقفين رويكيوس من ليموج وسيزاريوس من آرلس إلى مدينة بوردو ظناً منه بأنهما يتآمران فى الخلفاء لتسليم مدينة أرلس للبرغنديين حلفاء الفرنجة ، وفى سنة ٥٠٦ نشر آرك الثانى مقتنة بعنوان " المختصر " *(Breviarium)* فى القتانون الرومانى ، وذلك لكى يجيب الرومان فى حكم القوط ، ثم أعاد بعض الأساقفة من منفهم إلى أبروشياتهم وسمح للكاثوليك بعقد مجمع لهم فى مدينة أجديا *(Agdea)* وقد ورد فى ديباجة قرارات هذا المتجمع دعاء لآلاء الثانى بطول العمر ودوام الحكم

ولكـــن كلـــوفس الفرنجـــى كـــان أشـــد مكـــراً مـــن آلارك الثـــانى ، إذ راح يصـــور حروبـــه ضـــد القـــوط علـــى أنهـــا " حـــرب صـــليبية " ضـــد الهرطقـــة الأريوســـية ، زحـــف الـــزيعم الفرنجـــى علـــى راس رجالـــه عـــابراً منطقـة التـورين نحـو مدينـة بواتييـه ، وهنـاك عرج علـى ضـريح القديس مـارتن وألقـــى فـــى جنـــوده كلمـــة عبـــر فيهـــا عـــن تقـــواه وحبـــه للكاثوليكيـــة ، ثـــم نهـــى رجالـــه عـــن ارتكـــاب أعمـــال العنـــف أو التخريـــب احترامـــاً للقـــديس مـــارتن والتقـــى المعســـكران فـــى واقعـــة كـــامبوس فولجادنســـيس

(Campus Volgadensis) واحرز الفرنجة نصراً كاملاً على القوط الغربيين فى ذلك اليون (٥٠٧م) ، وقتل آلارك الثانى فى المعركة ، وسقطت كل كنوز القوط الغربيين فى ايدى كلوفس ومعها سقطت عاصمتهم تولوز وانتهى عهد القوط الغربيين فى غالة فعبروا بقيادة زعيمهم ثيودس إلى أسبانيا .

ويحدثنا جويجورى أسقف تور بأن نصر كلوفس على القوط الغربيين قد رفع من قدره ، إلى حد أن الإمبراطور الشرقى انستاسيوس بعث إليه صكاً ينعم فيه عليه بالقنصلية وعباءتها الأرجوانية التى ارتداها الأمير الفرنجى فى حفل مهيب فى كاتدرائية سان مارتن ، وبعدها امتطى كلوفس جواده من صحن الكاتدرائية إلى قلب المدينة ، وهو فى زى القياصرة وتاج الملك ، وأخذ فى توزيع المالى من ذهب وفضة بيمينه على الشعب الفقير ومنذ ذلك اليوم أصبح كلوفس قيصراً وأغساطساً .

بعد زوال حكم القوط الغربيين فى غالة راح الفرنجة والبرغنديون يخططون للاستيلاء على مدينة آرلس ، وفى طريقهم إليها هاجموا ديراً للراهبات كان الأسقف سيزاريوس قد أقامه تحت إشرافه ، وهنا تدخل الملك القوطى الشرقى – ثيودريك – فأرسل بفرقة من جنوده لمساعدة مدينة آرلس ضد المعتدين ، واضطر الفرنجة والبرغنديون إلى رفع حصارهم عن آرلس ، بعد هذا وقعت منطقة بروفانس فى ايدى القوط الشرقيين وقد عمد ثيودريك إلى تخفيف عبء الضرائب عن كواهل الأهلون أملاً فى كسب ودهم ، ولكن عدداً من أهالى بروفانس كانوا وقعوا أسرى فى أبدى القوط الشرقيين ، وقد أخذ الأسقف سيزاريوس على عاتقه مهمة دفع الفدية لتحرير هؤلاء الأسرى ، ولتجنيبهم غواية الدخول إلى المذهب الأريوسى ، ولكن السلطات القوطية بدأت ترتاب فى أمر سيزاريوس ، ظناً منها أنه على اتصال سرى بالفرنجة الكاثوليك ، وبأنه يعمل على التمكين لهم من الاستيلاء على آرلس وهكذا فإن الصدام بين

المشاعر الكاثوليكية وبين الأريوسية قد أعلن عن نفسه فى بروفانس ، وقد وجد هذا الموقف صداه فى إيطاليا بطبيعة الحال .

وفى أثناء ذلك بدأ الخلاف يدب بين ثيودريك والإمبراطور الشرقى أنستاسيوس ومن ثم فإن سياسة الملك القوطى تجاه الرومان بدأت تتحول ونلمس هذا التحول من حقيقة أن عدداً من نبلاء روما قد هربوا إلى القسطنطينية يتضرعون إلى السماء أن " تجمع روما القديمة وروما الجديدة تحت تارج أنستاسيوس " والمعروف أن رجال ثيودريك كانوا قد حطموا إحدى الكنائس الكاثوليكية عند مدخل مدينة فيرونا لإقامة بعض التحصينات ، ولكن الرومان فسروا هذا الإجراء على أنه بداية لاضطهاد أريوسى ضد الكاثوليك وتحققت مخاوف الرومان عندما أصدر ثيودريك أمراً يحرم على الرومان حمل السلاح وبدأ الأهلون يشعرون بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية .

واشد الصراع عندما اعتلى عرش القسطنطينية الإمبراطور جستن خلفا لأنستاسيوس فقد كان هذا الفلاح الإليرى خشن الطبع كارهاً للأريوسية والجرمان كل الكراهية ، ومن ثم فإنه قام بإغلاق جميع الكنائس الأريوسية فى سائر أرجاء الأراضى الإمبراطورية .

كان البابا الجالس على عرش كنيسة روما فى ذلك الوقت هو يوحنا الأول الذى كان معادياً لجنس القوط وقد شهدت روما فى عهده بداية قيام حزب خفى موال للقسطنطينية من بعض أعضاء السناتو وقد قويت شوكة هذا الحزب بعد وفاة يوثارك ولى العهد القوطى فى سن مبكرة ، وراح شعب روما يتندر علانية باغتصاب ثيودريك للأراضى الرومانية دون وجه حق .

وأحس ثيودريك بالخطر وجاءت تقارير مساعديه القوطيين كونيجاستوس وتورجويللا لتأجج من نار غضبه ، ثم وقعت فى ايدى رجال ثيودريك بعض الرسائل الموجهة من أهل روما إلى الإمبراطور جستن وغلت المشاعر ، وقد حاول الفيلسوف بوثيوس فى أول الأمر أن يتداك الموقف

باللباقة حتى تمر العاصفة بسلام ، ولكن واحداً من رجال البلاط القوطى اسمه كبريان أصر على متابعة خيوط القضية ، وراح يدعى بأن عضو السيناتو ألبينوس يحيك مؤامرة ضد القوط الشرقيين وحاول بؤثيوس أن ينقذ صديقه ألبينوس من الخطر ، فحث أعضاء السناتو على التضامن معه لإقناع ثيودريك ببراءة ألبينوس ، ولكن الشيوخ جنبوا ثم أخذوا يتهمون بؤثيوس نفسه بأنه طرف هو الآخر فى المؤامرة وجن جنون الملك القوطى ، فقام بطرد بؤثيوس من منصبه فى البلاط ، ثم ألقى به فى السجن فى بافيا .

وفى سجنه انكب بؤثيوس على تسجيل مختصر لكتابه " تعزيه الفلسفة " *(Consolationis Philorsophae)* وهو يقرر فى كتابه أن ضميره الحى هو الذى أملى عليه سلوكه من الألف إلى الياء ، وهو شديد الاعتزاز بحرصه على الصالح العام للرومان ، إيماناً منه بدرس أستاذه أفلاطون فى " الجمهورية الفاضلة " ، وإذا كان البرابرة قد أدانوه بالخيانة بسبب هذا الموقف ، فهذا شرف لا ينكره بؤثيوس ، بل إنه يتغنى به كثيراً ، ولقد جاءت الصورة التى رسمها بؤثيوس لثيودريك مناقضة تماماً للصورة التى رسمها له كاسيودوروس ، يقول بؤثيوس : " غننى لم أقبل المناصب الرفيعة إلا لحرصى على خدمة كل من يتبع أصول الأمانة والحق بغض النظر عن الميول السياسة ، وقد عملت طيلة الوقت ، رغم مكائد الأشرار على أن أحمى العدالة ، ولم أخش غضب الطغاة كم من مرة وقفت اتصدى لجبروت كونيجاستوس عندما كان يعد للإيقاع بمواطنين أبرياء ، كم من مرة أحبطت خطط ترويجويللا الذى كان يستند إلى تأييد البيت المالك فى تحقيق أغراضه وشخصه ، وكم من مرة بسطت جناحى للذود عن التعساء الذين وقعوا ضحايا لجشع المتبربرين ... " .

وبمضى بؤثيوس ليقرر أنه وقف فى جانب المظلومين من الرومان عندما اغتصبت أراضيهم وعندما حلت بهم المجاعة ، ولكن هذا الموقف قد جلب عليه خصومات الحكام والقضاة والمنافقين فى

بـلاط الملـك ، كمـا أنـه انتصـر لبـاتولينوس عنـدما هجمـت عليـه كـلاب الحراسـة لنهب ثروته ، ووقف بجوار البينوس يوم أن تخلى عنه أعضاء السناتو ، ويؤكد بؤثيوس أن خصومه وشاه كاذبون ، وهو لا ينكر أنـه قد جاهد لكى ينقذ سمعة مجلس السناتو وشرفه ، أما عن الوسائل التى قيل إنها ضبطت فهى رسائل مدسوسة عليه من قبل أعدائه الحاقدين منت الأريوسيين ، ولكن الرجل شديد السخط على أعضاء الشيوخ لأنهم قد غسلوا أيديهم لكى ينجحوا بأنفسهم تاركين بؤثيوس لينتظر الجلاد ، أما الجهلاء فى روما فإنهم قد ألصقوا به اتهامات كاذبة بأنه ساحر ومشعوذ وحليف للشيطان ، ويسلم الفيلسوف أمره لصاحب الأمر بعد أن يئس من ظلام هذا العالم المتبربر .

ويتلمس الكاتب بعد هذا العرض شيئاً من العزاء بمعونة الفلسفة مستلهماً الصبر فى افيمان بالعناية العاوية ، ويعرج خلال هذا العزاء على آراء أرسطاطلية وعلى تضرعات صوفية ، وهنا تختلط الفلسفة بحرارة التصوف ، ولكن بؤثيوس على يقين واضح من المصير الذى ينتظره ، فالجلاد رهن إشارة ثيودريك لكى يقطع رأس الفيلسوف وهو لهذا يهاجم الطغاة وعروشهم وأروابهم الأرجوانية وكلاب حراستهم وعيونهم التى تفتش دائماً للزج بالأبرياء فى السجون ، وهو يشبه غضب الطغاة " بسم القلوب " ، ولكن هؤلاء الطغاة يخدعون أنفسهم والناس فرغم القوة والجبروت الذى يحيطون به أنفسهم ، إلا أنهم يظلون اسرى لأفكارهم الطاغية .

وتحققت توقعات بؤثيوس فقد أمر الملك بقطع رأسه ، ثم مال الملك على حمى بؤثيوس سيماخوس ، فطرده من مجلس الشويخ ثم قتله .

جاء رد الفعل من ضفاف البسفور فقد أصدر الإمبراطور جستن أمراً يحرم على القوط المرتزقة فى جيشه ممارس الطقوس الأريوسية ، ولذل فإن ثيودريك بعث بالبابا يوحنا الأول على رأس سفارة إلى القسطنطينية ليحتج لدى

الإمبراطور على سياسته المناهضة للأريوسية ، قود استقبل البابا فى روما الجديدة بالترحاب والحرارة ، ثم عقد جستن معه اجتماعاً مغلقاً ، ولما أن عادت السفارة إلى إيطاليا ألقى ثيودريك القبض على البابا ورمى به فى السجن حيث مات ولكن هذا الحادث قد فجر مشاعر الأهالى فى إيطاليا الذين رأوا فى البابا وسيماخوس وبوثيوس شهداء للكاثوليكية فى صراعها ضد الأريوسية والتبربر .

وبعد قليل توفى ثيودريك وزلم يبق للأجيال القادمة فى غرب أوروبا عن عهد القوط الشرقيين إلا صورة الملك المتبربر المهرطق وبجواره صورة آخر الرومان فى زنزانته وهو " يتعزى بالفلسفة " فى انتظار الجلاد .

لقد فشلت جهود ثيودريك فى التأليف بين الرومان والقوط ، وإن قيل أنه قد نصح لرجاله وهو يحتضر أن يكونوا على وئام مع الرومان ومع الإمبراطور الشرقى ، ولكن الإمبراطور الشرقى كان يخطط لأمر آخر . [١٩]

هوامش الباب الثالث

(١) نور مان كانتور : العصور الوسطى الباكرة ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، ص ١٦٧ – ١٧٠ .

محمـــود الحـــويرى : رؤيـــة فـــى ســـقوط الإمبراطوريـــة الرومانيـــة ، ص ٨١ – ١٠٧ .

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٧٨ .

(٢) نورمان كانتور : المرجع السابق ، ص ١٧٠ – ١٧٣ .

محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ٨١ – ١٠٧ . محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٧١ – ٨٥ .

(٣) السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ١٠٧ ،١٠٨ .

محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص١٠٠ – ١٠٧ .

(٤) السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٠٨ –١١٠ .
نومان كانتور : المرجع السابق ، ص ١٦٧ –١٨٤ .
محمد عبد الشافى المغربى : العصور الوسطى الأوربية ، رؤية فى المصادر والنصـــــوص التاريخيـــــة وعمليـــــات التعليـــــق والترجمـــــة ، (الإسكندرية – ٢٠٠٤) ص ٧٥ –٨٩ .

(٥) محمـــد محمـــد الشـــيخ : تـــاريخ أوروبـــا فـــى العصـــور الوســـطى ، ص ٨٠– ٨٣ .
فشر (هـ. م . ل) : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٠ .
موشى (سانت .هـ) : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٧٧ – ٧٨ .

(٦) محمـــد محمـــد الشـــيخ : تـــاريخ أوروبـــا فـــى العصـــور الوســـطى ، ص ٨٣ – ٨٥ .
رستوفتزف (م): تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، ترجمة ومراجعة : زكى على ، محمد سليم سالم ، ص ٤٧٢ –٤٧٥ .
محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٦٣ –٦٧ .

(٧) ســـعيد عبـــد الفتـــاح عاشـــور : أوروبـــا فـــى العصـــور الوســـطى ، ص ٩٢ – ٩٤ .
محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١١١ – ١١٦ .
محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٨٠ – ٨٣ .
اسحق عبيد : العصور الوسطى الأوروبية ، ص ١١٣ – ١٢٨ .

(٨) محمـــود الحـــويرى : رؤيـــة فـــى ســـقوط الإمبراطوريـــة الرومانيـــة ، ص ١١٦ – ١٢٠ . جيبـــون (إدوارد) : اضـــمحلال الإمبراطوريـــة الرومانيـــة وسقوطها ، جـ٢ ، ص ٢٨٨ –٢٩٠ .
محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٩٨ – ١٠٨ .

(٩) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٢٠ – ١٢٥ .
موسى (سانت هـ.) : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٨٥ .
نورمان كانتور : التاريخ الوسيط ، جـ٢ ، ص ٢٢٠ .

محمد محمد الشيخ : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ١٧٠ – ١٩٠ .

(١٠) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٢٦ – ١٣٢ .

موسى (سانت هـ.) : المرجع السابق ، ص ٨٦ – ٨٧ .

جيبون (إدوارد) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

محمود الحويرى : اللومبارديون فى التاريخ والحضارة ، (القاهرة : ١٩٨٦) ، ص ١٥ – ١٧ .

(١١) محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٧٦ – ٧٨ .

محمـــود ســـعيد عمـــران : مملكـــة الونـــدال فـــى شـــمال أفريقيـــا ، (الإسكندرية – ١٩٨٥) .

محمد محمد الشيخ : المرجع السابق ، ص ١٢١ – ١٣٠ .

(١٢) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٧٨ – ٨٠ .

محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٣٢ – ١٤٠ .

أسحق عبيد : المرجع السابق ، ص ١٠١ – ١١٢ .

(١٣) محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ١٤١– ١٤٤ .

محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٤٠ – ١٤٢ .

(١٤) محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ١٤٤ – ١٤٦ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٧٥ – ٧٧ .

أسحق عبيد : المرجع السابق ، ص ١٠١ – ١١٢ .

(١٥) محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ١٤٧ – ١٥٢

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ١ ، ص ٩٤ .

(١٦) محمـــود الحـــويرى : رؤيـــة فـــى ســـقوط الإمبراطوريـــة الرومانيـــة ، ص ١٤٨ – ١٥٢ .

ديورانت (ود) : قصة الحضارة ، مجـ ٤ ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٩٨ – ١٠٠

(١٧) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٥٢ – ١٥٦ .

فشر (هـ. أ . ل) : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٣٦ – ٣٧

محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ – ٢٥٣ .

(١٨) أسحق عبيد : العصور الوسطى الأوروبية ، ص ١٤٧ – ١٥٢ .

سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٨٦ – ٩١ .

(١٩) أسحق عبيد : المرجع السابق ، ص ١٥٣ – ١٥٩ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٦٧ – ٧٥ .

الباب الرابع
سقوط الإمبراطورية الرومانية
وآراء المؤرخون حول هذا السقوط

أهداف الباب الرابع

بنهاية هذا الفصل يجب على الطالب أن يكون ملماً بأسباب واحداث ونتائج سقوط الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦م.

الباب الرابع

سقوط الإمبراطورية الرومانية

وآراء المؤرخون حول هذا السقوط

وعلى أى حال إذا حاولنا أن نلقى نظرة على خريطة أوروبا السياسية عام ٤٧٦م من البحر الأدرياتيكى شرقاً إلى خليج بسكاى غرباً ومن مصب نهر الراين شمالاً إلى طرابلس جنوباً لشاهدنا خليطاً من الممالك التى تأسست فى المناطق الآتية :

١- دولة القوط الغربيين الذين سيطروا على أسبانيا وجنوب الغال ، وبذلك امتدت مملكتهم من اللورا حتى جبل طارق وعاصمتهم تولوز .

٢- مملكة الوندال فى إفريقية وجزر البحر المتوسط الغربية وعاصمتها قرطاجنة .

٣- مملكة الفرنجة فى شمال الغال حول وديان الموز والموزل والراين الأعلى .

٤- مملكة البرجنديين فى وديان الرون والسءون حتى أقاصى أعاليهما وعاصمتها ليون .

٥- مملكة أودواكر فى إيطاليا .

٦- مملكة السويفى فى البرتغال وشمال أسبانيا .

٧- مملكة الروجيين فى الأقاليم الواقعة الآن فى بافاريا والنمسا ، وقد ظلت قائمة حتى قضى أودواكر عليها (٤٨٧-٤٨٨م) .

أما المناطق التى ظلت فى أيدى النفوذ الرومانى من الناحية الاسمية فكانت :

١- مملكـة سياجروس التـى استقل بهـا القائـد الرومـانى فـى شـمال الغـال وعاصمتها سواسون وقد ظل نفوذه قائماً حتى استطاع كلوفيس ملك الفرنجة سنة ٤٨٦م القضاء عليها .

٢- بريتـانى : باستيلاء السكسون على الجنوب من تلك الجزيرة فراراً من السكسـون إلـى جهـات أرومـوريكـا بأقصـى الشـمال الغربـى مـن فرنسـا الحالية التى أطلق عليها منذئذ بريتانى تحريفاً من اسم بريطانيا القديم

٣- ولاية بريطانيا : لـم تتخيل عنهـا رومـا رسيماً ولكنهـا تركت البريطـانيين وشـأنهم للـدفاع عن أنفسـهم بمـا استطاعوا مـن وسـائل المقاومـة ضـد الإنجليـز والسكسـون خاصـة بعـد أن سـحبت الفـروق الرومانيـة مـن الجزيرة البريطانية للذود عن كيان الإمبراطور نفسها .

٤- ولاية دلماشيا المطلقة على البحر الأدرياتى . (١)

كـان لسـقوط رومـا أبعـد الأثـر علـى الديانـة المسـيحية فلقـد تحركـت جماعات الوثنية من جديد لتكيل الاتهامات لها ، مجدين القول بأن هذه الديانـة قد جلبت عما على حياة الناس منذ دخلت تعاليمها إلى روما ، وها هى بعد ذلك تساهم فى سقوط المدينة الخالدة فى أيدى المتبربرين وأشاع الوثنيون أن سقوط الإمبراطوريـة إن هـو إلا عقـاب أنزلتـه الآلهـة علـى الرومـان بسـبب هجـرهم لـدين الآباء وتدنيس المعابد وبيع تماثيل الآلهة أو صهرها فى النار لتدفع جزيـة للعدو ، وراحـوا يـذكرون النـاس بالمصـير الـذى آل إليـه الإمبراطـور هونوريـوس نتيجـة لتحطيمه معابد الأوثان سنة ٤٠٨ ، وتتضح وجهـة نظر الوثنيـة فـى رسـالة بعث بهـا واحـد مـن أقطابهـا إلـى القـديس أغسـطينوس يقـول لـه فيهـا : " إن التعـاليم المسيحية لا تتفق أبداً مع مصالح الدولـة ، لأن المسـيحية تنـادى بالتعـالم الآتيـة : لا تقابلوا الشر بالشر ، من لطمك علـى خدك الأيمن حولـه الأيسر من أراد أن ينزع عنك رداءك اترك لـه أيضاً عباءتك ، من يطلب إليك السير ميلا سر معه ميلين غلـخ .. إن هذه الأمثـال بالغـة الضرر بمصالح الأمـة ، لأنـه من ذا الـذى

يقبل بأن يتخلى للعدود عن أراضى الإمبراطورية ، ومن ذا الذى لا يهب لنجده ولاية تتعرض لنهب وسلب المتبربرين ؟ ... إن كان هناك ضرر قد لحق بالرومان ، فإن هذا يرجع إلى سياسات الأباطرة الذين اعتنقوا المسيحية ، إن الأمر جلى وضاح لمن يزيد أن يبصر وله عيون " وانصب هجوم الوثنيين أيضاً على الرسل والقديسين وسخروا من بطرس وبولوس الراقدين فى روما ، وتساءلوا عن شفاعات الأخبار يوم أن كانت المدينة تصطلى بناء القوط وسيدهم آلارك .

أمام هذه الاتهامات وجد القديس أغسطينوس أنه يتحتم عليه أن يتصدى لتفنيد تلك الاتهامات ، ومن هنا ولدت فكرة " مدينة الله " : يلاحظ الكاتب بادئ ذى بدء أن المثقفين الوثنين الذين يلقون باللوم على المسيحية مدينون ببقائهم على قيد الحياة إلى شفاعة بعض " المسيحيين الذين كانوا يتمتعون باحترام آلارك نفسه ، ذلك لأن آلارك كان مسيحياً ، وإن كان على المذهب الأريوسى ، أما عن الخراب الذى أصاب مدينة روما ، فهو من طبيعة الأحداث التى تقع فى مسار الزمان وقت أية حروب سواء كانت هناك مسيحية أو وثنية على وجه المسكونة ، كما وأن آلارك لم يكن علاى درجة من التبربر بشعة مثل بقية الزعماء الجرمان ، ولا يرجع هذا – عند الكاتب – إلى شخص آلارك نفسه بقدر ما يعود إلى فضل العناية الربانية التى تحننت على روما والرومان ويؤكد أغسطينوس مرة أخرى أن قلب آلارك قد لا يخاو من مس المحبة التى هى للمسيحية وإن كان مهرطقاً مخلفاً . (٢)

وعلى أية حال سنعرض لبعض الآراء التى تناولت تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوروبى .

يرى المؤرخ الإنجليزى إدوارد جيبون *(Edward Gibbon)* فى كتابه " اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية " أن تدهور روما واضمحلالها كان نتيجة طبيعة وحتمية ، فالرفاعية التى عاش الرومان فى ظلها أثمرت مبدأ

الاضمحلال ، ولقد تضاعفت عوامل الدمار بامتداد الغزو وتوسع الإمبراطورية حتى إذا أزاح الزمن ما كان هناك من دعائم واهية مصطنعة قامت عليها الإمبراطورية ، أنهار الكيان الضخم تحت وطأة ثقله هو نفسه ، ويرى جيبون أيضاً أن الديانة المسيحية كانت من أهم سقوط الإمبراطورية الرومانية لأنها – على حد قوله – قد قضت على العبادات القديمة التى كانت الدعامة الخلقية للرومان ، كما أنها ناصبت الثقافة القديمة العداء ، فحاربت العلم والفلسفة والأدب والفن ، وأتت بالتصوف الشرقى الواهن بدلاً من الفلسفة الرواقية التى كانت متغلغلة بواقعيتها فى الحياة الرومانية ، وحولت أفكار الرومان عن واجباتهم وأغرتهم بالجرى وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة ، وشجعت اتباعها على الامتناع عن أداء الخدمة العسكرية ، وبهذا كله كان انتصار المسيحية إيذاناً بالقضاء على روما . (٣)

والواقع أن ذلك الرأى قد وصمه الكثير من المؤرخين بالضعف نذكر منه بينز الذى انبرى قائلاً : " يرجع ذلك الاتهام الموجه للديانة المسيحية إلى ايام القديس وأغسطين (٣٥٤-٤٣٠م) ، لاسيما بعد أن سقطت روما فى أيدى ألاريك ملك القوط الغربيين سنة ٤١٠م ، فقد دب خلاف واسع النطاق بين المفكرين الوثنيين والمسيحيين آنذاك حول تدهور روما ، وبمعنى آخر تبادل الفريقان الاتهام ، واتهم الوثنيون المسيحية بأنها السبب فى زوال مجد الإمبراطورية الرومانية واتهم المسيحيون الوثنية بأنها أشاعت الانحلال والفساد والشرور فى المجتمع الرومانى ، ونتيجة لذلك صب الله جام غضبه على مخالفى الكنيسة ومضطهديها ، ومن الواضح أن ذلك الاتهام قد ثبت عقمه وفساده ، ومرد ذلك أن الكنيسة المسيحية أعطت الأباطرة الوازع الدينى ومدت يها إلى المحرومين خلال المجاعات والغزوات البربرية التى هددت الشعب الرومانى بالموت ، وكان أثر المسيحية فى أخلاق الرومان أثراً طيباً ففى الوقت الذى كانت فيه شمس الإمبراطورية الرومانية تميل إلى الغروب كانت الكنيسة

تبنـى تنظيماً قدر لـه أن يواصل رسالته بعد زوال تلك الإمبراطوريـة ، حتـى تبوأ ذلك التنظيم مكانة السيادة فى روما وصارت القوة الحدية فى أوروبا . (٤)

ولا يقل رد المؤرخ كولتون اقتناعاً عن ردبينز فقد ذكر قائلاً : " كانت المسيحية كسباً حقيقياً للإمبراطورية الرومانية فالمجتمع الرومانى كان قد وصل إلى مرحلة تفشى فيها الانحلال والمساوئ فى الوقت الذى تدهورت فيه الأصالة فى الآداب والعلوم والفنون وعهد بأمر الدفاع عن الإمبراطورية إلى الجرمان والمتبربرين ، وكانت الطبقة الوسطى عصب الحياة فى المجتمع الرومانى تسام الاضطهاد والقسوة عن طريق نظام ضرائبى مرهق وفى وسط مظاهر ذلك الانحلال ظهر الدين الذى قاد الناس إلى قيم جديدة وأخلاق سامية تخالف ما كان مألوفاً من قبل . (٥)

أما المؤرخ الإنجليزى أونولد توينبى *(Arnold Toynbee)* فقد أعتقد فى كتابه " مختصر دراسة التاريخ " أن الإمبراطورية الرومانية قد سبقها عصر اضطربات يعود امتداده إلى الوراء إلى حرب هانيبال (٢١٨-٢٠٢ق.م) على الأقل وهو عصر أخفقت فيه الحضارة الإغريقية وتوقف المجتمع الهلينى خلاله عن الابتداع ، وبدأ تدهوره الفعلى أمراً واضحاً ، وإن كان قد أمكن وقفه حقبة من الزمن بفضل قيام الإمبراطورية الرومانية ، ولكن تلك الإمبراطورية – كما يستطرد توينبى – سقطت لأنها عجزت عن منافسة الكنيسة لأن الكنيسة تولت الزعامة وكسبت ولاء الناس لها بينما فشلت الإمبراطورية فى الفوز بهذا أو ذاك . (٦)

وهناك المؤرخ ج. ليبج *(J.Liebig)* واتباعه الذين أرجعوا تدهور الإمبراطورية إلى أسباب اقتصادية ففى رأيهم أن الأرض الزراعية أصابها الضعف والانهاك يوماً أثر يوم واستنفذت قدرتها على الإنتاج ولم يعد الفلاح يستطيع الاعتماد عليها فى كسب معاشه ، وقد رفض رستوفتزف ذلك الرأى وذكر أنه قد يصدق على بعض أجزاء اليونان وإيطاليا فالسبب الأساسى فى جدب التربة فى بعض

جهات إيطاليا يرجع إلى قطع الغابات وإهمال صرف المياه والقول بإنهاك التربية فى إيطاليا فى القرنين الثانى والثالث تعميم غير مقبول . (٧)

ويضيف بينز ذكراً أن هذا الرأى لا ينطبق على جميع ولايات الإمبراطورية فكل قرى مصر قد أصابها الخراب والبوار رغم خصوبة أراضيها الزرايعة ووفرة وسائل الرى بها ، على حين أن الزراعة فى إقليم الغال قد ازدهرت خلال القرنين الرابع والخامس بفضل العناية الدائبة التى أبداها أصحاب الملكيات الزراعية من الطبقة الأرستقراطية . (٨)

ويرى المؤرخ الروسى ميخائيل وستوفتزف (٩) ***(M.Rostovtzeff)*** فى كتابه " تاريخ الإمبراطورية الرومانية والاجتماعى والاقتصادى " أن لانحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها وجهين : أولهما سياسى واجتماعى واقتصادى ، وثانيهما ثقافى ، فمن الناحية السياسية اصطبغت تلك الإمبراطورية من الداخل – بالتدرج – بصبغة همجية وخاصة فى الغرب ، وقد وصل الجرمان فى القرنين الثالث والرابع إلى مناصب عالية فى الحكومة والجيش ، إما عن طريق التغلغل السلمى ، أو عن طريق الغزو ، ومن وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية يرى رستوفتزف أن العالم القديم قد عاد تدريجياً إلى أشكال بدائية من الحياة الاقتصادية ، فالمدن التى كانت مزدهرة وساهمت فى نمو تلك الحياة انحطت تدريجياً ، واختفى أكثرها من على وجه الأرض اختفاء يكاد يكون تاماً ، وقد سار النظام الاجتماعى فى الإمبراطورية فى نفس الطريق المؤدى إلى الانحلال ، أما الظاهرة الأساسية من وجهة النظر الثقافية فهى انحلال حضارة المدن فى العالم اليونانى الرومانى ، فالمدن اليونانية شهدت انتصارات عظيمة فى ميادين العلم والأدب والفن ، بدأ الانحلال يدب فيها منذ القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم أعقبت ذلك الانحلال نهضة مؤقتة تحققت فى مدن الإمبراطورية الرومانية ، ولكن تلك النهضة توقفت وقوفاً يكاد يكون تاماً فى القرن الثانى بعد الميلاد وبعد فترة من الركود دب مرة أخرى انحلال سريع مطرد ، ولم تعد تلك المدن

تصبغ بصبغة رومانية فالطبقات الدنيا من السكان أخذت تغطى على سكان المدن أو الطبقات العليا وهناك وجه آخر لتلك الظاهرة هو الاختلاف الفكرى بين عقلية الطبقات السفلى والطبقات العليا والذى حدث أن الطبقات السفلى أعرضت عن الثقافة الأصيلة ووقفت منها موقفاً عدائياً ، واستطاعت فى النهاية أن تقضى على مكانتها ويخرج رستوفتزف من هذا كله إلى أن الطابع البارز فى انهيار الحضارة الرومانية هو احتواء الطبقات السفلى للطبقات العليا فى جميع المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية فى القرن الثالث الميلادى ، وأن تسدد ضربة قاتلة للحضارة الرومانية فى المدن ، وفى النهاية طغى طوفان من العناصر البربرية الآتية من الخارج عن طريق التغلغل السلمى أو الغزو فأغرق تلك الحضارة ، ولم تستطع تلك الحضارة وهى تغالب سكرات الموت أن تستقطب ولو جانباً صغيراً من هذه العناصر .

أما المؤرخ نورمان بينز [١٠] *(Norman H. Baynes)* فقد درس مختلف النظريات التى جاءت بها شتى المدارس التاريخية حول انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوروبى فى مقالته " اضمحلال النفوذ الغربى وأسبابه " وبعد أن قام بالرد عليها اختتم مقالته فى هذا الموضوع موضحاً رأيه الخاص بقوله : " لقد اعتمد الأباطرة على الجنود الجرمانى فى الدفاع عن الإمبراطورية ، وهو إجراء محكومة عليه بالفشل ذلك أن الإمبراطورية من أجل الحفاظ على مصالحها حرصت على خدمات حلفائها من الجرمان ، الأمر الذى استلزم دفع مبالغ طائلة لهم ، فى وقت كانت تعانى فيه خزانة الدولة الإفلاس الشديد حتى أنها لم تستطع توفير الموارد الكافية للحفاظ على الأسطول والجيش إذاً هناك حقيقة أساسية تكمن فى أن حكومة الغرب الأوروبى لم تستطع أن تفعل أكثر مما فعلت فى أيامها الأخيرة لأنه لم يكن لديها ما تواجه به متاعبها ، ولذلك خرجت بريطانيا من أيدى الإمبراطورية ، ووقعت أغنى أراضى فرنسا فى أيدى القوط وسقطت أفريقية فريسة فى أيدى الوندال الأمر الذى ترتب عليه أن

فقدت روما سيادتها على البحر المتوسط لقد تغلغل الجرمان فى أراضى الإمبراطورية وحاربوا إلى جانبها فى الوقت الذى كانت فيه أشد الحاجة لمواجهتهم وهنا نلاحظ أن الأرستقراطية الرومانية رغم أنها كانت على درجة عظيمة من الثراء لم تساهم فى المحافظة على كيان الإمبراطورية بإنقاذها من وهدة الإفلاس التى ترددت فيها " .

ويرى المؤرخ الفرنسى فرديناند لوت *(Ferdinand Lor)* فى كتابه " نهاية العالم القديم وبداية العصور الوسطى " أن الجرمان لم يحطموا الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، ولكنها ماتت بسبب ما كانت تعانيه من أمراض فى داخلها ، وقد حاولت الإمبراطورية خلال القرنين الأخيرين من حياتها أن تقاوم متاعبها الاقتصادية والاجتماعية والعنصرية التى كانت السبب فى انحلالها ، ولكن محاولتها باءت بالفشل بسبب ما تبتنه من سياسة تقليدية جامدة (محافظة) غير مرنة ، ولم يكن باستطاعة الإمبراطورية أن تهرب من قدرها المحتوم ، فالوقت الذى ينبغى فيه أن تزول قد جاء والمشاهد أن مقاومة الإمبراطورية من أجل البقاء أخذت تنهار سريعاً منذ نهاية القرن الرابع ، حتى إذا أقبل القرن الخامس لم تعد لها القدرة على إنقاذ نفسها من الانهيار وانقلبت آخر رمق من القوة من بين يديها الواهنتين .

ويرى المؤرخ كاتز *(Katz)* فى كتابه " أفول روما ونشأة أوروبا العصور الوسطى " أن انهيار روما لم يأت فجأة أو نتيجة كارثة عنيفة حادة ، وإنما أتى تدريجياً خلال أزمة امتدت قروناً عديدة وأشار كاتز إلى أن الباحثين وتناولوا مشكلة اضمحلال النفوذ الرومانى فى الغرب الأوروبى ، ووضعوا لها حلولاً تجنح إلى المبالغة فأحياناً يقع اختيارهم على أحد عوامل ذلك الاضمحلال ، ويجرى تركيز الضوء عليه باعتباره السبب الوحيد مع التقليل من شأن العوامل المشتركة الأخرى ، وعلى سبيل المثال لا الحصر غزوات البرابرة أو إجهاد التربة الزراعية ، وفى راه أن سبب الاضمحلال لا يرجع إلى عامل واحد ، بل إلى عدة

عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية متفاعلة ومتداخلة وفى اعتقاده أيضاً أنه من المستحيل – من الناحية العملية – أن نعطى أولوية لأى عامل من عوامل الانهيار ، طالما أن كل عامل يتفاعل مع الآخر أو يكون سبباً له .

ويذكر المؤرخ الفرنسى أندريه بيجانيول *(Andre Peganiol)* فى كتابه " الإمبراطورية المسيحية " أن روما قد أقدمت على اتخاذ خطوة جريئة فى القرن الرابع الميلادى عندما عهدت بمهمة الدفاع عن حدودها إلى قبائل بربرية سبق أن احتضنتها وتحالفت معها ، فسمحت للفرنجة بالإقامة فى توكساندريا (شمال بلجيكا الحالية) نظير الدفاع عن الراين وعهدت بحراسة جبهة الدانوب لجماعات الوندال والقوط الشرقيين الذين أقاموا فى بانونيا ، والقوط الغربيين الذين استقروا فى مؤيسيا ، وعلاوة على ذلك أدخلت روما العديد من الجرمان فى الجيش الرومانى ، وجعلت أحسن الفرق العسكرية مؤلفة منهم فى الوقت الذى شغل فيه ضباط برابرة أعلى المناصب فى الجيش ، فوصل البعض منهم إلى رتبة قائد القوات الرومانية ، وقد دفع ذلك كله المؤلف الكلاسيكى سنيسيوس (حوالى ٣٧٠ –٤١٣) *(Synesius)* إلى توجيه اللوم إلى الإمبراطور أركاديوس قائلاً : " لقد أصبحنا تحت حماية جيوش مؤلفة من رجال يرجعون فى أصولهم إلى نفس سلالة عبيدنا " ثم أشار عليه أن حل تلك القضية سوف لا يتحقق إلا بالأخذ بنظام الخدمة العسكرية الإجبارية (التجنيد الجبرى) ولما رفضت روما صبغ جيشها بصبغة رومانية تامة أدى ذلك فى النهاية إلى هلاكها ، وقد استبعد بياجانيول فكرة انهيار الإمبراطورية فى القرن الرابع ورغم أن غزوات البرابرة قد نهبت روما وشوهت صورتها فى القرن الثالث ، إلا أنها كانت تنهض من جديد واستطاعت فى نفس الوقت أن تحدث عملية تحول داخلى على حساب الأزمة الخطيرة وأخذت تتكون رؤية جديدة للسلطة الإمبراطورية اعتنقتها بيزنطية فيما بعد وليس صحيحاً أن كل الآلام التى

قاستها الإمبراطورية مثل الضرائب المراهقة واهتزاز الثروات وتحلل الطبقات الاجتماعية ، كانت بسبب عملية التحول وإنما كانت نتيجة الحروب المتواصلة التى أشعلتها جماعات البرابرة عند حدود الإمبراطورية وقد استنكر بيجانيول الإدعاء القائل أن " كل شئ كان ميتاً " عند وصل البرابرة إلى الإمبراطورية واستبعد أيضاً أنها تلقت ضربة قاصمة من الجرمان أتت عليها ، فالواقع أنها كانت جسداً مرهقاً مثخنا بالجراح غلبها " نعاس طويل " لم يقض عليها قضاء تاماً وإنما تم اغتيالها غدراً على أيدى أعدائها الجرمان . (١١)

ويطلعنا المؤرخ ليسنر *(Laistner)* فى كتابه " فكر وآداب الغرب الأوروبى من ٥٠٠ إلى ٩٠٠ " على رأيه موضحاً أن غوزات الجرمان لم تكن الطوفان العنيف المفاجئ الذى اجتاح الإمبراطور الغربية وأودى بها ذلك أن اضمحلال تلك الإمبراطورية وسقوطها كانا عملية تدريجية بطيئة استمرت قرنين من الزمان وكان من الممكن أن تتخذ تلك العملية مسيرة أبطأ لولا غزوات قبائل الهون المتبربرة التى أفزعت المجتمع الرومانى والجرمان على حد سواء ، ومن الواضح أنه حدثت تغيرات شملت الرومان والجرمان معاً خلال هذين القرنين بدليل أن كل الغزاة على وجه التقريب صاروا على دراية بالحضارة الرومانية بصورة متفاوتة وينبغى ألا ننساق وراء الكتاب اللاتين المعاصرين وهم بصدد الحديث عن اضمحلال وسقوط الإمبراطورية فى الغرب فقد أِاروا إلى أن البرابرة ألحقوا الدمار الشمال بالمدن على حين أثبتت الكشوف الأثرية أنهم كانوا مبالغين إلى حد بعيد صحيح أن كثيراً من الأماكن قد قاست بسبب غزوات البرابرة ، ولكنها سرعان ما كانت تستعيد مظاهر ازدهارها القديمة أما الأماكن التى قدر لها أن تتحول إلى حطام فى أعقاب غزوة جرمانية فإنها فى الواقع لم تهجر تماماً ويصل ليسنر فى ختام حديثه إلى أنه مثلما اختلطت دماء الإمبراطورية الرومانية بالدماء الجرمانية قبل سقوطها بأمد طويل فكذلك صارت الشعوب الجرمانية خلال زحفها على الإمبراطورية الرومانية .

ويصور هودجكين *(Thomas Hodgkin)* فى كتابه " إيطاليا وغزواتها " سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب قائلاً : " لقد سقطت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوروبى ، لأنها استنفذت الغرض التى قامت من اجله وحان الوقت الذى يجب فيه أن تزول بعد أن شاخت وهرمت ، كان قيام تلك الإمبراطورية وامتداد نفوذها إلى كل بلاد العالم المتحضرة نعمة جليلة للبشرية وعلى قدر تلك النعمة كان حكمها الطويل نقمة لعينة رغم سلسلة الأباطرة المصلحين الذين اعتلوا عرشها مثل تراجان (٩٨-١١٧) وماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠) . لقد منحت تلك الإمبراطورية جميع الشعوب المطلة على البحر المتوسط السلام والنظام وسيادة القانون كما أنها مهدت لانتشار المسيحية ، ولكن بعد أن طال عمرها وابتعدت عن الطريق المستقيم سلبت تلك الشعوب حريتها وقضت على فضائل الرجل الحر بعد أن طال وقوعه تحت نير السلطة الغاشمة المستبدة ، وعندئذ حانت الفرصة للشعوب الجرمانية لتجدد شباب العالم الأوروبى ، وتأتى بالصخب النشيط لبلاد ذلك العالم الذى ران عليه السكون والانقباض الموحش وامتلأ بالعبيد والطغاة المستبدين . وفى إيجاز لقد قام ببناء الإمبراطورية وسقط فى النهاية ، وهذه إرادة الله ، ولا راد لقضائه وحكمه .

وتناول المؤرخ سيدنى بينتر *(Sidney Painter)* فى كتابه " تاريخ العصور الوسطى " تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية فى سطور قليلة قائلاً : " إن ازدهار الإمبراطورية المادى والحضارى كان قد بدأ السير فى طريق الأفول ، قبل أن يقتحم الجرمان والمتبربرون حدود الإمبراطورية فى إعداد هائلة وكل ما فعله أولئك الجرمان أنهم عجلوا بأمر كان قد بدأ فعلاً " .

ويذكر المؤرخ كلوف *(Clough)* وآخرون فى كتابهم " تاريخ العالم الغربى " أن الغزوات البربرية كان لها تأثير فعال على خيال المؤرخين المعاصرين لأحداثها لدرجة جعلتهم يقررون أن البرابرة كانوا سبب القضاء على

الإمبراطورية الرومانية ، ولكن الباحثين المحدثين رفضوا أى تفسير بذاته ، ذلك أن أزمات الإمبراطورية الرومانية المتأخر ترجع إلى عوامل متداخلة داخلية وخارجية ، وتكمن العوامل الداخلية فى فشل الإمبراطورية فى إيجاد نظام ثابت لوراثة العرش وسياسة الإمبراطورية تجاه البرابرة ، ونقص القوى البشرية ، وهروب الموظفين المدنيين من ثقل الأعباء الملقاة على أكتافهم وتحلل الطبقات الاجتماعية وثقل الضرائب الملقاة على الأقاليم والولايات لمساعدة الجيوش الرومانية ، كل تلك العوامل ساهمت فى حدوث الأزمات التى ألمت بالإمبراطورية فى الوقت الذى ضاعفت فيه غزوات البرابرة من خطورة تلك العوامل .

وأخيراً لم يكن سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوروبى سنة ٤٧٦م سببه غزوات الجرمان الذين سددوا إليها ضربات تلو أخرى فحسب بل جاء أيضاً نتيجة عوامل التحلل والتفكك التى أخذت تنهش فيها من الداخل منذ القرن الثالث الميلادى ، وهنا نلاحظ أن تلك العوامل كانت بطيئة غير مباشرة لم تظهر فجأة على السطح ولم تفلح المحاولات المخلصة التى قام بها بعض الأباطرة الغيورين على مجد الإمبراطورية ووحدتها فى إيقافها ، ومهما يكن الاتفاق أو الاختلاف حول أسباب سقوط تلك الإمبراطورية فإن ذلك يعنى فى كلمات قليلة أنه من المستحيل القضاء على أية حضارة عظيمة من الخارج ما لم تكن تلك الحضارة قد قضت على نفسها من الداخل . (١٢)

أما الدكتور جوزيف نسيم يوسف فيرى أن سقوط الإمبراطورية الرومانية كان لعدة أسباب مجمعة منها التفكك الإدارى ، الفوضى المالية ، تدهور الحياة الاقتصادية ، تمركز القوة الحقيقية للدولة فى أيدى العناصر الجرمانية ، الأخطار التى هددت حدود الدولة ، انغماس الرمان فى حياة الترف والملذات ، تدهور النظم الاجتماعية ، الاختلافات الحضارية واللغوية والمذهبية بين شقى الإمبراطورية ، اقتباس روما والغرب من الديانات الشرقية ، إهمال روما فى الفترة الخيرة من حكم الرومان ، ظهور المسيحية واعتناق

الرومان لها ، استيلاء روما على ثقافات وحضارات أخنى عليها الدهر ، عدم محاولة روما إدخال حضارتها فى البلاد التى غزتها ، البرابرة وغزواتهم . (١٣)

وفيما يتعلق بالنظرات العامة للتدهور والسقوط نأتى إلى كتاب عظيم هو كتاب " المسيحية والحضارة الكلاسيكية " لكوشرين *(C.N.Cochrane)* وقد نشر سنة ١٩٣٩ ولكنه لم يلق من المؤرخين الاهتمام الذى يستحقه وانطلاقاً من رؤية كوشرين الأوغسطينية الجديدة ، يرى أن العيوب الأساسية للفكر الكلاسيكى كانت هى العقبة الكؤود فى سبيل استمرار الحضارة ، فيسبب الإيمان الساذج بقوة العقل الإنسانى اللامحدودة خرج القادة السياسيون والثقافيون للحضارة الكلاسيكية عن نطاق قدراتهم وحاولوا أن يخلقوا النموذج والمثل الأعلى فى مجالى السياسة والثقافة ، وشادوا بالعقل عالما كان يرتكز فى حقيقة أمره على ما هو غير عقلى فى الطبيعة الإنسانية مثل الغرائز الحيوانية والإيمان بالمقدسات التى استبعدتها نظرتهم الضيقة إلى الأمور ويختتم كوشرين نظريته بتأييد وجهة النظر المسيحية " الأوغسطينية " عن الطبيعة البشرية زوليس من الضرورى أن تكون للمرء حماسة أحد أصحاب النظرة الأوغسطينية مثل كوشرين لكى يعترف بأنه قد أبرز بحق أن الرؤية الخاطئة للطبيعة الإنسانية (والتى أفرزتها الحضارة الكلاسيكية) كانت سبباً أساسياً فى عجز قادة العالم الرومانى عن التعامل الواقعى مع المشكلات السياسية والاجتماعية والثقافية التى فرضت نفسها على عصرهم .

وثمة موضع جدلى ثالث – إلا أنه يساهم فى تفسير تدهور الحضارة الرومانية – ركزت عليه بالبحوث والدراسات الحديثة ومؤداه أن الإمبراطورية الرومانية لم تحقق سوى التجميع السطحى لحضارات عالم البحر المتوسط ففى شرق المتوسط بصفة خاصة لم تكن هناك غير صفوة قلية العدد من سكان المدن اتخذت لنفسها الصبغة الرومانية ، على حين ظلت جماهير السكان

متمسكة بشخصيتها اللغوية والدينية التى ترجع فى أصلها إلى عدة قرون قبل ذلك ، وما أن بدأت الحكومة الإمبراطورية تعانى من المشكلات العسكرية والاقتصادية وحين بات السلام الرومانى *(Pax Romana)* أقل جدوى ونفعاً عادت هذه القوميات تفرض نفسها فى قوة واستطاعت أن تكتسب – بالتدريج إلى صفوفها حتى تلك الصفوة التى كانت قد اتخذت لنفسها الصبغة الرومانية ، وفى القرنين الرابع والخامس كانت قد اجتذبت جماهير السكان بعيداً عن الولاء للنظام الرومانى ويقال فى هذا الصدد أيضاً أنه حتى بعض أفراد الأرستقراطية الرومانية القديمة لم يتوقفوا أبدا مع السلطة القيصرية وعملوا بحذق على تقويض دعائم الولاء للمثل الأعلى الإمبراطورى فى قلب العاصمة الإمبراطورية نفسها ، ونتج عن هذا التخريب الذى قام به السكان الوطنيون والأرستقراطيون الرومان أن تحولت السلطة الإمبراطورية إلى مجرد واجهة لا أكثر ، كما تحول الأغنياء والفقراء إلى قضايا داخلية بعيدة عن السلام الرومانى ، وحين نشهد بأنفسنا فى أيامنا هذه مدى ضحالة التغلغل الحضارى الأوروبى فى آسيا وأفريقية فى ظل حكم الإمبراطوريات الحديثة يمكن لنا أن نقدر أن عملية صبغ العالم بالصبغة الرومانية *(Roimanization)* لم تكن أكثر من مجرد تسرب ضحل واجهته مقاومة الحضارة الوطنية القديمة .

أياً كانت فعالية هذه النظريات المتضاربة فمن الواجب التأكيد على أن اضمحلال الإمبراطورية الرومانية كمثل أعلى لم يحدث بشكل كلى على الإطلاق إذ كاد المثل الأعلى الإمبراطورى أن يختفى خلال القرون الخامس والسادس والسابع فى الغرب ولكنه بقى قوياً فى الشرق متمثلاً فى الإمبراطورية البيزنطية وتم إحياؤه فى الغرب فى القرن التاسع فى إمبراطورية شارلمان وخلفائه ويعد استمرار فكرة روما فى العصور الوسطى أحد الموضوعات الأساسية فى التاريخ الوسيط ، فإن روما بالنسبة للشعب المسيحى كانت قد صارت مرادفاً لوحدة العالم السياسية والحضارية ، كما أن البيزنطيين لم يتخلوا عن هذه الفكرة إطلاقاً إذا كان إمبراطور القسطنطينية يعتبر نفسه إمبراطوراً رومانياً يخضع له كل من عداه

وبعد القرن السادس لم يعد هناك أساس واقعى للمفهوم البيزنطى عن الإمبراطورية فقد كان أفضل ما توصل إليه الحاكم البيزنطى هو الاحتفاظ بموضع مزعزع فى جنوب إيطاليا حتى بداية القرن الحادى عشر .

وفى الغرب إبان فترات الغزوات الجرمانية (٤٥٠-٧٥٠) ، كانت فكرة روما واهنة للغاية وحفظتها الكنيسة المسيحية والبابوية بصفة خاصة إذ أن البابا بوصفه أسقف روما اعتبر نفسه خليفة الإمبراطور الرومانى وبسبب منازعات البابوية مع الإمبراطورية البيزنطية تطلعت البابوية إلى ملك غربى يعيد بناء الإمبراطورية فى الغرب ، ويعيد بناء السلطة والوحدة السياسية إلى البلاد الكاثوليكية اللاتينية وهو الإحياء الذى تم فى عهد شارلمان فى بداية القرن التاسع وهكذا كانت فكرة الإمبراطورية ذات أهمية فائقة فى الغرب الأوروبى منذ القرن التاسع حتى القرن الرابع عشر كانت هذه فكرة ذات أهمية خاصة لدى ملوك الألمان منذ القرن العاشر حتى القرن الرابع عشر ، كانت هذه فكرة ذات أهمية خاصة لدى ملوك الألمان منذ القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر ، غذ أنهم اعتبروا أنفسهم خلفاء لشارلمان ، ولم يكن بوسعهم أن يمدوا نفوذهم إلى إنجلترا أو فرنسا ، إلا أن حكمهم تخطى جبال الألب مع سيطرة ضعيفة نسبياً على إيطاليا ، ولكن انهيار سلطة الإمبراطور الرومانى المقدس فى ألمانيا وإيطاليا فى القرن الثالث عشر حال دون أن تؤتى فكرة الإمبراطورية ثمارها فى شكل وحدة سياسية حقيقية قوية تضم الغرب فى العصور الوسطى .

من السهل أن نفسر تدهور الإمبراطورية الرومانية كدولة إذ كانت الإمبراطورية كدولة مترامية تشكل عبئاً باهظاً على سكانها وبحلول عام ٤٠٠ صارت سلطة ضاغطة مسيطرة ولم تقد سوى القليل فى مقابل هذا الظلم ولم تقم حتى بحماية السكان من غزوات الجرمان ، ومع بداية القرن الخامس كان هناك تناقص واضح فى ولاء الناس للإمبراطورية والإمبراطور وحين اختراق الجرمان حدود الإمبراطورية فى النهاية ، لم يهتم بإنقاذ الدولة الرومانية سوى نفر قليل من سكانها إذ كانت قد صارت وحشاً لا يستحق الإنقاذ . (١٤)

هوامش الباب الرابع

(١) محمود الحويرى : رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، ص ١٧٧ – ١٧٩ .
على الغمراوتى : لمحة البطولة الجرمانية ، (القاهرة) ، ص ٤٢– ٤٣ فشر (هـ. أ. ب) : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣١ .
نظير حسان سعداوى : تاريخ إنجلترا وحضارتها فى العصور القيدمة والوسطى ، ص ٣١ – ٣٢ . راوس (أ. ل) : التاريخ الإنجليزى ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة (القاهرة – ١٩٣٦) ، ص ١٧ –١٩ .

(٢) أسحق عبيد : العصور الوسط الأوروبية ، ص ٩٤ – ٩٥ .

(٣) جيبون (إدوارد) : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٣٥٢ – ٣٥٣ .

(٤) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

(٥) كولتون (ح. ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق حوزيف نسيم يوسف ، (الإسكندرية – ١٩٦٧) ، ص ٤٦ – ٤٧ .

(٦) توينبى (آرنولد) : مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة : فؤاد محمد شبل ، مراجعة محمد شفيق غربال ، (القاهرة : ١٩٦٦) ، جـ ١ ، ص ص ١٨ – ٢٥ .

(٧) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٨٤ . رستوفترف : تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، جـ ١ ، ص ٤٤٤ – ٤٤٥ .

(٨) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٩) رستوفتزف : تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، جـ ١ ، ص ٦٣٨ – ٦٤١ .

(١٠) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٨٥ – ١٨٦ .

(١١) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٨٦ – ١٨٩ .

(١٢) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٩٠ – ١٩١ .

(١٣) جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، (الإسكندرية – ٢٠٠٠) ، ص ٥٤ – ٦٥ .

(١٤) نورمان كانتور : التاريخ الوسيط ، جـ ١ ، ص ٤٤ – ٤٧ .

الباب الخامس
أوروبا والإسلام

أهداف الباب الخامس

يهدف هذا الباب إلى:

١- معرفة أثر الإسلام في أوروبا

٢- التمثيل الدبلوماسي بين المسلمين والفرنجة

الباب الخامس

أوروبا والإسلام

أثر الإسلام فى أوروبا :

على الرغم من أن الإسلام يعتبر ظاهرة شرقية من ناحيتى المولد والحضارة إلا أن أثره فى اوروبا كان خطيراً بحيث لا يمكن تتبع تاريخ أوروبا فى تلك العصور دون الإشارة إلى هذا الأثر ، حقيقة أن الدولة الإسلامية فى أقصى اتساعها لم تضم سوى أجزاء محدودة من أوروبا مثل أسبانيا وصقلية ، فضلاً عن بعض جزر أخرى معروفة فى البحر المتوسط ، ولكن يجب أن نذكر أن هذه الدولة ضمت جميع البلاد المطلة على الشواطئ الجنوبية والشرقية للبحر ، أى بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية فى الوقت الذى كانت حضارة أوروبا لا تزال ترتبط إلى حد كبير بذلك البحر ، وبعبارة أخرى فإن حركة التوسع الإسلامى ترتب عليها تحطيم الوحدة الحضارية للبحر المتوسط مما جعل مؤرخاً مثل بيرين يختار هذه الحركة بداية حقيقة للعصور الوسطى وحداً فاصلاً بينها وبين العصور القديمة ، هذا فضلاً عن أن الدولة الإسلامية غدت بحكم موقعها الجغرافى بمثابة الحلقة التى ربطت القارات الثلاث : أوروبا وآسيا وأفريقيا ، وبالتالى انتقال عن طريقها التراث الحضارى للشرق إلى أوروبا العصور الوسطى (١) .

انتشار الإسلام كعامل فى تشكيل تاريخ العصور الوسطى :

كان انتشار الإسلام عاملاً حاسماً فى تشكيل تاريخ العصور الوسطى ، ذلك أنه أدى إلى تقسيم عالم البحر المتوسط إلى حضارات ثلاث هى : البيزنطية والأوروبية والإسلامية ، وكان اللقاء والتفاعل بين هذه التجمعات الثقافية ، والاقتصادية واللغوية ، والدينية الثلاث واحداً من أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى ، فقد كانت كل من هذه الحضارات الثلاث وريثة للإمبراطورية الرومانية

المتأخر بدرجة أو بأخرى ، إذا كانت بيزنطة تمثل الاستمرارية المباشرة للقانون والإدارة والفكر الرومانى ، كما ورثت أوروبا الغربية جوانب كثيرة من التراث الرومانى ، على حين استوعب العالم الإسلامى بعض جوانب التنظيم الرومانى وأفضل جوانب الفلسفة والعلوم اليونانية والرومانية ، وعلى الرغم من هذا فإن الحضارة الإسلامية تدين بالكثير للتراث الشرقى لاسيما تراث مصر وفارس ، وقد أثرت الحضارة الشرقية فى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة أيضاً ، ولكن الحضارة الإسلامية كانت أكثر حضارات العصور الوسطى احتكاكاً بالتراث الشرقى . [٢]

أسباب حركة الفتح :

والوقع أن أسباب حركة الفتوح العربية الإسلامية ، والسرعة الفائقة التى تمت بها هذه الحركة ، والنجاح الكاسح الذى أحرزته ، كانت من الموضوعات التى احتلت جزءاً كبيراً من تفكير المؤرخين المحدثين ، ذلك أنه لم تكد تمضى على وفاة الرسول سبعون سنة حتى كان الإسلام قد امتد من المحيط الهندى حتى المحيط الأطلسى ، حقيقة أن ضعف الفرس والروم كان من العوامل المساعدة التى سهلت مهمة الفتوح العربية الإسلامية ، ولكن لابد من وجود قوى دافعة أدت بالعرب إلى الصبر على الجهاد طوعاً لا كرهاً ، حتى استطاعوا أن يحدثوا هذه الثورة الضخمة فى تاريخ العالم ، وهنا حاول بعض الباحثين تفسير هذه القوة على أسس اقتصادية بحتة ، فالأستاذ بيكر ***(Becker)*** يريد أن يثبت أن حركة الفتح العربى فى القرن السابع لم تكن مفاجئة – كما تبدو – وإنما هى حلقة أخيرة فى سلسلة طويلة بدأت قبل ذلك بعدة قرون وأدت إلى خروج كثير من الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية نتيجة لتقلب الأحوال الاقتصادية فيها وما أصاب البلاد نتيجة لذلك من ضعف جاء مصحوباً بانهيار سد مأرب فى القرن السادس ، وبعبارة أخرى فإن تعرض شبه الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هو الذى دفع شعوبها السامية إلى الهجرة ، ولا فرق فى ذلك بين الهجرات السابقة التى قام بها الأراميون والكنعانيون أو الهجرات اللاحقة

التى قام بها العرب قبل ظهور الإسلام ، ويميل برناردلويس إلى مشاركة بيكر هذا الرأى ن فيقول أن بلاد العرب شهدت فى قديم الزمان خصباً عظيماً أعقبه جفاف مستمر مما أدى إلى زحف الصحراء على حساب الأراضى الخضراء ، حتى أخذ سكان هذه البلاد يخرجون منها على هيئة هجرات بعد أن ضاقت سبل العيش فى وجوههم ، أما توماس أرنولد فيعبر عن هذه الفكرة تعبيراً أكثر جرأة وأوضح صراحة حين يقول : أن حركة التوسع العربى كانت هجرة جماعية نشيطة دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة وتحتاج بلاداً أكثر خصباً كانت ملكاً لجيران أسعد منهم حظاً .

ومن الواضح أن هذا الرأى يحوى كثيرا من المبالغة والبعد عن الحقيقة لأنه يغفل أثر العامل الدينى والرغبة الصادقة فى الجهاد والاستشهاد ، وهى الروح التى تثبت الوقائع التاريخية أنها سيطرت على جيوش العرب فى الدور الأول من أدوار حركة التوسع ، حقيقة أن مؤرخاً مثل توماس أرنولد يقول " أن الحماسة الدينية وبواعث العقيدة لم تكن قد تسربت إلا قليلاً فى نفوس أبطال الجيوش العربية " ، ولكن هل نصدق توماس أرنولد فى القرن العشرين أو نصدق حاكماً رومانياً معاصراً فى القرن السابع وقد أرسل إليه الإمبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين فرد عليه الحاكم المسيحى قائلاً : " أنهم أقل منا عدداً ولكن عربياً واحداً يعادلا مائة من رجالنا ، ذلك أنهم لا يطمعون فى شئ من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لأنه أفضل طريق يوصلهم إلى الجنة ، فى حين نتعلق نحن بأهداب الحياة ونخشى الموت ، يا سيدى الإمبراطور " . أما بيرين *(Pirenik)* فيؤكد أن الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت إلى نجاح العرب فى حركتهم التوسعية ، ويقول أن الفارق كبير بين الجرمان أو المغول الذين غادروا بلادهم ومهم نساؤهم وأطفالهم ورقيقهم ومواشيهم بغية السلب والنهب والحصول على أرض جديدة تدر عليهم من خيراتها ما يكفل لهم عيشاً رغيداً وبين العرب

الذين خرجوا فى أوائل القرن السابع ينادون بأن لا إله إلى الله محمد رسول الله دون أن يحملوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم ، حقيقة أن حركة الفتح الإسلامى أعقبتها حركة أ×رى للهجرة والاستقرار فى الولايات الجديدة التى تم فتحها ، ولكن هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ إلا بعد أن انتهت الأولى بنحو قرنين من الزمان تغيرت فيهما أوضاع البلاد المفتوحة وأصبحت جزءاً من الوطن العربى الكبير . (٣)

تأثير الإسلام على النواحى الحضارية فى أوروبا :

ولا يقتصر أثر الإسلام ونشاط العرب فى تاريخ العصور الوسطى على مجرد إعادة تشكيل الحدود السياسية وما حدث من تحولات هائلة فى أوضاع القوى المعاصرة ، وإنما تعدى ذلك إلى التأثير على النواحى الحضارية ، فعلى الرغم من أن العرب كانوا أول الأمر يتميزون ببعض صفات العالم القبلى التى لم تتأثر كثيراً بعامل الزمن كحب الانتقال والمغامرة والميل إلى حياة البداوة ، والضيق من نظام الحكومة ورسومها القائمة على غير المألوف عندهم من نظام القبيلة أو العشرية ، فإنهم سرعان ما أثبتوا أنهم أمة ذات حيوية وطاقة كبيرة ولديهم من إمكانية استيعاب الجوانب الحضارية المتعددة للأمم الأخرى وتشربها ما كان كفيلاً بمنحهم مكانتهم السامية فى أسرع وقت ، فضلاً عما ادخروه من صفات التنظيم وحب التعلم ما لم يتوفر لدى الشعوب البدائية والشعوب المتبربرة من قبلهم فكانوا أسرع من الجرمان فى الإفادة من بقايا المؤثرات اليونانية والسريانية والرومانية والتراث الفارسى والهندى والصينى ، وأكثر منهم حرصاً على تطوير ما صار لهم من حضارة ناضجة ، بل ونشرها على العالم بصورتها الجديدة الحافظة لأهم خصائصها الجوهرية ومميزاتها الأساسية وصار العرب بذلك يختلفون عن الجرمان اختلافاً جوهرياً ، ففى حين اعتنق الجرمان ديانة ولغة الإمبراطورية التى غزوها ، فقد احتفظ العرب بلغتهم وديانتهم فلما لبثت الشعوب

المقهورة أن أخذت بها واعتنقتها وفى حين نزل الجرمان فى جماعات صغيرة سرعان ما تبعثرت فى الريف الأوروبى واندمجت فى سكانه وتشربتها الشعوب الأوروبية التى غلبت عليها الصفة الرومانية ، ظل العرب يحتفظون بكيانهم فى الجهات التى نزلوا بها ولم يختلطوا فى أول الأمر بشعوبها ، بل أقاموا لأنفسهم مدناً اتخذت الطابع الإسلامى ومثلت معسكرات أو مقر حاميات يختلف إليها السكان الوطنيون يمارسون تجارتهم ويصرفون فيها صناعتهم ، وحين أعقبت موجة الفتوح الأولى حركة استيطان جماعة للعرب فى الأراضى المفتوحة حيث نزلوا بنسائهم وأطفالهم بعد نحو قرنين من الزمان من بداية الفتوح الإسلامية كانت هذه المدة لاحتفاظ العرب بكيانهم وعدم التشرب فى تلك الشعوب المغلوبة بل والتأثير فيها تأثيراً روحياً ولغوياً وحضارياً ، وعندما صرح للعرب بامتلاك الأراضى وحيازتها زمن الأمويين ، بعد أن اكتملت الفتوح وتوطدت دعائمها نزحوا إلى الريف وامتزجوا بالسكان الأصليين ، ولما جرى إسقاط العرب من ديوان الجند زمن العباسيين ساح العرب فى القرى والأرياف طلباً للرزق من الزراعة والتجارة واشتدت حركة امتزاجهم بالسكان المحليين فأخذ الإسلام ينتشر انتشاراً واسعاً وتتسيد اللغة العربية وتختفى شيئاً فشيئاً اللهجات المحلية .

وليس من شك فى أن الإسلام أعطى للعرب شعوراً روحياً هائلاً استندت إليه الفتوح الإسلامية والجهاد فى سبيل الله لكنه فى نفس الوقت أعطاهم نظاماً ممتازاً للحكومة ومنحهم المقاييس اللغوية والتشريع العظيم ما جعلهم يؤثرون تأثيراً واضحاً ودائماً فى الشعوب التى سادوها لدرجة جعلت البلاد المفتوحة ملزمة بتطويع نفسها على الأخذ بالنظم الإسلامية الجديدة والالتزام بتعاليم الإسلام والتخلى عن النظم القديمة والإدارة والتشريع القديم ، بل والتخلى أيضاً عن اللغة والكتابة المحلية وفى ذلك تصوري لذروة النجاح الإسلامى فى مجال التأثير الحضارى لدى الشعوب والمم التى دانت له أو دخلت فى دائرته . (٤)

غير أن ذلك كله لم يحدث بطرق الإكراه ولم يحاول المسلمون فرض دينهم أو عقيدتهم فى البلاد المفتوحة كرهاً أو بحد السيف فمن الثابت أن الإسلام اتصف بالتسامح فى معاملة المغلوبين وترك المسلمون حربه العقيدة وممارسة الشعائر الدينية حرة أمام الشعوب التى سادوها ومع هذا انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً بين الشعوب التى لاشك اهتدت إلى ما فيه من أسس تكفل الخير للناس فى الدنيا والآخرة وإلى ما دعا إليه من وحدانية وتظهر ومساواة وما أتى به من نظم وتشريع قويم وجد طريقه بسهولة إلى قلوب الناس ، فضلاً عما اتصف به ودعا إليه من تسامح ، كل ذلك له ضلع فى انتشار الدين الجديد رغباً لا رهباً وطواعية لا كرها .

وكان للعرب مكانتهم بصرف النظر عن عقيدتهم والدليل على ذلك ما لقيته الأخطل الشاعر العربى المسيحى من تقدير لدى خلفاء بنى أمية ، وما حازه القديس يوحنا الدمشقى من مكانته لدى المسلمين ، وهو عالم اللاهوت المسيحى الذى صرف جانباً كبيراً من نشاطه للدفاع عن عبادة الصور والأيقونات ، إذ تولى هذا الرجل بيت المال الإسلامى ونال تقديراً كبيراً من المسلمين ، بل حدث أن اقتسم المسلمون والمسيحيون مكاناً واحداً للعبادة فاتخذ المسلمون طرفاً من بناية واحدة مسجداً فى حين جعل المسيحيون الطرف الآخر كنيسة .

سمت الحضارة الإسلامية إذن عن حضارة أوروبا فى العصور الوسطى ، وقل نشاط الأوروبيين عن المسلمين دون شك فى هذا المجال ولهذا لم تكد أوروبا تنتبه فى الشطر الأخير من العصور الوسطى إلى أهمية الحضارة الإسلامية وإلى ضرورة الإفادة منها حتى أقبل الأوروبيون على أقرب المراكز الإسلامية بالنسبة لهم لاسيما فى أسبانيا وصقلية وراحوا ينهلون من معينها ويستوعبون علومها ، وعكف المترجمون على ترجمة الكتب العربية فى كافة الجوانب العلمية ، وخاصة جهود العرب فى مجال الفلسفة ، وما نقلوه عن

الأصول اليونانية ودانت بعض الجامعات الأوروبية بنشأتها واستمرارها للعلوم العربية وظلت الكتب والمعارف العربية تغزو المجال الفكرى الأوروبى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر واعترف بفضلها الكتاب الأوروبيون أنفسهم حتى يمكن القول أن ما شهدته أوروبا من نهضة حضارية منذ أواخر العصور الوسطى تدين بجانب كبير من الفضل فيه للعلوم والمعارف العربية فى الطب والهندسة وحساب المثلثات والجبر والجغرافيا والطبيعية والكيمياء والفلسفة والآداب ومختلف العلوم والفنون . وأخيراً أن ما قام به العرب من حفظ الأصول اليونانية فى مجال الفلسفة كان فى حد ذاته خدمة للعلم نظراً لأن تلك الأصول ضاعت بعد ذلك أو جرى إغفالها ولولا أن العرب كانوا قد حفظوها لظلت أوروبا تجهل كثيراً من أسس تلك الفلسفة – التى كان لها ضلع فى تطور الفلسفة – الأوروبية فى تلك العصور . (٥)

على أن أثر المسلمين فى تاريخ العصور الوسطى لا يقف عند التغيرات السياسية التى أحدثوها فى أوضاع العالم المعروف ، وإنما يبدو هذا الأثر أشد ما يكون وضوحاً فى الميدان الحضارى ، وهنا نجد الحضارة العربية الإسلامية تقوم على دعامتين أساسيتين هما اللغة العربية والديانة الإسلامية ، ومازالت السرعة التى انتشرت بها اللغة العربية والديانة الإسلامية تعتبر لغزاً يثير حيرة المفكرين فاللغة العربية ليست باللغة السهلة القليلة التعقيد حتى يقال أن سهولتها أدت إلى سرعة انتشارها من المحيط الأطلسى حتى بحر فارس ومع ذلك فقد نجحت اللغة العربية فى أن تبسط سيادتها على جميع البلاد التى فتحها العرب وحكموها زمناً طويلاً باستثناء فارس ، لذلك لم يستطع الباحثون تفسير ظاهرة انتشار اللغة العربية إلا فى ضوء انتشار العقيدة الإسلامية نفسها وما تطلبته هذه العقيدة من معرفة بقواعد اللغة العربية لأداء فروض الدين ، ويقول بيكر أن أوروبا العصور الوسطى نظرت إلى انتشار الإسلام من وجهة النظر الكنيسة الدينية ، وكأن الكنيسة قد أفزعها وآلمها ضياع بلاد مثل الشام ومصر

وشمال العراق ترتبط جميعاً بأصول المسيحية ونشأتها فراحت تفسر انتشار الإسلام فى هذه البلاد بأنه لم يتم إلا بحد السيف . ولكن بيكر يؤكد أن هذه النظرة – التى مازال بعض المتعلمين فى أوروبا حتى اليوم يعتقدون فى صحتها – بعيدة عن الواقع لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالى البلاد المفتوحة ، وإنما فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير ، فسيطرة العرب السياسية هى التى تمت بقوة السلاح ، أما الديانة الإسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها تلقائياً إلى قلوب نسبة كبيرة من أهالى البلاد المفتوحة ، بدليل ما جمعت عليه الوثائق من تسامح المسلمين المطلق مع المسيحيين واليهود سواء ، وهو تسامح لم يحظوا به فى ظل حكامهم السابقين .

وقد أجمع الباحثون على أن الحضارة الإسلامية كانت أعظم حضارة شهدها العالم فى العصور الوسطى ، فالعرب لم يكونوا مثل غيرهم من العناصر البربرية من جرمان ، وغير جرمان الذين انسابوا دخل الإمبراطورية الرومانية والذين لا تقترن أسماؤهم فى التاريخ غالباً إلا بالهدم والتخريب ، وفى الوقت الذى نسمع بما أحدثته إغارات الهون والوندال والقوط من تخريب شمال لكثير من أقاليم أوروبا وأفريقية إذا بالبلاد التى فتحها العرب واستقروا فيها تتحول إلى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم المعروف للتذود والاستنارة ، وحسبنا أن نوازن بين أحوال بعض البلاد الأوروبية مثل أسبانيا وصقلية ، قبل فتح العرب لها وأحوالها بعد استقرارهم بها ، إذ تبدلت أوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب إلى نشاط فكرى وتقدم اقتصادى وعمران شامل وازدياد مطرد فى السكان والأموال .

حقيقة أن العرب عندما خرجوا من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع ليقوموا بحركتهم التوسعية الكبرى لم يكن لديهم تراث حضارى شامل بمعنى الكلمة ، ولكن العرب كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو القدرة على استيعاب حضارات الآخرين وتشرب أصولها ، وبفضل هذا استطاع العرب أن

يتشربوا بسرعة ما وجدوه من دراسات وثقافات فى غرب آسيا وشمال أفريقية ، وهى العلوم اليونانية التى ترجمها الآراميون والكنعانيون إلى لغاتهم السامية حتى جاء العرب ليحرصوا على نقلها إلى العربية ، وهكذا أثبتت الأبحاث الأخيرة فساد النظرية القائلة بأن العرب قضوا على الحضارات القديمة فى منطقة الشرق الأدنى وأقاموا بدلاً منها حضارة جديدة لأن التطور التاريخ ثابت ومستمر ، وبعبارة أخرى فإن حضارة الإسلام ورثت الحضارة الشرقية الهللينستية ، وتعهدت هذه الحضارة بالحفظ والعناية والتغذية المستمرة ، ولكن حدث عندما نقل الخلفاء العباسيون عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد أن أخذ الأثر الهللينستى يضعف – إلى حد ما – فى الحضارة الإسمية ليزداد فيها أثر الحضارات الشرقية كالفارسية والهندية والصينية ، وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى أخ غرب أوروبا يزداد – هو الآخر – تباعد عن الحضارة الهللينستية بعد قيام الممالك الجرمانية مما أدى إلى التباعد واتساع الفجوة بين الحضارتين الإسلامية والغربية ، وهكذا غدت الحشارة الإسلامية مجمع العلوم اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والصينية ، فى حين غدت اللغة العربية الواسطة الأساسية للترجمة والرابط بين هذه العلوم ممات جعل الطابع العربى يبدو مميزاً لهذه النهضة الحضارية الشاملة . (٦)

وكان أن أفاقت أوروبا من وحشة العصور المظلمة فى أواخر القرن الحادى عشر لتجد نفسها أمام حضارة إسلامية شامخة البناء فأخذت أوروبا تقبل على هذه الحضارة الزاهرة ، وأسرع الأوربيون إلى مراكز الحضارة الإسلامية يرتشفون من معينها الفياض ويرتوون منها العذب وازداد تدفق العلم الأوروبيين بوجه خاص على الأندلس وصقلية حيث أخذوا يترحمون إلى اللاتينية كل ما استطاعوا ترجمت إلى الفلسفة والعلوم والرياضيات وغيرها من ألوان النشاط الفكرى .

حقيقة أن بعض هذه المعلومات التى ترجمها الغربيون عن العربية كانت يونانية الأصل أخذها المسلمون عن التراث اليونانى القديم ، ولكن الفضل يرجع إليهم فى المحافظة عليها وتصحيحها وشرحها حتى إذا اندثر التراث اليونانى – أو كاد يضيع – فى الفترة المظلمة التى أعقبت سقوط الإمبراطورية فى الغرب لم يبق التراث اليونانى الفكرى قائماً فى كثير من الحالات إلا فى التراجم العربية ، وحسبنا ما أحدثته شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو من ثورة ضخمة فى أوروبا الوسطى ، وما سببته معارف المسلمين فى الحساب والهندسة والجبر وحساب المثلثات من انقلاب شامل فى تطور الفكر الرياضى الأوروبى ، وما ترتب على انتقال معلومات المسلمين فى الفلك والجغرافيا إلى الأوربيين من تحول كبير ، وما اعترف بعه الأوروبيون أنفسهم من تقدم المسلمين فى الطبيعة والكيمياء والطب ، حتى استمرت الجامعات الأوروبية منذ العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر تعتمد على كثير من مؤلفات المسلمين فى هذه العلوم . هذا كله فضلاً عن تفوق المسلمين فى الفنون الكبرى والصغرى ، مما جعل الأوروبيين يقبلون فى شغف على محاكاة النماذج العربية ويتأثرون بها بدرجة لا تزال واضحة فيما خلفته العصور الوسطى من مخلفات وآثار متنوعة . وهكذا أصبح نفوذ العرب وتأثيرهم الحضارى على غرب أوروبا منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر يفوق نفوذ الإمبراطورية البيزنطية فى أثره وقوته .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن روح التسامح السامية التى عرف بها الإسلام والتى لا يوجد لها أى نظير فى الشرق أو فى الغرب فى العصور الوسطى كان لها أكبر الأثر فى تفهم المسلمين للحضارات الأخرى السابقة تفهما واضحاً صحيحاً ، وفى تفهم الأوروبيين لحضارتهم تفهما مفيداً واقعاً ، ذلك أن المسلمين لم يفرقوا فى نشاطهم الحضارى بين المسلمين وغير المسلمين وسمعوا للمسيحيين واليهود بالتتلمذ عليهم والاستفادة منهم فأقبل الأوربيون فى

الأندلس وصقلية والشام وغيرها على دراسة معارف المسلمين وترجمتها مما ساعد على نهضة أوروبا فى العصور الوسطى . (٧)

القبس الإسلامى كعامل فى تبديد سحب الفوضى والاضطراب فى أوروبا العصور الوسطى :

جاء امتداد الإسلام إلى أوروبا سبيلاً أتاح لمجتمعها فى العصور الوسطى أن يلتقى بنماذج راقية من الإدارة الطبية والحضارة الزاهرة فوجد أهل أوروبا فى القبس الإسلامى عاملاً ساعدهم على تبديد سحب الفوضى والاضطراب التى أعقبت انهيار الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، وما تلاها من خلاف دينى بين الجرمان والسكان الكاثوليك فبينما غرقت أوروبا فى متاعب تلك المرحلة التى تعرف من تاريخها باسم العصور المظلمة ، كانت شمس الإسلام قد أشرقت على قاعدة كبرى تمتد من فارس إلى مصر وتضم الشام والعراق ، فضلاً عن بلاد العرب نفسها .

وزحف الإسلام من تلك القاعدة الكبرى فى شعبتين هائلتين على أوروبا وذلك بعد أن استقر دعائم الحكم للدولة الأموية ، فكرس خلفاء بنى أمية ، منذ عهد أولهم ، وهو معاوية بن أبى سفيان قواتهم لنشر رأيه الإسلام فى أوروبا ، فحاصرت جيوش الأمويين القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية التى سيطرت على الأقاليم الشرقية من أوروبا ولاسيما بلاد البلقان ، وفى نفس الوقت فتحت جيوش الأمويين شمال أفريقيا ، وانتقلت منها إلى أسبانيا وأطاحت بدولة القوط الغربيين هناك ، ثم زحفت على جنوب بلاد الغال ، واصطدمت بدولة الفرنجة الناشئة فيها ، ووقف الزحف الإسلامى عند هاتين النقطتين من بلاد أوروبا شرقاً وغرباً عند القسطنطينية على ضفاف البسفور وعند بلدة تور بواتييه بجنوب بلاد الغال (فرنسا) .

على أن توقف الزحف الإسلامى عند النقطتين السالفتين لم يمنع امتداد تأثير القوى الإسلامية على مجريات الأحداث فى المجتمع الأوروبى ، وتجلى

ذلك فى بلاد الغال التى غدت مرآة انعكست عليها نتائج امتداد الإسلام إلى أوروبا إذ شاهدت تلك البلاد ظهور طبقة جديدة حاسكة . تنتسب إلى القائد شارب مارتل (أو قارله فى المراجع العربية) ، وهو رئيس البلاط الفرنجى الذى حارب الجيوش الإسلامية وتصدى لها عند موقعة تور – بواتييه ، فعلاً شأن هذا الرجل وآل بيته ، وبدأ سلطانه يعلوا على سلطان الملوك الحاكمين من سلالة كلوفس مما مهد السبيل لتطورات كبرى ملأت صفحات المجتمع الأوروبى فالعصور الوسطى .

وحاول نفر من المؤرخين الأوروبيين المحدثين تصوير أثر التيار الإسلامى على المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى تصويراً مغرضاً مليئاً بالمغالطات التاريخية ، وعلى رأس هذه المدرسة من جماعات المؤرخين الأوروبيين هنرى بيرن ، فقال : أن المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى تأخر وأصابه الفقر بسبب خوفه من وجود القوى الإسلامية على مقربه منه فى أسبانيا وغيرها من الجهات الأوربية التى استقرت فيها ، ودلل هذا المؤلف على نظريته باستشهادات من الأحوال الاقتصادية لأوروبا العصور الوسطى ، ومنها أن قدرة المجتمع الأوروبى على الشراء قلت كثيراً حتى خلت الأسواق من المتاجر ، على أن هذا المؤرخ ومن سار فى ركبه قد أغفلوا عمداً الأحوال التى سادت المجتمع قبل ظهور الإسلام ، وما صاحبها من جمود وركود فى أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية ، ثم أهمل أولئك المؤرخون قصداً كذلك ما امتلأت به العصور المظلمة من متاعب اقتصادية واجتماعية ، جاءت وليدة إغارات الجرمان ، وسوء علاقاتهم مع السكان الكاثوليك ، وكل ذلك دون أن يكون للإسلام وامتداده إلى أوروبا دخل فيه على الإطلاق . (٨)

ويوضح الحقيقة السالفة أحوال إيطاليا وبلاد الغال خاصة ، ففى الصراع الذى نشب بين الجرمان والإمبراطورية الرومانية فى الغرب اشتد التنكيل بالسكان ، حتى أن القوط والبرجنديين أبادوا سنة ٥٣٩م جميع الذكور من سكان ميلان

الذين بلغ عددهم فى تقدير بروكوبيوس نحو ثلاثمائة ألف نسمة ، واضطر الفلاحون أيضاً إلى الهرب من مزارعهم بعد أن نهبت حقولهم ، وهاموا على وجوههم يقتاتون من الحشائش البرية وغيرها ، وتفشت المجاعات كذلك فى بلاد الغال بعد نهبت مخازن الغلال فيها ، وانقطعت سبل الاتصال بينها وبين جيرانها ، فالطريقة الرومانية القديمة التى اشتهرت بسلامتها وانتظامها فقدت أثناء مرحلة الاضطرابات مهامها ، وغدت الأوصال بسبب إغارات قطاع الطرق عليها

ثم زاد من بؤس الأحوال الاقتصادية فى غرب أوروبا انخفاض مستوى المعيشة عند السكان وعجزهم عن النهوض بمطالب التبادل وترتب على ذلك أن تحولت المتاجر إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، حيث احتكرت السلطات فيها المتاجر الشرقية ، وأخذت تصرفها بقدر فى أسواق غر أوروبا . فجلبت سفنهم المتاجر من مصر والشام وغيرها وكدستها فى مخازن العاصمة وإذا صار تجار الروم العميل الأول فى السوق التجارى الدولى ، على حين انزوى أهل غرب أوروبا وتركوا مقاليد التجارة فى أيدى اليهود ، وتجلى احتكار اليهود للمتاجر الشرقية فى صناعة المنسوجات الحريرية ، إذ بعثت بكميات ضئيلة منها إلى غرب أوروبا حتى تفرض سيطرتها على الأسواق هناك وتخضع الجرمان لنفوذها التجارى .

وحدث ذلك الانهيار فى الوقت الذى تنزهت فيه القوى الإسلامية فى أوروبا سواء فى أسبانيا أو صقلية عن إنزال أى بأهلى غربى أوروبا فقد ظهر المسلمون منذ استقرارهم فى غرب البحر المتوسط أنهم رسل هداية وإرشاد وأنصار التسامح وحسن الجوار ، وكشفت تقارير الحجاج المسيحيين من غرب أوروبا عن حسن معاملة المسلمين لهم ، وهم فى طريقهم إلى الحج إلى بيت المقدس ، فذكر أحد أولئك الحجاج ، وهو برنارد الرشيد أن ميناء بارى الإيطالى الذى سقط فى أيدى الأغالبة المسلمين سنة ٨٤٢م غدا ملتقى الحجاج من غرب أوروبا ومن هناك استقلوا السفن الإسلامية إلى فلسطين ، ولم تقع أية

حادثة تسئ إلى أولئك الحجاج مما ينهض دليلاً على أن المسلمين لم يكونوا مصدر خوف لسكان أوروبا على نحو ما ادعته المراجع الأوروبية المغرضة .

وإلى جانب حسن معاملة القوى الإسلامية لسكان غرب أوروبا فإن المدن الإسلامية فى أسبانيا صارت مراكز زاهرة للحضارة ، وفد إليها طلاب أوروبا ونهلوا من معارفها وعلومها ، وانتقلت كثير من مؤلفات العلماء المسلمين إلى أوروبا عن طريق تلك المراكز الحضارية السالفة ، وأسهمت بنصيب عظيم فى تخفيف ظلمات العصور الوسطى الجاثمة على المجتمع الأوروبى ووضعت فى نفس الوقت أسس التقدم العلمى الباهرة الذى وصلت إليه دول أوروبا فى العصور الحديثة . (٩)

دفاع ليو الأسيورى وشارل مارتل عن أوربا ضد الإحلام :

ومن المتعارف عليه بين الكثير من المؤرخين أن التوسع الإسلامى فى أوروبا توقف نهائياً بانتصار زعيم مملكة الفرنجة شار مارتل – وهو قارله فى الكتب العربية – على عبد الرحمن الغافقى والى أسبانيا الإسلامية وجيشه العظيم ، فى وقعة أوبواتييه بالجنوب الغربى من فرنسا الحالية سنة ٧٣٢م ، غير أنه مع التسليم بضخامة عدد الجند فى كل من الجانبينت اللذين اشتبكا فى تلك المعركة الشهيرة ، ومع التسليم بعنف القتال الذى استمر طوال تلك الوقعة الكبرى بين مشاة الفرنجة الكثيرين وفرسان إسبانيا وإفريقية المتوقدين حماسة للإسلام ، ومع التسليم بأن انتصار الجيوش المسيحية على المسلمين كان نصراً حاسماً تاماً ، يبدو أن وقعة بواتيه لا تعدل نجاح الإمبراطور ليو الأيسورى فى دفه هجمات المسلمين عن القسطنطينية سنتى ٧١٧ و ٧١٨م والمعادلة والمقارنة هنا ليستا لأن القسطنطينية كان أقرب إلى محور الارتكاز فى الدولة الإسلامية بدمشق ، حتى إذا استولى المسلمون عليها صار من السهل احتفاظهم بها . بل لأنه لو استقر المسلمين فى العاصمة البيزنطية لوجدوا بين مسيحى شرق أوروبا – ولما تهذب مسيحيتهم بعد – مجالاً حراً للدعوة

الإسلامية ، ومن الواضح أنه إذا كان الفتح العثمانى للقسطنطينية فى القرن الخامس عشر الميلادى ساعد على نشر العقيدة الإسلامية فى طول شبه جزيرة البلقان وعرضها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، فمن السهل علينا أن نتخيل مدى النجاح الدينى الذى يصحب استيلاء العرب عليها قبل ذلك بسبعة قرون حين كانت الشعوب البلقانية والروسية لا تفقه من المسيحية إلا نزراً ، ولا ندرى من النظم والمعتقدات الدينية إلا قليلاً ، أما غرب أوروبا فإن المسلمين اصطدموا فيه بقوة مسيحية منظمة أركانها على شئ كثير من تراث الإمبراطورية الرومانية وجبروتها القديم ، ولوز تم لهم النصر فرضاً فى بواتييه لظل بينهم وبين فتحر فرنسا وتحويلها إلى الإسلام عقبات دونها عقبات وعلى عكس ذلك تماماً بدت الحال فى شرق أوروبا حين كانت مراكز المقاومة الروحية والسياسية فى حكم العدو المعدوم بين الروسيين والمجريين أو بين البلغار وصقالبة شبه جزيرة البلقان بالقياس إلى ما كان بفرنسا من قوة الكنيسة والملكية الفرنجية ، والحاصل أنه لولا دفع الإمبراطور ليو الإيسورى للقائد الأموى مسلمة بن عبد الملك وجنوده وأساطيله عن القسطنطينية لأنتشر الدين الإسلامى انتشار النار فى البرارى عبر البلقان وسهول المجر إلى جبال أورال شمالاً وشرقاً ، ولم يجنب الحضارة الأوروبية ذلك سوى مقاومة القسطنطينية سنة ٧١٨م وعلى رأسها إمبراطور شاب قدير ، تسنده استحكامات هائلة وأوار سامقة وبحرية مسيطرة على البواغيز ، فضلاً عن النار الإغريقية التى لم يعرف المسلمون وقتئذ عنها شيئاً ، وفضلاً عن النجدة البلغارية التى وصلت إلى الإمبراطور وهو فى أشد ساعات الحرج ولهذا يحق للإمبراطور ليو الإيسورى أن يعتبر من أَحاب الوقائع الفاصلة فى التاريخ ، وإذا كانت روسيا الحالية دولة مسيحية أرثوذكسية لا دولة إسلامية – شيعية أو سنية – فمرجع ذلك للإمبراطور ليو وانتصاره على المسلمين عند القسطنطينية على أننا لا ندرى مبلغ ما أفادت المدينة الأوروبية من تلك النتيجة . (١٠)

التمثيل الدبلوماسى بين المسلمين والفرنجة :

سفارة بين إلى المنصور :

كان لاستقرار الوضع الحربى والسياسى بين المسلمين فى الأندلس والفرنجة ببلاد الغال أثر كبير فى قيام نوع نمن العلاقات الدبلوماسية استهدف بها الفريقان خدمة أغراضهما عن غير طريق الحروب ، أو الحصول على كسب دون قتال مباشر وكان بين ملك الفرنجة أول من سلك تلك السبيل حين أحس قوة الإمارة الأموية الناشئة التى أسسها عبد الرحمن الداخل ، وساعده على السير قدماً فى تحقيق أهدافه الجديدة ما وجده من نفور الخلافة العباسية فى بغداد من استقرار الوضع السياسى لعبد الرحمن الأموى فى الأندلس ، ذلك أن الخليفة أبا جعفر المنصور عجز مرتين عن الإطاحة بهذا السيل الأموى ، ورحب بالخطوة الدبلوماسية التى اتخذها بين ليعقد تحالفاً معه ضد الإمارة الأموية بالأندلس .

وبعث بين بسفارة إلى الخليفة أبى جعفر المنصور الذى رد عليها بدوره بسفارة أخرى قابلت هذا الحاكم الكارولنجى فى مقره ببلاد الغال ، غير أن تلك السفارات لم تحقق شيئاً واسع النطاق أو تسفر عن تحالف عسكرى ضد الإمارة الأموية فى تلك الفترة المبكر ، ولكن لم تلبث العلاقات الدبلوماسية بين العباسيين والفرنجة أن تجددت على نطاق واسع على عهد الخليفة هارون الرشيد وشرلمان ، فقد أحسن الحاكم الفرنجى خطورة الإمارة الأموية الرابضة على أطراف بلاده الجنوبية وظل يخشى انطلاق موجة الفتوح منها مرة أخرى ضد بلاد الغال ، وساعد على نشاط الاتصال الدبلوماسى بين الفريقين ازداد التنافس الدولى إذ ذاك بين القوى السياسية الكبرى فى كل من العالمين الإسلامى والأوروبى ، فقد انقسمت الخريطة السياسية للعالم إلى أربع معسكرات تنافس بعضها بعضاً : فى العالم الإسلامى الخلافة العباسية المناهضة للإمارة

الأموية بالأندلس ، وفى العالم الأوروبى الإمبراطورية البيزنطية الكارهة لدولة شرلمان فى الغرب وحقدها على رئيسها الفرنجى الذى نادى بنفسه إمبراطوراً ، وأَبح كل معسكر من تلك المعسكرات الأربعة يبحث عل حليف تتفق أهدافه مع أغراضه وآماله .

وكان من الطبيعى أن تميل الخلافة العباسية إلى دولة الفرنجة التى تعادى كلا من الإمارة الأموية بالأندلس والإمبراطورية البيزنطية ، وفى نفس الوقت تطلعت الإمارة الأموية فى الأندلس إلى التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية التى تكره كلاً من دولة الفرنجة الناشئة والخلافة العباسية ذات الإغارات العديدة على أراضيها وأصبحت المصالح تسيطر على توجيه العلاقات السياسية بين القوى السالفة الذكر ، ولكن دون أن تتطور الأمور بينها إلى تحقيق أهداف بعيدة المدى ذلك أن التمثيل السياسى فى تلك المرحلة من تاريخ العصور الوسطى لم يعتمد على وجود دور سفارات دائمة فى عواصم البلاد المختلفة ، وإنما اقتصر على نشاط نفر من السفراء تنتهى مهمتهم بانتهاء رسالتهم التى كلفوا بها ، أشبه بالسفراء فوق العادة فى المصطلح الحديث .

سفارة شرلمان إلى الرشيد :

وعلى هذه القواعد الدبلوماسية البدائية بعثت شرلمان سفارة إلى الرشيد تتكون من رجلين من رجاله مع ثلث من التجار اليهود تطلب منه تسهيل مهمة الحجاج المسيحيين الغربيين إلى الأراضى المقدسة بفلسطين ، وتوسيع التبادل التجارى بين الدولتين ، والمعروف أن الإمبراطورية البيزنطية وقفت دائماً تعادى البابوية فى روما حتى انتهى الأمر بانفصال بطريقيتها فى القسطنطينية عن سلطان البابوية فى روما ، ولما كانت البابوية قد أضحت حليفاً تقليدياً طبعاً للفرنجة منذ اتفاق مصالحهما على عهد بين ، فإن شرلمان عمد إلى انتزاع السيادة الدينية فى العالم الأوروبى لنفسه ، وتوسل من أجل ذلك إلى أن يظهر

بمظهر حامى الحجاج إلى الأراضى المقدسة ، والاتفاق مع السلطات الإسلامية التابع لها تلك الأراضى ، وفى نس الوقت وجدت الخلافة العباسية من هذا الهدف الفرنجى سبيلاً للنيل من الإمبراطورية البيزنطية التى كثيراً ما وقفت موقف المعادى لها ولأراضيها .

واستقبل الرشيد سفارة شرلمان بالترحاب ثم أجاب عليها بسفارة أخرى عادت مع سفراء الفرنجة وشرح الرشيد أهدافه لرئيس البعثة الدبلوماسية قائلاً : " إنا أتانا من ملك الفرنجة رسولاً يقرئنا منه السلام ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج إلى بيت المقدس من ملته ، فرأينا أن نوجهك إليه بلطائف تروم إليه أن يتقبلها فى سبيل المودة لغاية نرغب فيها إليه من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك إليه فى هذه الرسالة ، واجهد فى أن تسرق قلبه بخلابة لسانك ، وتقدم إليه بالوعد الجميل فى أننا نوفيه حقه يوم الفتح ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ، ونجرى الأرزاق الواسعة على جنده واستحب معك هذا اليهود الذى جاء به رسوله فهو يترجم عنك إليه .

واتضح بذلكم اتفاق مصالح كل من الخلافة العباسية والفرنجة ضد كل من البيزنطيين والأمويين بالأندلس وكان جعفر البرمكى وزيد الرشيد لا يؤمن بجدوى تلك السفارة وحث الرشيد على صرف النظر عنها ، ولكن الخليفة أصر على رأيه الذى كان امتداداً لسياسة أجداده منذ علاقتهم مع بين ملك الفرنجة ، ثم أمر بإعداد هدايا قيمة اشتملت على فيل عظيم وأقمشة فاخرة من الوشى المنسوج بالذهب وبسط ومسك وأعواد ند من الهند ، وخرجت السفارة من بغداد ثم إلى بيروت وعبرت البحر إلى بلاد الغال حيث وصلت ميناء مرسيلية ولم تقصد السفارة عاصمة شرلمان فى آخن (إكسن لاشابل) لأنه كان إذ ذاك فى روما لإنهاء بعض المسائل بينه وبين البابوية هناك .

وذهبت السفارة الإسلامية إلى روما حيث استقبلها شرلمان بالحفاوة والتكريم ثم انفرد رئيس البعثة الإسلامية برشلمان وأخبره برغبة الخلافة العباسية فى التحالف معه ض إمارة بنى أمية بالأندلس ولكن المفاوضات لم تسفر عن

شئ جديد حيث أظهر شرلمان عدم قدرته على خوض حرب لا يعرف نتائجها ضد الأمويين بالأندلس ، ذلك أن حكام الفرنجة أدركوا استحالة الإحاطة بالإمارة الأموية لأنها صارت قوية الأوتاد عميقة الأساس واستهدف الفرنجة بحملاتهم على عهد شرلمان وأبنائه حماية مناطق الثغور فحسب التابعة لبلادهم والسيطرة على المعاقل التى كفل لهم صد الحملات الإسلامية ، ذلك أنه أعقب سفارة الرشيد إلى شرلمان اشتداد النشاط الحربى الفرنجى فى منطقة الأطراف الأسبانية ، وإثارة نصارى الشمال على الحكام فى قرطبة ، ولكن تلك الأعمال الحربية لم تكن نتيجة لسفارة الرشيد وإنما كانت جزءاً من سياسة الفرنجة الدفاعية التى تمخضت أخيراً عن تأسيس " الثور القوطى "

على أن الحقيقة الكامنة وراء الكامنة وراء قصة العلاقات الدبلوماسية بين العباسيين والفرنجة هو محاولة عزل الإمارة الأموية بالأندلس والحد من أطماع حكامها حتى لا تتطلع بهم الآمال إلى تحقيق أهداف واسعة على حساب كل من الممتلكات العباسية والفرنجية ، وعلى الرغم من افتقار تلك العلاقات إلى أسس قوية فإنها جلبت بطريقة غير مباشرة متاعب داخلية للإمارة الأموية بالأندلس التى أضاعت شطراً كبيراً من مجهودها الحربى فى تأمين أحوالها الداخلية وهيأ ذلك للفرنجة تأمين ثغورهم وأطراف ممتلكاتهم المتاخمة للإمارة الأموية بالأندلس . (١١)

سفارة ثيوفيل إلى عبد الرحمن الأوسط :

ولم تقف القوتان الأخيرتان وهما الإمبراطورية البيزنطية والإمارة الأموية ساكنتين إزاء هذه الاتصالات الدبلوماسية بين العباسيين والفرنجة ، فعمدت كل منهما إلى انتهاز الفرص المواتية لخلق أسباب التفاهم والتحالف بينهما كذلك وسرعان ما جاء رد الفعل على عهد الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل الذى اشتد العداء بينه وبين الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد إذ قام هذا الإمبراطور سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٨م بإغارة واسعة خرب فيها حصن زبطرة الإسلامى ومستهدفاً

مساعدة ثوار الخرمية ، ضد الدولة الإسلامية على أن الخليفة المعتصم انتقم من تلك الإغارة بشن حملته المشهورة على عمورية سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٨م وتخريب الكثير من أرض البيزنطيين بآسيا الصغرى .

وظل الإمبراطور البيزنطى متخوفاً من تجدد انتقام المعتصم وعمد إلى محالفة الأمويين بالأندلس مستهدفاً خلق متاعب للعباسيين قد تصرفهم عن بلاده ، ثم أن هذا الإمبراطور رأى فى التحالف مع الأمويين أيضاً سبيلاً للحد من نشاط المسلمين البحرى الذى انبعث من جزيرة إقريطش (كريت) ضد سواحل آسيا الصغرى ، واقترب من عاصمته القسطنطينية نفسها ، وكان حامل لواء هذا النشاط جماعة من الأندلسيين سبق أن نفاهم الحكم من قرطبة بعد ثورة قاموا بها ضده ، وفى سنة ٢٢٥هـ / ٨٤٠م وصل إلى قرطبة سفير من قبل ثيوفيل اسمه كوتيوس *(Kratiyus)* ومعه هدايا ورسالة يخط فيها ود عبد الرحمن الأوسط ، ويطلب منه عقد معاهدة صداقة ويحرضه على استرجاع ملك أجداده فى الشام الذى اغتصبه العباسيون ويرجون أيضاً استخلاص إقريطش من الأندلسيين وردها إلى إمبراطوريته .

وكانت سفارة ثيوفيل جزءاً من سياسته لاستنهاض العالم الأوروبى ضد العباسيين حيث اضطر إلى إرسال مبعوثين من قبله إلى أهل البندقية أيضاً وغيرهم ليحصل على مساعدتهم وقد رد عبد الرحمن الأوسط على ثيوفيل يخاطب عبر فيه على حنقه على العباسيين ، ولكن دون أن يرتبط معه فى أية محالفة عسكرية ضدهم ، وكذلك أعلن عبد الرحمن عدم استطاعته طرد الأندلسيين من إقريطش لأنهم صاروا غير تابعين له ، ولا ولاية له عليهم . ومهما يكن من أمر فإن تلك السفارات مهدت السبيل لاستقرار الأمور فى غرب أوروبا بين المسلمين والفرنجة حيث اقتنع كل منهما بأن لا جدوى من متابعة النضال وأن الأجدى بهم التفاهم على ما فيه رعاية مصالحتهم وضمان استقرارهم وتقدمهم الحضارى . (١٢)

هوامش الباب الخامس

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ١ ، ص ١٤١ .

(٢) نورمان كتانتور : التاريخ الوسيط ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٤٦ – ١٤٨ .

آرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٧ .

برنارد لويس : العرب فى التاريخ ، ص ٣٨ ، ٥٧ .

(٤) محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢٦٨ – ٢٧١ .

روستوفر ختزوف : المرجع السابق ، ص ٤٧٤ .

(٥) محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٢٧١ – ٢٧٣ .

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ١٥١ – ١٥٣ .

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ١٥٣ – ١٥٥ .

(٨) إبراهيم أحمد العدوى : المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى ، ص ٧٨ – ٧٩ .

(٩) إبراهيم أحمد العدوى : المرجع السابق ، ص ٧٩ – ٨٠ .

(١٠) فشر (هـ. أ. ب) : تاريخ أوروبا فى العصور ، جـ١ ، ص ٦٨ –٦٩ .

(١١) إبراهيم أحمد العدوى : المسلمون والجرمان ، الإسلام فى عرب البحر المتوسط ، (القاهرة – ١٩٩٤) .

(١٢) إبراهيم أحمد العدوى : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ – ٢٧٠ .

الباب السادس
الجزر البريطانية
فى أوروبا العصور الوسطى
من القرن الخامس إلى القرن العاشر الميلادى

أهداف الباب السادس

يهدف هذا الباب إلى :

التعرف علي التاريخ الجغرافي والسياسي للجزر البريطانية خلال فترة العصور الوسطى مثل جزر أيرلندا وسكوتلندا...

الباب السادس

الجزر البريطانية من القرن الخامس إلى القرن العاشر

البرونون :

فى أواخر العهد الرومانى لم تجل روما عن بريطانيا العظمى ، كما يقال ، بل الحقيقة أن القادة الذين كانوا فى الجزيرة قاموا بانقلاب فى بداية القرن الخامس وزحفوا على القارة ومعهم جنودهم ، ورغم أن الغاضبين أو الأباطرة الإيطاليين أو القسطنطينية لم يتخلوا عن الجزيرة بصورة رسمية فإن الواقع يظهر أن بريطانيا ابتداء منت العام ٤٠٧ قد تركت وشأنها .

وفى السنة التالة هاجمها الساكسون الذين ما فتئوا يهاجمونها منذ أكثر من قرن ، وبعد ٢١ عاماً تألب الساكسون وأقوام البيكت فى كاليدونيا وحاربوا البروتون سكان الجزيرة الأصليين بالقرب من فيرولام (سنت البانس) فى شمال لندن فأخفقوا فى مسعاهم عام ٤٢٩ ، ولكنهم أعادوا الكرة فى ٤٤١ – ٤٤٢ فتم لهم كل شئ ووقعت بريطانيا فى أيدى الساكسون .

ومع هذا فقد تمالك البروتون قواهم وإذا فر قسم كبير منهم أمام هجوم الساكسون ، وخاصة السكوتيون فى أيرلندة وبحثوا عن ملجأ لهم فى شبه الجزيرة الرموريكية فى غالبياً وحتى فى غاليس فى أسبانيا ، وأعطوها اسمهم وأصبحت " بروتانيا " فقد تماسك الباقون فى النصف الغربى من الجزيرة البريطانية .

وتبدو هذه النتيجة مفاجئة لأن السكان كما هى العادة لم يستطيعوا مقاومة البرابرة الذين اتخذوا الحرب مهنة وشاغلاً ، وإذا استطاعوا أن يقاوموا فذلك بفضل تنظيم أقرباء الغاصبين فى سنتى ٤٠٦ – ٤٠٧ ويذكر المؤرخ الأغريقى بروكوب (بروكوبيوس) فى القرن السادس أن الجزيرة تركت دون دفاع واستقلت ذاتياً " تحت حكم الطغاة " .

أما تقلبات النزاع فى النصف الثانى من القرن الخامس بين أبناء البلاد والغازين فمجهولة ، وكل ما نعلم أنه قامت حوالى العام ٥٠٠ حرب كبرى على " جبل بادون " انكسر فيها تقدم الساكسون وتبع ذلك سلام أو بالأحرى هدنة دامت نصف قرن ، وفى منتصف القرن السادس كانت حالة العرقين المتنازعين كما يلى : لم يشكل البروتون دولة واحدة بل توزعوا فى ممالك صغيرة متنافسة فى الكونتيات الأنجليزية الحالية فى كورنوى ، ديفون دورسيت ، سوميرست ، وفى جنوب الغال وشمالها ووسطها وفى الجنوب الغربى وفى الغرب فى كمبرلاند ووست مورلاند الحاليين .

وتوغل البروتون فى الشمال الغربى بين شعوب البيكت فى كاليدونيا واستقروا فى وادى نهر كلايد ودحروا أمامهم البيكت فى غولوى . ومن الممكن أن توجد مملكة بروتونية فى الشمال الشرقى فى المنطقة الواقعة بين سور هادريان وفيرث فورث وربما وجد بروتون فى لانكشاير . (١)

والجدير بالذكر أن النصوص المكتوبة التى تعطينا أخبار البروتون تتفق مع علم الآثار ويعطيان معاً نتائج متطابقة مع بعضها فيما يتعلق بتاريخ البروتون السلتيين فى الجزيرة البريطانية .

على أن بعض البروتون لم يفقدوا الأمل من طرح الغازين الجرمانيين إلى البحر بيد أن هذا الأمل كان خيالاً لأن البروتون السلتين كانوا مضطرين إلى التراجع باستمرار أمام الأقوام الغازية ، هذا فضلاً عن أن الممالك البروتونية لا توجد بينها رابطة تجمع شملها ، وهذه التجزئة السياسية ترجع ولاشك إلى تركيب بريطانيا الجغرافى أكثر مما ترجع إلى انقسام البروتون إلى سبع أو ثمانى دول ، لأن أعداءها الأنغلو – ساكسون كانوا منقسمين على أنفسهم أيضاً ، وابتداء من القرن السابع تسارع أفول الإمارات البروتونية وأخذت تتساقط فى أيدى النغلو – ساكسون .

غير أن التقلبات السياسية لم تكن وحدها مسئولية عن طرح البروتون فى الصعيد الخلقى ، بل أن اعتناق الأنغلو – ساكسون المسحيةي وجه اهتمام الكنيسة الرومانية نحو هؤلاء ، فقد كان البروتون الجزيريون متعلقين بطقوسهم

الدينية الخاصة ورفضوا أن يخضعوا لتعاملات كريهة قبلها أعداؤهم وطبقوها ، لقد كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب جدول تواريخ أخنى عليه الدهر ، ويقبلون العلمانية فى صف الأكليروس بشكل يغاير طريقة الرومانية ، ولذا اعتبروا كالمنشقين تقريباً وأرادت روما أن تخضع اسقافتهم إلى العاصمة الأنغلوا – ساكسونية ، كانتربورى ، يضاف إلى ذلك أن مقاومة الغالويين (سكان بلاد الغال) العنيدة أوجدت لهم عبر العصور شهرة سيئة فى القارة .

وأخيراً أن بريطانيا الرومانية فى الماضى لم تعد تحسب منذ وقت مبكراً فى عداد بلاد الثقافة الأوروبية فقد ترومنت بصورة سطحية ولم تعط أى كاتب للآداب اللاتينية ، وفى القرن الخامس ضاعت معرفة اللاتينية ، إلا عند الأكليركيين والأمراء ، وأخير زالت الحقوق الرومانية أمام الأعراف المحلية .

حقاً لقد ترومنت بريطانيا ولكنها لم تأت بأى إسهام لامع فى الآداب اللاتينية المسيحية ، وكان جيلداز يشعر بأنه رومانى ولكنه كان كاتباً مقيتاً وأسلوبه ركيكاً ، أما سير القديسين الغالويين المزعومة للقرن الخامس والسادس فقد كتبت فى القرن الثانى عشر ، وفى الحقيقة أن خسائره عظيمة عن تاريخ هذا العصر : ففى القرن التاسع أحرق الدانيمركيون والنورفجيون الوثائق ومكتبات الأديرة والأسقفيات الغالوية ، والكاتب الوحيد ذو القيمة آسير مترجم حياة الفريد الكبير كان موالياً للملكية السكسونية .

وبالمقابل عرف البروتون الجزيريون منذ القرن السادس والسابع نهضة أدبية فى لغتهم القومية ولسوء الحظ لم يصل إلينا شئ ، فالأشعار الغنائية والحماسية الموضوعة تحت اسم شعراء بطوليين وغنائيين مثل آنورين ، تالييزان ، ليوراك هن ، ليست سابقة للقرن الثانى عشر ، أما قصيدة غودودن التى ترصم لنا صراع البروتون فى الشمال ضد البيكت والأنغلوا – ساكسون فى آخر القرن السادس فلا يمكن أن تكون سابقة فى شكلها الحالى للقرن العاشر أو الحادى عشر ، فضلاً عن أن فهمها صعب جداً . (٢)

الممالك الأنجلو سكسونية :

فى الوقت الذى شهدت فيه غالة كلوفس وإيطاليا حكم ثيودريك تعرضت بريطانيا التى يفصلها عن أرض القارة الأوروبية للغزو من شعبين عاشا على شواطئ نهر الألب السفل وهم الإنجليز والسكسون واستمرت هذه الغزوات قرناً وأسفرت عن الحكومة السباعية الأنجلو سكسونية (٤٥٥ – ٥٨٤م) .

إن بريطانيا العظمى التى غزاها الرومان جزئياً احتفظت تحت سيطرتهم بثلاثة شعوب متميزة تماماً وهى الكالدونيون ***(Caledonians)*** (البكت ***Picts*** والاسكتلنديون) وعاشوا فى الشمال فيما يعرف باسكتلندا الآن التى لم يتغلغل فيها الرومان ، وفى الجنوب والشرق عاش اللجريان ***(Legrians)*** الذين تأثروا بعض الشئ بالحضارة الرومانية ، وفى الغرب إلى جانب نهر السفرن ***(Sebvern)*** عاش الكمبريانيون ***(Cambrians)*** أو الولش ***(Welsh)*** وهم شعب جبلى عنيد من الصعب هزيمته فى معاقله الجبلية .

وكان البكت ينزلون باستمرار من مرتفعات اسكتلندا ويشنون حملات رهيبة ضد الجنوب ، وطوال سيطرة الرومان على الجز البريطانية تمكنوا من صدهم ، ولكن عندما سحب الإمبراطور الغربى هونوريوس القوات الرومانية من الجزر لمواجهة تهديدات الأريك ضاعت سيطرة الرومان على الجزر البريطانية فاختل التوازن العسكرى داخلها .

وكان الأرهاق قد حل اللجريان والكمبريين من جراء الهجمات وتناقص عددهم وعجزوا عن كسب مساعدة القوات الرومانية واضطروا للدفاع عن أنفسهم واختاروا رئيساً من عامة الشعب عاش فى لندن وتولى الدفاع عن الإطار ، وكان اختيار هذا الرئيس مصدراً للشقاق لأن اللجريان والكمبريين تنازعوا حول من هو أحق بمثل هذا المنصب .

وأثناء تولى فورتيجرن ***(Vortigern)*** منصب الرئاسة لم يجد وسيلة للسلامة سوى استدعاء البرابرة من سكسون وجوت وإنجلترا من أوروبا لمحاربة البكت وكانت هذه العناصر القادمة من أوروبا من أجرأ القراصنة فسيطروا واستمروا يبحرون من سواحل ألمانيا وشبه جزيرة كمبريك ***(Cimbric)*** وأرهبوا بحر الشمال والجزر البريطانية . [٣]

وأنزل قائدان سكسونيان وهما هنجست *(Henghist)* وهورسا *(Horsa)* الهزيمة بقبائل البكت وحصلوا على جزيرة تانت *(Thanet)* على ساحل كنت *(Kent)* مكافأة لهم على المساعدة مع الوعد بدفع جزية سنوية ، ومع الزمن تحول هؤلاء الحماة والمدافعين إلى سادة ، وابتلع التنين الأبيض للغرباء تنين البريطانيين الأحمر وكان هذا الشعاران هما شعاراً الشعبين .

وفى عام ٤٥٥م استولى هنجست على الأراضى الواقعة بين نهر التميز والقتال الإنجليزى ، وأعلن نفسه ملك مملكة كنت واتخذ من مدينة كانتربورى *(Canterbury)* عاصمة لـه ومنذ ذلك التاريخ كان جميع رؤساء القراصنة يطمعون فى توطيد أقدامهم فى بريطانيا كما فعل الفرنجة فى بلاد الغال .

وفى عام ٤٩١م أسس إيلا *(Ella)* مملكة سكسك *(Sussex)* (السكسونيون الجنوبيون) فى تشيستر *(Chichester)* ، كما أسس كرؤديك *(Cerdic)* فى عام ٥١٦م مملكة وسكس *(Wessex)* (السكسوزنيون الغربيون) فى ونشستر *(Winchester)* وهنا اصطدم السكسونيون مع الكامبريين الذين برهنوا على أنهم خصوم أشداء ، ودافع آرثر *(Arther)* أمير كارليون *(Caerleon)* على الكامبريين وهزم السكسون ، ولذلك كان آرثر بطل الأساطير وأخيلوس الملاحم الشعرية الكامبيرية ، ويقال أن آثر نجح فى هزيمة السكسون فى إثنى عشر معركة أشهرها وأمجدها معركة تل بادون *(Badon-Hill)* عام ٥٢٠م ، وطبقاً للروايات فإنه قتل بيديه أربعمائة رجل من أعدائه فى يوم واحد ، وعندما جرح آثر حمل إلى جزيرة نهرية ومات هناك فى تاريخ غير معروف ولم يعثر على قبره ورفض الكامبريون الذين دافع عنهم آرثر يصدقون أم بطلهم القومى قد مات وأخذوا ينتظرون قدومه لقرون عديدة ليخلصهم .

وفى عام ٥٢٦ نجح السكسون فى إقامة مملكة فى شرق إنجلترا بعدما صدهم آرثر فى الغرب وعرفت هذه المملكة باسم إسكس *(Essex)* (السكسونيون الشرقيون) واتخذوا مدينة لندن عاصمة لهم (ومعنى *Lon din*

مدينة السفن) على نهر التميز ، وهكذا أصبح للسكسون أربعة ممالك فى الجزر البريطانية . (٤)

وظهر إيدا *(Eda)* فى عام ٥٤٧م واستولى أيدا أو رجل النار على يورك *(York)* وإقليم نورثمبرلاند *(Northumberland)* (الأراضى الواقعة شمال همبر *Hamber*) .

وحصل أوفا *(Offa)* زعيم عشيرة الإنجليز المقيمين على الساحل الشرقى لبريطانيا العظمى على لقب ملك إنجليليا الشرقية *(East Anglia)* متخذا نوروتش *(Norwich)* عاصمة له .

وأسس كريدا *(Crida)* فى عام ٥٨٤م بين الإنجليز الشرقيين والكامبريين مملكة مرسيا *(Merciai)* (حدود مارس) متخذا لنكولن أوليستر *(Leicester)* عاصمة له .

وبإضافة هذه الممالك الثلا الإنجليزية إلى الأربعة السكسونية اكتملت الحكومة السباعية ، وأصبح القطر الذى حكمه الرومان منقسماً إلى سبع ممالك بربرية صغيرة اتحدت فيما بعد فى مملكة واحدة ، وكون القادمون الجدد عنصراً كبيراً فى الشعب الإنجليزى الذى لا يزال يعتبر سكسونى الأصل .

ولم يصل الغزو إلى اسكتلندا التى كانت لا تزال تحت عناصر البكت والاسكتلنديين الذين عجزر الرومان عن إخضاعهم من قبل ، كما لم يمتد هذا الغزو إلى أيرلندا التى نجت من الغزو الجرمانى مثلما نجت من الغزو الرومانى من قبل ، فيما عدا بعض المراكز القليلة على السواحل حيث استقر الدانماركيون ، واحتفظ السكان الكلتيون لأيرلندا التى كانت مقسمة إلى عدد هائل من العاشر والدويلات الصغيرة باستقلالهم حتى القرن الرابع كان القديس باتريك *(Patrick)* قد أدخل المذهب الكاثوليكى فى إيرلندا واصبحت أيرلندا مركزاً للأشعاع المسيحى المبكر وظهر من أبناء أيرلندا القديس كولومبان *(Columban)* الذى لعب دوراً كبيراً فى نظم الكنيسة المسيحية فى أوروبا .

ومن أبرز الشخصيات الجرمانية فى تاريخ إنجلترا الملك اثلبرت *(Ethelbert)* ملك كنت ٥٦٠ – ٦٠٦ م وزوجته برتا *(Bertha)* وترجع

عظمة هذا الملك أنه عمل على توحيد البلاد ، وقد اتذخ فى سبيل ذلك طريق القوة حيناً وطريق الدبلوماسية حيناً آخر ، كما اتخذ خطورة فى غاية الأهمية كان لها أثرها فيما بعد فى تجميع الممالك الإنجليزية المتخلفة فى شكل أمة واحدة وهى اعتناقه المسيحية .

وحول دخول اثلبرت فى الديانة المسيحية يروى لنا المؤرخ الإنجليزى بيده *(Baeda)* (ت ٧٣٥م) هذه الأحداث فى صفحات طوال فى كتابة تاريخ الكنيسة والأمة الإنجليزية *(History of the English Church and People)* تتلخص فى أن البابا جريجورى العظيم ٥٩٠ – ٦٠٤م أرسل بعثة تبشيرية إلى إنجلترا وعلى راسها أوجستين ، وقد وصلت هذه البعثة إلى إنجلترا فى عام ٥٩٧م حيث رحب بها اثلبرت وزوجته برتا الفرنجة الأصل المسيحية الديانة وآمن اثلبرت بالمسيحية وصار صديقاً حميماً لأجستين وأنزله بمدينة كانتربورى عاصمة كنت ، وغدا أوجستين أول رئيس لأساقفة كانتربورى ٥٩٧ – ٦٠٥م ، والمهم أن أهل كنت وسائر البلاد الجنوبية بالجزيرة حذوا حذو ملكهم اثلبرت ، ثم تبعهم أهل نورثمبريا وانجليا ومرسيا ووسكس وصار الناس على دين ملوكهم عدا مدينة لندن التى طردت بعض أعضاء البعثة ورفضت اعتناق الديانة المسيحية ، وحتى الآن يتصدر رئيس أساقفة كنتربورى الصدارة على جميع أساقفة إنجلترا بما فيهم رئيس أساقفة لندن .

وعلى أية حالة فقد استمر اتجاه إنجلترا نحو الوحدة فى الفترات اللاحقة حتى تبوأت مملكة وسكس مركز الصدارة فى عصر ملكها أجبرت *(Egbert)* (٨٠٢ – ٨٣٩م) الذى تغلب على كافة الممالك الأنجلوا سكسونية واستمرت سيطرة وسكس حتى قدوم الفيكنج فى نهاية القرن التاسع الميلادى . (٥)

وجود إنجلترا :

ونتساءل أخيراً هل كانت إنجلترا موجودة ؟ أو بتعبير آخر هل بالإمكان أن نرى وجداناً جماعياً ، ولو كان بدائياً ، وعاطفة قومية فى حال التشكيل ؟

حقاً لا حتى آخر القرن التاسع لأن المنازعات الطويلة خلال القرون بين الدول الصغيرة الجوتية وألنغلية والساكسون ، تركت أحقاداً شديدة ، ثم أن

هذه الدول ردت إلى ثلاث فئات : وسكس ، مرسيا ، نورثامبريا ، بينما الممالك الأخرى الصغيرة جداً (كنت ، سوسكس ، سى ، اسكس ، انغليا الشرقية ، .. الخ) كانت تابعة ، ويبدو أن الانصهار بين هذه الفئات الثلاث كان مستحيلاً ، وحتى فى القرنين الثامن والتاسع فقد كانت الواحدة منها تستطيع أن تسيطر ، ولكنها لا تتمثل الآخرين وقد استطاعت محن الغزو الدانماركى الفظيعة أن تسهم فى توحيدها فى عاطفة مقاومة الاسكانديناڤيين والبرابرة والوثنيين .

وفى القرن العاشر نشأت إنجلترا بالرغم من وجود نعرة إقليمية قوية فى الوسط وخاصة فى الشمال ، وإذا لم تكن الحال ، كذلك فيجب ألا ينسب الإخفاق فقط إلى عدم جدارة الملوك الساكسونيين فى النصف الثانى من القرن العاشر بل بخاصة إلى سبب أعمق وهو جمود الشعب الإنجليزى .

لقد كانت لا مبالاة عامة الشعب ظاهرة فى الجزيرة كما فى غاليا وأسبانيا وإيطاليا ، ففى كل هذه البلاد كانت الملكية والأرستقراطية والأكليروس الأعلى هى المعتبرة وحدها فى المجتمع ، ولا يوجد رابط وطنى عند أكثرية الشعب ، ولذا فإن فاتحين قلائل بعد نصر أو نصرين يمكنهم أن يستولوا على بلد كبير دون أن يلقوا مقاومة رصينة من سواد الشعب ، إن هذه اللامبالاة المخيفة هى التى ستسلم إنجلترا أولاً إلى نورمانديى الدانيمارك ، ومن بعد إلى نورماندى فرنسا وستؤخر إلى أجل طويل تفتح العاطفة القومية الإنجليزية . (٦)

أيـــرلنـــــــدا

الموقع والتاريخ السياسى :

لقد عاشت الجزيرة الصغرى حتى القرن الخامس على هامش العالم القديم ، ولم يكن ذلك بسبب جهل الملاحين والجغرافيين القدامى بها ، فقد عرفها الفينيقيون والملاحون الإغريق والغاليون والأيبريون ، بل لأن ما نقله سترابون وديودور الصقلى عن السكان مع ما نسبا إليهم من فظاعة وأخلاق وحشية ، يبرهن على أن شعب هذه الجزيرة لا يعرف عنه شئ .

ينتسب شعب الجزيرة إلى العراق السلتى ولكنه يؤلف فى هذا العراق جماعة وحدها : فهو يتقارب من الوجهة الإنسانية من النموذج الشمالى القامة عالية كقامة جر من الشمال والجمجمة مسطحة ، والشعر كستناوى فاتح ، والعيون رمادية ، ويتكلمون اللغة الغائلية ، وهى تختلف كثيراً عن المجموعة السلتية القاربية (السلتية والبجيكية) والبريتونية (الغالية والقرنية والبروتونية) ، وبالإجمال إن اختلاف الأيرلندى عن الجماعة السلتية الأخرى يدعنا نقبل بأن الغائليين انفصلوا عن سلتى القارة الآخرين وذهبوا إلى الجزر البريطانية فى عصر غابر ربما يرجع إلى القرنين الثانى عشر والخامس عشر قبل الميلاد بل وأكثر من ذلك .

ولم يعرف تاريخهم مع شئ من التفصيل إلا منذ القرن الخامس الميلادى عندما عرفوا بفضل اعتناقهم المسيحية الكتابة اللاتينية وكتب تواريخ الأعياد المتنقلة وأصبح بإمكانهم الإشارة إلى التعاقب الزمنى للأحداث التاريخية والجوية . أما القصص الحماسية الكثيرة التى حوفظ عليها فتكشف عن لغة غير سابقة للقرن التاسع الميلادى ، وأما المعلومات التى تتضمنها عن الملوك والأبطال فهى أسطورية أكثر منها تاريخية .

وعندما فتح الرومانيون جزيرة بريطانيا كاد الفتح يوصل التوغل اللاتينى إلى الجزيرة الشقيقة ، ففى العام ٨٢ كان لدى القائد الرومانى أغريكولا جنود فى الغرب تنتظر المناسبة للتدخل ، وقد طرد أحد الملوك الصغار بحرب داخلية فاستقبله أغريكولا صديقاً واحتفظ به ليستخدمه متى سنحت الفرصة ، ولكن الحكومة كانت ترى أن الإمبراطورية قد توسعت بالنسبة لقواها فتركت هذه الفرصة تفوت من يدها .

وبعد ثلاثة قرون كان على بريطانيا المرومنة والمستقلة (كاليدونيا) أن تتحمل أعمال النهب التى يقوم بها القرصان الأيرلنديون الذين بدئ بتسميتهم سكوتى ، وفى آخر القرن الرابع سقط معظم القسم الغربى من الجزيرة فى سلطة الأيرلنديين فأتى بريطانيون من الشمال من غودودين وخلصوا فى بداية القرن الخامس البلاد التى تسمى فى المستقبل بلاد الغال من

السكوتيين ، ولم يتماسك هؤلاء إلا فى الشمال الغربى فى المنطقة التى تحتفظ اليـــــوم باســـــمهم القـــــديم وهـــــى كونتيـــــة آرجيـــــل (البلاد الإيرلندية) .

غير أن اعتناق أيرلنده المسيحية دون أن تزيل الفوضى السائدة فيها ، جذب الجزيرة الصغيرة فى فلك الثقافة الإغريقية – اللاتينية . وكان ذلك ابتداء من ٤٣٢ من عمل البروتونى باتريسيوس (القديس باتريك) الذى انتصر على مقاومة طبقة الدرويديين (كهان الغاليين) واستطاع أن يؤسس كرسياً أسقفياً فى ارماغ (٤٤٤) وتوفى نحو ٤٦٠وتغطت أيرلندا بالأديرة – الأسقفيات . وقد انصرف السكوتيون المسيحيون الجدد بشغف لدراسة الآداب اللاتينية والإغريقية ، وعندما انهارت الثقافية القديمة فى القارة وجدت ملجأ لها فى الجزيرة الغائمة الضائعة فى أقصى أوروبا .

إن تاريخ أيرلندا السياسى لا يمكن أن يعرض بتفصيل فى التاريخ العام فقد صنع من حروب لا تنقطع بين قبيلة وقبيلة ، وملك وملك ، ومليكات ومليكات ، وفى الحقيقة ليس لهذا البلد وحدة حقيقة ، بل هو مقسم بالتقليد إلى خمس ممالك :أولتونا (أولستر) لاجينيا (لاينستر) كوناسيا (كونوت) ؛ مومونيا (مونستر) . ومع هذا فقد وجد ملك اعترف به الآخرون ملكاً أعلى (آرد – دى) وأقام فى حصن تيموير (تارا) على حدود لاينستر واولستر . وهناك تواتر يقول بأن ملك الملوك ، تواثال عاش فى آخر القرن الأول وشكل للملك الأعلى دومينا ملكيا . (٧)

غير أن نظام الآرد – رى لم يأت بالوحدة بل وسع الشر وآثار رغبة الحصول على هذا المنصب الأسمى عند الملوك الخمسة . وكانت كل مملكة بدورها مقسمة إلى قبائل يحكم كل واحدة منها شخص يسمى ملك ، ويوجد من هؤلاء الملوك ٢٠٠ ملك ، وتنقسم كل قبيلة إلى بطون متحاسدة ، وأخيراً أن نظام الوراثة لم يأخذ بنظام البكورة ، وبالإجمال لقد كانت الفوضى الدموية مرضاً عضالاً وحالة دائمة فى أيرلندا عبر العصور .

وقد وجد الأسكاندينافيون الأرض مهيأة للنهب وإقامة مؤسسات دائمة فى هذه الجزيرة التى مزقتها الأحقاد بين الأمراء وبين القبائل وليس لها وحدة سياسية حقيقة .

ظهـر الأسـاندينافيون فـى العـالم ٧٩٥ واحتـاجوا جزيـرة ريشـور (لامبى اليوم) وهى إلى الشمال قليلاً من دبلن ، فردوا على أعقابهم أكثر من مرة وانتقلت أخبارهم إلى بلاط شارلومان ، وعرفت الجزيرة الهدوء إحدى عشرة سنة ، وفى العام ٨٢٣ عاود القرصان هجوماتهم ولم يوفروا شيئاً بفظاعتهم وكرههم المسيحية ، وكانوا يحرقون الكنائس ويقتلون الأكليروس ، واضطر الرهبان السكوتيون إلى الهجرة إلى القارة وخاصة إلى غاليا ، مع بقايا القديسين والكتب والمخطوطات القديمة الثمينة .

وابتداء من العام ٨٣٤ انقلبت القرصنة إلى فتح منظم وقاوم الأيرلنديون ولاقوا بعض النجاح ، ولكنه نجاح جزئى لأن المقاومة لم تكن محكمة .

ثم هاجمتهم موجة أخرى من الأعداء ، وحتى منتصف القرن التاسع كان المهاجمون نورفيجيون ويسميهم الأيرلنديون (البيض الوثنيين) ، وقد أتوا من جزر أيكوسيا أو من النورفيج (بلاد البحيرات) مباشرة .

وفى العام ٨٥١ ظهر الدانيماركيون (السود الوثنيون) ، ولو أنهم ضموا هجومهم لهجوم النورفيجيين لضاعت أيرلندا وأصبحت اسكندينافية ، ولكن المقاومين الجدد فكروا فى البدء أن يضعوا أيديهم فى الموانئ على أيدى (البيض الوثنيين) . وقامت منازعات فظيعة بين الدانماركيين والنورفيجيين غلب فيها هؤلاء الأخيرون .

أما الملوك الأعلون فقد أوقفوا الدانيماركيين ولزم هؤلاء الصمت من ٨٧٥ إلى ٩١٦ فى الموانئ وهدأت أيرلندا نسبياً .

ولقد كان من الممكن لأيرلندا أن تتحرر من سيطرة الأجانب لولا منازعاتها الداخلية حتى أن بعض المليكات كانوا لا يتوانون عن التحالف مع الأجانب ، ومن جهة ثانية أن إقامة الدانيماركيين فى الموانى ساعدت على

تحضيرهم وبدأوا باعتناق المسيحية وعقدت عقود زواج بين الأمراء من أبناء البلاد والأمراء الأجانب .

ومع الزمن عاد الحظ إلى الأيرلنديين ومرت منذ العام ١٠٠٢ اثناتا عشرة سنة مجيدة على تاريخ الجزيرة العجوز شيدت فيها الكنائس والحصون والطرق والجسور بفضل حكم الملك بريان وكان بلاطه ملتقى المليكات السكوتيين وملوك البحر من دانيماركيين ونورفيجيين ، ورغم المحاولات العديدة التى كان الأيرلنديون يقومون بها لطرد الأسكاندينافيين من بلادهم ظل الدانيماركيون والنورفيجيون سادة الموانى غير أنهم بدلوا القرصنة بالتجارة ، ولم يبق غزو جديد ، ولكن هذا الحادث لم يحل دون المنازعات الداخلية لأنها عادت بأشد مما كانت عليه فى السابق ، وفى القرن الثانى عشر كانت سبباً فى تدخل الأنغلو – النورمانديين وضياع استقلال أيرلندا . (٨)

ليكوسيا (سكوتلاندا)

تشكلت مملكة أيكوسيا باتحاد أربعة عروق مختلفة تحت سلطة واحدة ، وهذه العروق هى : البيكت ، السكوت ، البروتون ، الإنجليزية ، دون ذكر الاسكاندينافيين الذين أقاموا فى القرن التاسع فى الجزر وعلى الشواطئ وسكنوا القسم الشمالى من بريطانيا فيما وراء نهر التويد الذى يصب فى بحر الشمال وخليج سولوى على بحر أيرلندا .

وبين هذه الشعوب كان السكوتى يمتاز بتفوق محسوس منذ منتصف القرن الحادى عشر ، فقد فرض اسمه سكوتى (ايسكوت ، ايكوسى) على الشعوب الأخرى ، ولكنه كان أجنبياً : أتى من الجزيرة الصغرى أيرلند أو سكوتيا ، وحوالى القرن الحادى عشر أعطى اسم الجزيرة الصغرى خاصة على القسم الشمالى من الجزيرة العظمى بريطانيا . وكانت هذه النتيجة غير منتظرة لأن الشعب الذى ساعده الحظ على إنشاء مملكة الشمال ، كان شعب البيكت الذى زال اسمه أيضاً فى القرن الثانى عشر ، ويؤلف البيكت أقدم عروق فى الجزيرة العظمى ، ويمثلون البريتانى الذين عرفهم الملاحون القدامى قبل عرضنا

المسيحى بعدة قرون وما زال يوجد منهم بقايا فى الجزيرة الصغرى وخاصة فى الشروق فى أولستر ولاينستر .

وعندما وجه القائد أغريكولا الحملة الرومانية إلى الجزيرة العظمى فى العام ٨٤م يظهروا ولا يعرف المؤرخ تاسيت خصوما للرومان فى شمال فيرت فورث إلا البروتون الذين يسمون بصورة خاصة " الكالدونيين " ، فهل هذا يعنى أن البيكت بدلوا اسمهم ؟ هذا ممكن ولكن من الممكن أيضاً أن يكونوا سكنوا " الأراضى العليا " (هايغلاندرز) فى الشمال الغربى حيث لم يوغل الرومانيون .

غير أن الإمبراطورية بعد الإعياء لم تقم بفتح فى شمال فيرث فورث ، واكتفت بسد الطريق فى وجه برابرة الشمال بخط تحصينات ثم بسور محصن يذهب من نهر كلايد إلى فورث ، ولقد شاد الإمبراطور انطوانان هذا السور حوالى العام ١٤٠م ولم يكن متيناً ولذا هجر حوالى آخر حكم كومود وترك المجال حراً أمام هجمات الأعداء حتى سور هادريان (من التاين إلى خليج سولوى) وقد أفاد البيكت من ذلك وظهر اسمهم لأول مرة فى العام ٢٩٦م ، وفى القرن الرابع كانوا أفظع خصم للسيطرة الرومانية وأكثر خطراً فى ذلك العصر من الساكسون .

وفى العام ٣٦٧م لزمت كل قوة تيؤدوس أب الإمبراطور فى المستقبل لتحافظ الإمبراطورية على بريطانيا ، وفى القرن الخامس ، وبعد انسحاب آخر الجيوش التى كانت فى خدمة الإمبراطورية ، لم يبق للبروتون المترومنين إلا الاعتماد على أنفسهم . وقد ظفروا على البيكت والساكسون المتألبين فى ٤٢٩م فى معركة " اللولويا " فى مكان غير معروف وربما كان حوالى سانت البانس فى شمال لندن .

غير أن توسع البيكت توقفت بإقامة برابرة آخرين الإنجليز على طول شواطئ بحر الشمال ، وسكوت أيرلندا على شواطئ البان (أيكوسيا) الغربية فى كانتاير ، وأخيراً إذا شئنا ألا نتكلم عن الكالدونيين ، واحتل البيكت كل البلاد فى شمال خليج فورث ومصب نهر كلايد ، فقد لاقوا فى

عصر مجهول ، ضغط أولئك البروتون الذين ظلوا فى شمال سور هاجريان وكانوا مستقلين عن روما . (٩)

لقد أقام البروتون بين التاين والفورث فى المنطقة التى احتفظت زمناً باسمهم : غودودين ، ثم انتع أن بروتون آخرون الكلايد من البيكت وأسسوا مملكة تسمى (صخرة كلايد) وتسمى أيضاً (حصن البروتون) وكانت العاصمة ، ثم دحر البكت فى هذه المنطقة فى غالووى وظلوا خاضعين للبروتون

وبالمقابل فى القرن السادس والسابع طرد إنجليز برنيسيا أو اخضعوا بروتون غودودين وتوصلوا حتى خليج فورث . وأقام البيكت فى شمال هذا الخليج وظلوا سادة أعظم جزء مما سيكون أيكوسيا وتوزعوا فى القرن السابع إلى سبع ممالك صغيرة . وفى منتصف القرن السابع سحق البيكت السكوت وسيطروا على القسم الأكبر من ايكوسيا الحالية وأصبحت سكون (القرب من برث) عاصمة المملكة المتحدة من هذه السبعة أقاليم .

وفى ذلك العصر لم يكن البيكت هجماً تماماً وبعد محاولة تنصير غامضة على يد القديس نينيان لدى البيكت فى غالووى ، هذه المحاولة التى لا يمكن تأريخها بصحة (القرن الرابع أو الخامس) استؤنف عمل التنصير على يد السكوتى كولومبا حوالى ٥٦٢ ، وقضى هذا ٣٤ سنة فى التبشير وإشادة الكنائس وامتد تأثيره أيضاً إلى الجزر المجاورة للشاطئ . وكان كل شئ يدعو إلى التفاؤل بأن مملكة البيكت ستكون نواة لتشكل أيكوسيا فى المستقبل ولكن الحال لم تكن كذلك لأن هذا الدور فى القرن التاسع عاد إلى السكوت أو الغايل الذين أتوا من ايرلندا .

هذا وينبغى القول أن هجوم الاسكاندينافيين العنيف على الجزر البريطانية أضعف البيكت فقد بدأ هذا الهجوم بالجزر واحتل النورفيجيون شتلاند واروركاد فى القرن الثامن وسقطت هبريد فى سلطة القرصان ، وكذا جزيرة مان فى عرض بحر أيرلندا ، ومن هذه الجزر انطلق الفايكنج للاستيلاء على أيكوسيا ، وأقام النورفيجيون فى الجزر على طول الشاطئ حتى كامبرلاند واستوطنوا هذه المنطق .

وفـى منتصـف القـرن التاسـع زحـف السـكوت علـى البيكـت وبـدأ هـؤلاء يأخذون عادات السكوت وأخلاقهم ولغتم وما أتى القرن الثانى عشر إلا ولم يبق منهم سوى ذكريات . وفى القرن العاشر نهضت الملكية فى أنجلترا واضطرت الملوك الشكوت إلى تبنى موقف متواضع ، وفى أواخر القرن الحادى عشر تشـــــكلت مملكـــــة أيكوســـــيا ، ولكنهـــــا لـــــم تـــــتم إلا فى وقت متأخر بخضوع الاسكاندينافيين فى شمال الألبان وقسم من الجزر للملوك الأيكوسيين .

ومع هذا فقد كتب أن ملكية الشمال لم تكن سكوتية أكثر منها بيكتيه لغة ونظماً ، ولكن الحضارة الأنغلو – نورماندية جذبتها فى فلكها فتبنت النظم الإقطاعية وإقامة هذه الحضارة فى " الأراضى الدنيا فى لوثيان وتأنكلزت لغة وأخلاقاً ، وعوضاً عن أن تكون أيكوسيا مركزاً للسلتية أصبحت دولة إنجليزية ثانية ، رغم أنها ظلت عدواً لا يمكن مصالحته لمملكة الجنوب . (١٠)

هوامش الباب السادس

(١) نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوربة ، (دمشق – ١٩٨٢) ، ص ٣٩١ – ٣٩٢ .

(٢) نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ .

(٣) محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٠٣ – ١٠٤ .

(٤) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٥) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٠٥ – ١٠٧ .

(٦) نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ، ص ٤١١ – ٤١٢ .

(٧) نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، ص ٤١٣ – ٤١٤ .

(٨) نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، ص ٤١٤ – ٤١٦ .

(٩) نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ، جـ١ ، ص ٤٢٠ – ٤٢١

(١٠) نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٢١ – ٤٢٣ .

الباب السابع
أوروبا الكارولنجية
(شارلمان العظيم)

أهداف الفصل السابع

بنهاية هذا الفصل يجب على الطالب أن يكون ملماً بعصر الإمبراطور شارلمان وتأسيس الإمبراطورية الكارولنجية ، وحروب شارلمان مع اللومبارديين وسياسته مع الكنيسة

الباب السابع

أوروبا الكارولنجية (شارلمان العظيم)

دولة الفرنجية فى عصرها الثانى :

بعد عصر كلوفس وأبنائه انتهى عصر التوسع والغزو فى عام ٥١٦م ، وبدأت دولة الفرنجة تدخل فى عصرها الثانى ، ويبدأ هذا العصر بفوضى وحروب أهلية استمرت ما يقرب من قرن ونصف ظهر خلالها ما يلى :

أولاً : انقسام دولة الفرنجة إلى ثلاث ممالك صغرى هى :

- أوستراسيا فى وادى الميز والراين الأدنى .
- ونستريا وتشمل نورمنديا واكوتين .
- برجنديا فى المنطقة الواقعة بين نهر الرون وجبال الألب .

ثانياً : ضعف ملوك الفرنجة من سلاسة كلوفس فى الأقسام الثلاثة السابقة ، ومن مظاهر هذا الضعف تزاد نفوذ النبلاء ورجال الدين ، فقد قبل ملوك الفرنجة فى هذه الأقسام الثلاثة التنازل عن حقهم فى تعيين الأساقفة كما وافقوا على عدم محاكمة رجال الدين أمام محاكمة الدولة وبذلك أصبحت الكنيسة شبه مستقلة على التاج أى عن ملوك الفرنجة .

أما عن النبلاء فقد حصلوا من الدولة على ضمان بملكية ما تحت أيديهم من أراضى ، ولم يستطع الحكام أن يفرضوا عليهم أية ضرائب إضافية ، بل تزداد نفوذ النبلاء فى أوستراسيا لدرجة أنهم ولوا زعيمهم فى وظيفة (رئيس البلاط) فى القصر الملكى وذلك للحفاظ على مصالح وامتيازاتهم .

وكانت مهام رئيس البلاط فى بداية الأمر تنحصر فى الإشراف على خدم القصر وموظفيه ، ولكن مهامه سرعان ما أخذت تتطور حتى أصبح صاحبها بمثابة (الوزير الأول) فى الدولة ، إذا اصبح رئيس البلاط يقوم بالتعيين فى الوظائف ، ويقوم بتوزيع الهبات والمنح ، مع الإشراف على جميع إيرادات أراضى الدولة .

ومنذ عام ٦١٤م تولى عدد من النبلاء منصب رئيس البلاط عن طريق الوراثة مما نتج عنه أن أصبحت السلطة الفعلية فى أيديهم ، وأصبح تاريخ دولة الفرنجة مرتبط برؤساء البلاط لا بالملوك والحكام الذين أمسوا مجرد أتباع فى الأقسام الثلاثة التى انقسمت إليها دولة الفرنجة .

وكانت أوستراسيا أهم قسم فى دولة الفرنجة وقد برز رئيس بلاطها " بيبن الثانى " فى أواخر القرن السابع الميلادى ، ثم خلفه فى عام ٧١٤م ابنه " شارل " الذى يعرف باسم " شارل مارتل " الذى لم يمض خمسة أعوام على توليه هذا المنصب حتى أصبح صاحب السلطة الفعلية فى دولة الفرنجية كلها إذ قام بتوحيد أقسام دولة الفرنجة الثلاثة أوستراسيا ونستراليا وبرجنديا وأعاد الوحدة من جديد إلى دولة الفرنجة ، لذلك يعد هو المؤسس الحقيقى للبيت الكارولنجى ، وذلك لأنه وجد دولة الفرنجة فى حالة يرثى لها ، فهى تعانى من الأخطار الخارجية التى تهددها مع كل جانب ، ومن أجل مواجهة هذه الأخطار خاض عدة حروب لتأمين الدولة من ناحية الشرق ضد كل من السكسون والألمانى والبافاريين وغيرهم ، كذلك تصدى شارل لخطر المسلمين القادم من الجنوب فقد زحف المسلمون من الأندلس وتمكنوا من الاستيلاء على نربونة عام ٧٢٠م ثم توغلوا فى برجنديا .

وكان على شارل لمواجهة المسلمين أن يحشد جميع أتباعه من النبلاء وغير النبلاء ، كذلك استعان باللمبارويين فى إيطاليا ، كما استولى على بعض أراضى الكنيسة ، وبعد أن أعد العدة التقى بالمسلمين وعلى رأسهم عبد الرحمن الغافقى فى معركة بلاط الشهداء أو تور بوتييه عام ١١٤هـ/٧٣٢م ، واستمرت رحى المعركة سبعة أيام وأسفرت عن مصرع عبد الرحمن الغافقى وإلى الأندلس وانسحاب أتباعه من المسلمين وسميت هذه المعركة بهذا الاسم لأنها وقعت على ضفاف نهر اللوار بين مدينتى تور بوتييه .

وكان لهذه المعركة نتائج هامة بالنسبة لشارل إذ لقب منذ ذلك الحين بلقب " مارتل " ***(Martel)*** ويعنى المطرقة كما ظهر شارل مارتلى فى نظر الغرب على أنه بطل المسيحية الذى حمى غرب أوروبا من الغزو الإسلامى وهذه

مبالغة فى تقدير قيمة النصر الذى حققه شارل مارتل فى معركة تور بوتييه فهجمات المسلمين على غرب أوروبا لم يتوقف بعد معركة تور بوتييه ، فقد عاد المسلمون فى العام التالى لحدوث معركة تور يشنون هجماتهم من جديد على بلاد الغال ، وهددوا من مدنها ، ومنها أفنيون وغيرها من مدن جنوب غاليا وأقاليمها وخاصة إقليم بروفانس .

أما عن علاقة شارل مارتل بالكنيسة فقد قام بالاستيلاء على أراضيها – كما سبق إن ذكرنا – ورفض مساعدة البابوية ضد اللمبارديين الذين تحالفوا معه ووقفوا إلى جانب لصد الهجوم الإسلامى ، مما أثار الوحشة بينه وبين البابوية غير أن هذه الوحشة لم تستمر طويلاً إذ ما لبث شارل مارتل أن توفى فى عام ٧٤١م ، وخلفه فى وظيفة رئيس البلاط ابنه " بيبن القصير " الذى بدأ عهده بتحسين العلاقات مع الكنيسة ، وتم عقد أربع مجامع كننسية تقرر فيها .

- تطبيق نظام أديرة القديس بندكت فى أديرة دولة الفرنجة .
- تعيين أسقف لكل مدينة ورئيس أساقفة لكل مجموعة من الأساقفة وإن يكون للبابوية سلطان على كل من الأساقفة ورؤساء الأساقفة .

وسرعان ما أدرك شعب الفرنجة أن رئيس البلاط هو الحاكم الفعلى للبلاط أما الملك الفرنجى فهو مجرد شبح لذلك تقرر عزل ملك أوستراسيا وتعين رئيس بلاطها (بيبن القصير) ملكاً على عرش دولة الفرنجة ، وحصل بيبن من البابا زكريا بابا روما على صفة الشرعية ، فقد كان الملك فى نظر البابا هو من تكون بيده السلطة الفعلية فى البلاد ، ويرجع سبب ذلك إلى أن البابوية كانت تطمع دائماً فى مساعدة دولة الفرنجة لها ضد اللمبارديين ، على أية حال بعزل ملك الفرنجة واعتلاء رئيس البلاط وهو بيبن القصير عرش دولة الفرنجة وبتأييد من البابوية فإن هذا يعنى انتهاء عصر الأسرة الميروفنجية من سلالة كلوفس ، وبداية عصر الأسرة الكارولنجية من سلالة رؤساء بلاط أوستراسيا .

فقد حدث أن أرسل بيبن إلى البابا زكريا فى عام ٧٥١م يسأله عن مدى أحقيته فى عرش دولة الفرنجة ، وهلا من الأفضل أن يستمر الملك الذى لا سلطان له ولا نفوذ ولا يحكم ولا يملك ؟ ولم يكن فى مقدور البابا إلا أن يجيب بما يشتهيه بيبن وذلك رغبة من البابوية كما سبق أن ذكرنا فى الحصول على مساعدة دولة الفرنجة لها ضد اللمبارديين .

ويرى بعض الباحثين أن إجابة البابا زكريا إلى طلب بيبن وموافقته على احقيته فى تولى العرش وعزل آخر ملوك البيت الميروفنجى ، إنما جاءت وفق التقاليد النظرة السياسة لكنيسة أوروبا فى العصور الوسطى ذلك أن الكنيسة لم تقم وزناً كبيراً لعوامل الوارثة بقدر ما اهتمت بقدرة الشخص على تولى المنصب نفسه ، وقام البطريرك بونيفاس بتتويج بيبن ملكاً على الفرنجة ومسحة بالزيت المقدس كما يفعل مع الأساقفة وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على ارتباط دولة الفرنجة برجال الدين وصبغ حكمهم بصبغة دينية .

وما لبث بيبن أن توج فى العام التالى ٧٥٢م على يد البابا استفن الثانى بابا روما ، أما عن ظروف هذا التتويج فقد حدث أن اضطرت الظروف البابوية وعلى رأسها البابا استفن إلى السفر إلى غاليا لطلب مساعدة بيبن القصير ضد اللمبارديين ، وتعهد بيبن بتقديم المساعدة للبابوية ، فأن ويحقق لها كل ما تريد وأن يرد لها كل المدن التى يستولى عليها من اللمبارديين أو من البيزنطيين وخاصة رافنا .

ويشير بعض المؤرخين إلى أنه أثناء وجود البابا استفن فى غاليا قدم لبيبن القصير الوثيقة المعروفة باسم " هبة قسطنطين " ***(The Donation of Constantin)*** وقبلها بيبن على أساس أنها إقرار بأحقية البابوية فى أن تتمتع بالسلطة الدنيوية إلى جانب السلطة الدينية .

المفروض فى هبة قسطنطين إنها مرسوم أو قرار أصدره الإمبراطور قسطنطين فى عام ٣١٧م ويبدأ بكيفية تحول قسطنطين إلى المسيحية وتعميده على يد البابا سلفستر الذى شفاه بمعجزة من مرض الجذام الذى كان يعان

منه، ورداً للجميل عزم قسطنطين على منح البابوات خلفاء القديسين بطرس وبولس سلطة أسمى من سلطته .

وقد اعتمد كتائب هذه الوثيقة على أسطورة شعبية عن حياة سلفستر وتوسع فيها بدرجة كبيرة وقد جاء فى هذه الأسطورة ما يلى :

مرض قسطنطين بمرض الجذام ، وجمع له كهنة الأوثان عدداً كبيراً من الأطفال الرضع لينحروهم ويغتسل قسطنطين بدمهم لكى يبرأ من مرضه العضال ، وأمر الإمبراطور بإعداد هذه المذبحة غير أن أمهات الأطفال راحت تولولن على صغارهن الذين أعدوا للذبح عندئذ شفق قسطنطين على هؤلاء الصغار الأبرياء وأعادهم إلى أمهاتهم ، وفى هذه الليلة زاده فى المنام القديسان بطرس وبولس وأرشاداه إلى مخبأ البابا سلفستر وبشراه بأن شفاءه من هذا المرض سوف يتم على يديه .

وقد عمد البابا الإمبراطور وطهره من رجس هذا المرض الخبيث بماء المعمودية ، ولما برأ قسطنطين من دائه ومرضه أراد أن يكافأ البابا عن حسن صنعه فقرر سلفستر أسقفاً للعالم الرومانى ، وتنازل له عن تاجه الإمبراطورى وعن جميع سلطاته وكرمز لخضوعه للبابا قام بوظيفة سائس للخيول البابوية ، وفى مقابل رد البابا الكريم على قسطنطين تاجه كذلك ترك الإمبراطور روما وإيطاليا والعالم الغربى كله للبابا ، وذهب ليقيم له عاصمة جديدة فى الشرق . (١)

وقد بنت البابوية ادعاءاتها فى السيادة العالمية على هبة قسطنطين لوقت طويل ، وخاصة وأن الهبة منحت البابا ورجال الدن والكنائس العديد من الامتيازات على النحو التالى :

أولاً : بالنسبة للبابا :

- **تنازل الإمبراطور له عن قصره الإمبراطورى فى اللاتيران وهو من أكبر القصور بهاء وعظمة وفخامة .**
- **وتنازل له عن التاج الإمبراطورى وغطاء الرأس الأبيض والوشاح والعباءة الإمبراطورية الأرجوانية وسائر الملابس الإمبراطورية .**

- كما تنازل الإمبراطور للبابا عن حرس الشرف الإمبراطورى وعن الشارات الإمبراطورية (الكرسة – النسر) بل وعن مكانته الرفيعة وسلطته السامية .
- منح الإمبراطور البابا سلفستر حكم إيطاليا والغرب الأوروبى كله ، وأقام هو إمبراطوريته الجديدة فى الشرق .
- عمل الإمبراطور أيضاً سائسا لخيول البابا ، وتنازل لـه عن المكانة الساتمية الرفيعة .

ثانياً : بالنسبة لرجال الدين :

قررت هبة قسطنطين ضرورة احترام رجال الدين وتبجيلهم ، وأن يتمتعون بنفس المكانة التى تمتع بها السناتو أى مجلس شيوخ الإمبراطورية ، كذلك يتمتعوا بنفس الامتيازات التى يتمتع بها جنود الإمبراطورية وضباطها مع احترام الجميع لوظائف الكنيسة كبيرة كانت أم صغيرة .

كذلك منحت الهبة رجال الدين الحق فى أن يمتطوا الجياد البيضاء ، ويرتدوا أحذية من الجلد من جلد الماعز بيضاء ناصعة شأنهم فى ذلك شأن رجال السناتو ، وكذلك يتمتعوا بحصانات البطارقة .

ثالثاً : بالنسبة للكنائس :

قررت الهبة ما يلى :

- بناء الكنائس باسم القديسين بطرس وبولس وتزيناها بالذهب والفضة .
- منح الكنائس العقارات والأملاك فى الشرق والغرب .
- أن يتولى البابا سلفستر إدارة هذه الأملاك والعقارات بنسفه وكذلك من يخلفه من بابوات .

وتعتبر هذه الوثيقة من أشهر المزيفات فى تاريخ العصور الوسطى إذ إنها لم تصدر عن قسطنطين فى عام ٣١٧م ، وإنما عن التاريخ الذى زيفت فيه ، وهو موضوع خلاف بين الباحثين ، يتفق المؤرخون المحدوثون على إنها صدرت عن المقر البابوى فى منتصف القرن الثامن ، وقدمها البابا ستفن الثانى

شخصياً لبيبن القصير – ملك الفرنجة – فى باريس عام ٧٥٤م ، وتقبلها بيبن على أنها إقرار حقيقى بصلاحية السلطة البابوية .

ويرجع البعض سبب التزوير إلى أن البلاط البابوى لم يستطع إيجاد نسخة الوثيقة التى اعتقدوا أن قسطنطين قد أصدرها لذلك فأنهم زوروا وثيقتهم الخاصة بنفس الطريقة التى زورت بها كثير من أديرة العصور الوسطى نسخاً جديدة من الوثائق الأصلية التى فقدت .

ويرى البعض الآخر أنه قبل نهاية القرن الثامن الميلادى ألف كتاب رسولى المذهب يدعى ايسيدورتوس مركاتور *(Isidortus Mercator)* وكان سئ السمعة مجموعة من المستندات المزورة ومن بينها الوثيقة المعروفة باسم (هبة قسطنطين) ، وقد كتبها لتخدم مصالح البابوية آنذاك معتقداً أنه بهذا يخدم الكنيسة ، ويعبر عن حبه للبابوية بطريقة عملية حيث ألف هذه المجموعة الوثائقية ليقر بها حق البابا النهائى فى أية منازعات تخص الكنيسة ورجالها وهى وثائق كالوثائق الأصلية تماماً .

أما عن البابوية فكانت تهدف من وراء هذه الوثيقة ما يلى :

أولاً : إن البابا فوق جميع الحكام بما فيهم الإمبراطور الرومانى الذى يدين بتاجه للبابا .

ثانياً : أن البابا لـه الحق المطلق لا على روما وكنيسة القديس بطرس فقط ، ولكن أيضاً على إيطاليا والعالم الغربى بأسره .

ثالثاً : اتساع سلطة البابا عالمياً ومسكونيا واتهام الأباطرة البيزنطيين بأنهم اغتصبوا سلطة البابوات وميراثهم الشرعى .

والحقيقة أن نفوذ البابوية قد تزايد فى القرن الثامن تزايداً ملحوظاً خاصة عندما قام ملك الفرنجة بوظيفة سائس الخيول البابوية بشكلب رسمى غذ أنه قام بقيادة حصان البابا لمسافة قصيرة بشكل يتوافق مع دور الإمبراطور الرومانى كما حددته هبة قسطنطين .

وأقيم حفل كبير فى كنيسة سانت دنيس *(St.Denis)* (الدير الملكى فى فرنسا) ولم يقتصر الأمر على مسح البابا لبيبن بالزيت المقدس بل مسح

زوجته وأطفاله أيضاً ، كما منح ملك الفرنجة لقب حامى الرومان ، وفى مقابل ذلك تعهد بيبن بأن يعيد للبابوية حكم إقليم رافنا – الذى سقط فى أيدى اللمبارديين سنة ٧٥١م إلى أوقاف القديس بطرس تمشياً ما جاء فى هبة قسطنطين من أن إيطاليا بأكملها منحة للقديس سلفستر وخلفائه .

وفى العام التالى غزا بيبن إيطاليا وانتزع رافنا من أيدى اللمبارديين وسلمها للبابوية ، وقبل أن يعود إلى فرنسا سنة ٧٥٦م أودع على مقبرة القديس بطرس فى روما وثيقة عرفت باسم (هبة بيبن) تؤكد استقلال أوقاف القديس بطرس ، وبذلك تكون البابوية قد حققت الزعامة على العالم الغربى فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى .

واكتشف زيف وثيقة " هبة قسطنطين " فى عصر النهضة وبالتحديد فى عام ١٤٥٠م شك لورنزو فالا المؤرخ الكنسى الشهير وكذلك الفيلسوف نيقولا كيوز *(Nicolus of Cuos)* فى هذه الوثيقة وفى مضمونها كما شك فيها قبلهما رهبان دير سانت سابين *(St.Sabine)* وأنكرها منذ بداية القرن الثانى عشر .

ويشيد عدد من الباحثين بفضل المؤرخ الكنسى لورنزو فى اكتشاف زيف وثيقة هبة قسطنطين ، ولد لورنزو فى روما وتعلم تعليماً ديرياً والتحق بالسلك الكهنوتى بمدينة نابولى ، وكانت تحت حكم الفونسو الخامس فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وعندما مدت البابوية يديها إلى نابولى عام ١٤٠٠م وحكمتها حكماً مباشراً ، دخل فالا فى خدمة البابا الشهير نيقولا الخامس – الذى شجع العلم والعلماء – وعندما كان فالا يبحث عن الدعائم التى قامت عليها هذه المنحة اكتشف إنها مجرد إدعاء ، وقد تمكن عن طريق ملاحظة نوع المداد والخط والورق وتأكد من أن الوثيقة مزيفة وإنها كتبت بعد خمسة قرون من التاريخ المدون فيها .

وقد أكدت الدراسات فعلاً صدق ذلك غذ أن انتقال الإمبراطور قسطنطين من عاصمته القديمة روما إلى عاصمته الجديدة القسطنطينية كان قد تم قبل

صدور هذه بفترة طويلة بالإضافة إلى أنها وجدت ضمن كتابات ايسدورتوس المزور المشهور للوثائق فى عصره .

على أية حال فقد أتى التحالف بين الفرنجة والبابوية ثماره فاكتسب بيبن صفة الشرعية بتتويجه ملكاً على دولة الفرنجة واستطاعت البابوية بفضل مساعدة الفرنجة الوقوف فى وجه أعدائها اللمبارديين واستعادت منهم أملاكهم فضلاً عن أنها استغنت عن مساعدة البيزنطيين أعدائها التقليدين نظراً للخلاف المذهبى بينها وبينهم . (٢)

الدولة الكارولنجية

وبتتويج بيبين القصير رئيس البلاط ملكاً على دولة الفرنجة سنة ٧٥٢ تكون الأسرة الميروفنيجة من سلالة كلوفس قد انتهت وحلت محلها الأسرة الكارولنجية فى حكم دولة الفرنجة ، وقد استمر بيبين القصير فى الحكم حتى وفاته سنة ٨٦٨ وعندئذ قسمت مملكته – وفقاً لتقاليد الفرنجة – بين ولديه فخص شارل أوستراسيا وجزء من أكوتين ، وأختص كارلومان بتستريا وبقة أكوتين ، ولا يمنا كثيراً أمر النزاع الذى نشب بين الأخوين والذى هدد بالقضاء على وحدة مملكة الفرنجة ، ما دام النزاع قد انتهى بوفاة كارلومان سنة ٧٧١ مما أتاح لاخيه شارل فرصة توحيد جميع مملكة الفرنجة تحت سيادته ، من مصب الراين حتى مصعب الرون ومن نهر المين حتى خليج بسكاى ، على أن الذى يهمنا هو أن جربرجا *(Gerbrega)* – أرملة كارومان – استاءت لإغفال حقوق ولديها القاصرين فى ملك أبيهما ، فقررت إلى بلاط دسدريوس ملك اللمبارديين فى بافيا ، وكان شارل قد سبق أن تزوج من ابنه دسدريوس ولكنه عاد فطلقها بالسرعة التى تزوجها بها الأمر الذى زاد الموقف توتراً بين شارل ودسدريوس ، ولم يكن منتظراً من الملك اللمباردى أن يتأخر فى مساعدة أرملة كارلومان ، فطلب من البابا تتويج ابنى كارلومان ، ولما رفض البابا ذلك لجأ دسدريوس إلى مهاجمة الأملاك والأراضى البابوية مما دفع البابا ستفن الثالث (الرابع) (٧٦٨– ٧٧٢) إلى الاستنجاد بشارل ملك للفرنجة . وقد حاول شارل مفاوضة دسدريوس فى أول الأمر فأرسل إليه يطلب تسليم جميع المدن

التى استولى عليها من البابوية بدون وجه حق ، ولكن دسدريوس غضب لتدخل شارل بينه وبين البابوية وأصر على موقفه فى عدم إعطاء البابوية مدنها ، وعندما غزا شارل إيطاليا سنة ٧٧٣ حاول دسدريوس أن يسد منافذ الألب فى وجهه ولكنه غلب على أمره وفر إلى بافيا حيث لحقت به قوات شارل وحاصرته ، وفى تلك الأثناء أخذ ابن دسدريوس يجمع قوات اللمبارديين قرب فيرونا مما جعل شارل يترك جزاءاً من قواته فى حصار بافيا ، ويسرع بالجزء الباقى لمطاردة هذا الابن الذى فر إلى القسطنطينية تاركاً شارل يستولى على فيرونا وبرجامو وغيرهما من المدن المهمة ، وعندما طال حصار بافيا قرر شارل أن يقضى عيد الفصح (سنة ٧٧٤) فى روما حيث جدد للبابا هدريان (أدوين) الأول (٧٧٢ – ٧٩٥) هبة بيبين القصير للبابوية من قبل ، ثم كان أن سقطت بافيا أخيراً بعد حصار عشرة أشهر ، فحمل دسدريوس إلى دير كوربى فى نستريا حيث قضى بقية بعد أن قسمت ثروته بين جنود الفرنجة ، فى حين اتخذ شارل لنفسه لقب " ملك اللمبارديين " ويلاحظ أن شارل لم يشأ فى أول الأمر اييدمج اللمبرديين ضمن مملكته ، وآثر أن يتركهم يعيشون فى ظل نظمهم الخاصة ولكن عندما ثار اللمباريون ضده من جديد ، ودبروا مؤامرة لاستدعاء ابن دسدريوس الهارب فى القسطنطينية وإعلانه ملكاً ، عاد إليهم ونجح فى إخضاعهم سنة ٧٧٦ ، وعندئذ أرغم اللمبارديون على أتباع قوانين الفرنجة ونظمهم . [٣]

حروب شارل :

يعتبر عصر شارل سجلاً زاخراً بالحروب التى قد بها مد أطراف إمبراطوريته أو تأمين حدود بلاده والدفاع عنها أو تحويل الوثنيين إلى المسيحية ، وما أحرزه شارل من النجاح والظفر فى هذه الحروب أكسبه ما اشتهر به من التسمية شارل الكبير أو شارلمان ، وبلغت حملاته الحربية أربعاً وخمسين توالى قيادتها شارل أو أنباؤه أو قادته .

١- الحروب مع اللومبارديين :

تحكم فى العلاقات بين الفرنجة واللومبارديين والبابوية ما وقع من الأحداث فى سنة ٧٥١ ، وما تلاها من السنوات أضحى لشارلمان ، عن طريق

الوراثة السيادة على اللومباديين وحماية الإمارة البابوية ، ولقب بطريق الذى اتخذوه أبوه ببين على أنه حدث فى مستهل حكمه أن تعرضت هذه العلاقة للاضطراب نظراً لإقدام شارل على الزواج من ابنة ملك اللومبارديين فاشتد غضب البابا ستيفن الثالث الذى أعلن أن هذا الزواج ليس إلا من وحى الشيطان فليس اللومبارديون إلا شعباً كريهاً منبوذاً من جميع الأقوام ويعتبرون مصدر البرص والجذام على أن هذا الزواج لم يزد عمره على سنة إذ أعاد شارل زوجته إلى والدها ملك اللورمبارديين ، فتوثقت العلاقة بين شارل والبابا هادريان الأول الذى خلف ستيفن فى المقر الرسولى .

ولم هاجم الملك اللومباردى ديديير أملاك البابا من جديد وهدد روما استجاب شارل لنداء البابا فهبط بجيوشه على إيطاليا واستمر حصاره للعصامة اللومبارديجية بافيا تسعة شهور وأغار على لومبارديا ثم استولى على لومبارديا ثم استولى على الدوقيتين اللومبارديين بنيفينتو وسبوليتو وبذا خضعت بلاد اللومبارديين لشارلمان الذى أضحى ملكاً عليهم ، وغدت أملاكه متاخمة للإمبراطورية البيزنطية بجنوب إيطاليا ، ودخل فى حوزته أيضاً البندقية وإستريا وساحل دالماشيا ، وجزيرة قورسقه .

وفى أثناء حصار بافيا سنة ٧٧٤ توجه شارل إلى روما للاحتفال بعيد القيامة ، وكان أول ملك من الفرنجة يدخل حاضرة العالم المسيحى الغربى ، وبلغ الاحتفال به عند دخول المدينة من الروعة والأبهة ما لم يضارعه إلا الاحتفال بقدوم القياصرة الرومان منتصرين ، وقبل أن يرتقى درج القديس بطرس ، باعتباره من الحجاج ركع على ركبته ويديه ثم عانق البابا هادريان ، وهذه اللحظة تعتبر أعظم اللحظات فى حياة شارل ، إذ أن روما عند الفرنجة ، وعند جميع المسيحية فى الشمال كانت مدينة القديسين يتنزه الإنسان فى داخلها عن الأطماع الدنيوية وأقر شارل وهو بروما منحة ببين .

٢- شارل والباريون :

دخلت بافاريا فى حوزة دولة الفرنجة رويداً رويداً غذ اعترفت أول الأمر بسيادة شارل واحتفظت بالاستقلال الذاتى تحت سيادة دوقاتها ، كما احتفظت كنيسة بافاريا باستقلالها ، وترتب على حروب شارل فى بافاريا ، أن أعلنت

إذعانها وصار دوقها تاسيلو من أتباع شارل ، ولما أعلن عصيانه تقرر عزلة ، وأنزله بالدير ، ثم تنازل هو وأسرته عن كل ما لهم من حقوق فى دوقية بافاريا ، وبذا دخلت بافاريا فى نطاق مملكة الفرنجة التى أضحت تتاخم مملكة الآفار .

٣- الحروب مع السكسون :

يعتبر السكسون أهم الأقوام الجرمانية الذين قهرهم شارل فما من حرب خاضها الفرنجة بلغت من الشدة والعنف والاستمرار ، ومن كثرة النفقات واستفاد الجهد مثلما بلغته الحروب مع السكسون لما اشتهروا به من العنف والقسوة وانسياقهم لعبادة الشاطين وكراهيتهم للمسيحية فضلاً عن انتهاكهم كل قانون بشرى وإلهى ، وظل الفرنجة ما يزيد على ثلاثين سنة يبعثون الجيوش إلى سكسونيا والتى قاد شارل معظمها وكلما لاح النصر للفرنجة لم يلبث السكسون أن دمروا كل ما أحرزوه من مكاسب ولجأ الفرنجة إلى اتخاذ أشد الإجراءات قسوة وشدة ومنها إجراء مذبحة فى أربعة آلاف وخمسمائة من السكسون فى فردان ، ونقل الألوف إلى بلاد الفرنجة ، واستيطان أعداد كثرة من الفرنجة ببلاد السكسون لاستغلالها .

وتلى الانتصار على السكسون تنظيم الكنيسة ببلاد السكسون ورد فى قرار أصدره شارل ٧٨٢ ، أنه خير السكسون بين اعتناق المسيحية أو ملاقاة الموت ، وجعل عقوبة الإعدام لكل من يقدم على مخالفة نظام الكنيسة فإذا اختفى أحد السكسون ، حتى لا ينتصر ولم يستجب للدعوة إلى التنصير وأراد الاحتفاظ بالوثنية تقرر إعدامه وكل من استهجن الصيام الكبير فتناول اللحم تقرر إعدامه وقامت أول أسقفية فى سكسونيا فى بريمن ، على يد أسقف إنجليزى ومن هذه الأسقفية انتشرت المسيحية إلى اسكندیناوة ثم تلى ذلك قيام اسقفيات فى مواضع عديدة بسكسونيا .

وأتمت الكنيسة المسيحية ما بدأته الجيوش من الفتوح غير أن عملية التنصير التى بدأت بالقتال والحروب لم تكتمل إلا بالقوة لم ينس السكسون وثنيتهم وظل أساقفة سكسونيا زمناً طويلاً يجهرون بالشكوى من تعلق رعاياهم بالوثنية ، وكيفما كان الأمر ، دخل السكسون فى نطاق حضارة ومدينة غرب

أوروبا فأضحت حدود الفرنجة متاخمة للدانمراقيين الوثنيين والصقالية الذين ينزلون وراء نهرى الألب والسال . (٤)

شارلمان والمسلمون فى أسبانيا :

وإذا أردنا معرفة الدوافع التى دفعت شارلمان لمحاربة المسلمين فى أسبانيا نجد الأسطورة تختلط بالواقع فقد ورد فى قصة توربين *(Turpin)* التى ترجع إلى القرن الثانى عشر ، أن شارلمان بعد أن استولى على العديد من الأراضى خلد إلى الراحة ، وبينما هو على هذا الحال كان يراقب السماء فاتجه ببصره نحو جليقية (الجلالقة فى المصادر العربية وهى الآن جزء من دول البرتغال) ، وتعجب شارلمان لمثل هذا الأمر ولم يستطع تفسيره وذكرت الأسطورة أيضاً أن القديس جيمس – الذى يرقد جثمانه فى أسبانيا – ظهر لشارلمان ذات ليلة وهو نائم وقال له : " إن جثمانه يرقد بعيداً ولا يعرفه المسلمون أو المسيحيون وطالب شارلمان بالنهوض والاستيلاء على جليفية وتخليصها من أيدى المسلمين ، وتكرر ظهور الحلم ثلاث مرات .

والوقع حسب ما صوره لنا اينهارت *(Einhard)* (ت ٨٤٠م) مؤرخ شارلمان والمصادر العربية يتلخص فى أن طائفة من الأمراء المسلمين فى الأندلس كانوا يعتبرون عبد الرحمن الداخل (١٣٨–١٧٢هـ / ٧٥٦ –٧٨٨م) مغتصباً للحكم ولما يئسوا من مساعدة الخلافة العباسية فى بغداد لجأوا إلى شارلمان .

وفى عام ٧٧٧م اتصل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وسليمان ابن يقظان الكلى الأعرابى حاكم سرقسطة بشارلمان لقتال عبد الرحمن الداخل ، وتم الاتفاق على دخول شارلمان بجيوشه حتى مدينة سرقسطة فيسلمها له سليمان وفى الوقت نفسه يحاصر الفهرى مدينة مرسيه ويقضون على عبد الرحمن الداخل .

وفى عام ٧٧٨م سار شارلمان بجيش كبير ضم عناصر بافاريه ولومباردية وبرجندية وغيرهم وتقسيم الجيش إلى فرق واتفقوا على الاجتماع عند سرقسطة ، ولم يحالف شارلمان وحليفة التوفيق لصعوبة تنفيذ الخطة فى

المواعيد المحددة ، كما أن مدينة سرقسطة قاومت قوات شالمان وأجبرتها على التراجع .

وأثناء تراجع قوات شالمان من ممر جبال البرانس قام سكان المنطقة وهم قبائل الباسك بمهاجمة مؤخرة جيش شارلمان ويقول اينهارت أن قبائل الباسك الكثير العدد تناثرت فى أماكن عديدة ونصبت الكمائن العديدة لقوات شارلمان ، وفى اللحظة التى كان فيها جيش شارلمان يسير فى صف طويل بين الجبال انقضوا على المؤخرة فى معركة تعرف باسم رونسفو *(Roncevaux)* فى الخامس عشر من أغسطس ٧٧٨م وأنزلوا بها القتل والنهب وقتل فى هذه المعركة قائد المؤخرة *(Roland)* حاكم إقليم برتانى ، وقد ظهر فى القرن الحادى عشر ملحمة تعرف باسم أنشودة رولان نسب فيها مقتل رولان إلى المسلمين واشتهرت هذه الأنشودة بدرجة كبيرة إبان الحروب الصليبية لزيادة حماس المسيحيين ضد المسلمين .

ولم ينته الصراع عند هذا الحد فقد أرسل شارلمان فى ٩٧٥ جيشاً آخر إلى أسبانيا واستولى به عمل شريط ضيق فى شمالى أسبانيا من الجانب الشرقى وعمل محلى تأمين هذا الساحل بالإضافة إلى شواطئ أوروبا الجنوبية ضد هجمات المسلمين .

وإذا كان ذلك هو الحال مع شالمان فى أسبانيا الإسلامية فقد اختلف الحال فى علاقة شارلمان بالخلافة العباسية فى بغداد ولعل فى بعد المسافة دور فى العلاقات الطيبة التى سادت بينهما ولكن واقع الأمر أن شارلمان كان يعلم بالعداء القائم بين بغداد وقرطبة ، وأن تقارب شارلمان لبغداد فيه تعميق للخلاف القائم بين الخلافة العباسية والخلافة الأموية بالأندلس . (٥)

وفى ليلة عيد الميلاد من عام ٨٠٠ ارتفع الستار فى حركة تقليدية عن مشهد لحفل رائع فى كنيسة بطرس الرسول فى روما ، وبرز على الفور السؤال التالى : هل تعتبر نقطة البداية التقليدية هذه صحيحة ؟ وهل حقاً كان تتويج شارل العظيم – حسبما كتب برايس – هو بداية الإمبراطورية الرومانية المقدسة ؟ إن الجواب على ذلك – فى اعتقادى – هو

الآتى : لاشك أن هذا المشهد التقليدى قد أوجد شريطاً متحركاً من الأحداث التى ترجع إلى ما قبل التاريخ المذكور ، ولقد قيل بحق أن إمبراطورية شارل العظيم " ذهبت معه إلى القبر " ، فهو لم يؤسس الإمبراطورية الغربية فى القرون الوسطى كما أن إمبراطوريته لم يتم " إحياؤها " أو " تجديدها " أيام أوتو الأول حسبما قيل مراراً وتكرارا .

ومنذ زمن غير بعيد أعتبر تتويج شارل العظيم " أهم وأعظم أحجية مثيرة للحيرة طوال التاريخ الوسيط ، غير أنه بوسعنا أن نقول اليوم بحق بأن تلك الأحجية قد تم حلها وفك رموزها ، ونحن نعرف دون شك أن تتويج شارل كان نتيجة لسلسة عجيبة من الأحداث والدسائس والخلافات داخل روما ذاتها ، وفى القسطنطينية أيضاً والتى لا ترجع إلى أبعد من سنة ٧٩٨ ونعرف كذلك أن أحداث ليلة عيد الميلاد لسنة ٨٠٠ قد جرت ضمن إطار الإمبراطورية الرومانية القائمة التى كانت روما لا تزال جزءاً أساسياً منها ، وهذه الإمبراطورية هى التى كثيراً ما نطلق عليها عرضاً واتفاقاً اصطلاح " الدولة البيزنطية " .

إن كل ما اتجهت النية إليه وكل ما تم عمله هو انتخاب إمبراطور جديد فى ذات الإمبراطورية القائمة ولم تكن هناك أية فكرة نحو خلق إمبراطورية جديدة فى الغرب أو إعادة أو إحياء السيادة الرومانية هناك ، تلك السيادة التى كانت قد انتهت قبل ذلك التاريخ بعدة قرون بقيام الممالك الجرمانية ، ولم يتجه التفكير إطلاقاً نحو نقل أو تحويل الإمبراطورية دون الإمبراطورية ، وليس هناك وراء أحداث عام ٨٠٠ أى تفكير أو أية فكرة تتعلق بحمل اللقب الإمبراطورى باعتبار أفضل وأنسب تعبير عن السلطة العالمية التى تمتعت بها مملكة الفرنجة ، ولم يكن التاج الإمبراطورى – حسبما أكد برايس – هو الهدف الذى اتجهت إليه سياسة ملوك الفرنجة لعدة سنوات . (٦)

شارلمان والكنيسة :

يبدو لنا من دراسة تاريخ الإمبراطورية الكارولنجية أن الطابع الدينى كان غالباً عليها فالعامل الأساسى فى نجاح دولة الفرنجة دون غيرها من الدول الجرمانية التى قامت فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى كان العامل الدينى وهو العامل نفسه الذى أدى إلى نجاح شالرلمان فى إقامة إمبراطوريته وفى المزج بين شعوب هذه الإمبراطورية على أساس أنهم خاضعون جميعاً لحاكم يتمتع برضاء الكنيسة بل يسيطر عليها وعلى رجالها .

ذلك أننا رأينا كيف كانت البابوية متلفة دائماً على محالفة الملوك الكارولنجيين لحمايتها من نفوذ الإمبراطورية البيزنطية من جهة ومن خطر اللمبارديين من جهة أخرى ، وإذا كان ملوك البيت الكارولنجى لم يتقاعسوا عن مساندة البابوية فإن الأخيرة ردت إليهم الجميل يتتويج بيبين القصير ملكاً سنة ٧٥٣ ثم بتتويج شالرلمان إمبراطوراً سنة ٨٠٠ وهكذا قامت الإمبراطورية الكارولنجية على أساس دينى سياسى فأخذ شارلمان يستغل مكانته بوصفه حامى البابوية فى فرض سيطرته على الكنيسة داخل إمبراطوريته فهو الذى يعين الأساقفة ويدعو إلى عقد المجامع الدينية بل يتولى رئاسة هذه المجامع لبحث المشاكل المتعلقة بالعقيدة ، كما أنه يشرع القوانين اللازمة للكنيسة ويحدد حقوق رجال الدين من كنسيين وديريين وواجباتهم ، وبذلك أصبح شارلمان رأس الكنيسة والدولة جميعاً ، ورئيساً للأساقفة والكونتات دون تمييز لأنه لم يفرق بين الكنيسة والدولة ، حتى الموسيقى الدينية ، والمواعظ التى يلقيها رجال الكنيسة فى مختلف المناسبات والأعياد لم تسلم من تدخل شارلمان وتعديله ، وهكذا وجدت الكنيسة نفسها خاضعة خضوعاً تاماً لحكومة شارلمان ، كما صار رجالها بمثابة اتباع خاضعين خضوعاً تاماً لحكومة شارلمان كما صار رجالها بمثابة أتباع مخلصين له ، يخضعون لأوامره ونواهيه خضوعاً تاماً ، وقد حدث عندما حاولت البابوية أن تتحرر من قبضة شارلمان القوية أن أرسل شارلمان رسالة إلى البابا ليو الثالث سنة ٧٩٦ يفهمه أن اختصاص البابوية لا ينبغى أن يتعدى الجانب الدينى بأى حال " وأن واجبك أيها الأب المقدس هو أن تساعدنا برفع يديك إلى السماء والدعاء لنا مثلما فعل موسى " .

وهكذا ظلت الأمور على وفاق بين الكنيسة والدولة طالما كان شارلمان يجمع فى قبضته القوية بين زمام السلطتين الدينية والزمنية ، ولكن الموقف أخذ يتغير بعد شارلمان ، عندما عجز خلفاؤه عن فرض سيطرتهم على الكنيسة ورجالها معاً آذن باصطدام السلطتين . (٧)

الإدارة والتشريع والحضارة فى عهد شارلمان :

بعد أن تم إحياء الإمبراطورية كان من الطبيعى أن يتهم شارلمان بإدخال التنظيمات فيها فى نواحى الإدارة والقضاء والتشريع فضلاً عن النهوض بأسباب العلم والتعليم ، أما عن الإدارة فقد كانت إدارة مركزية محلية ، إذ كانت الحكومة فى عهده تتكون من الإمبراطور باعتباره الحاكم المركزى المطلق وإلى جانبه كانت توجد الجمعيات الأهلية الجرمانية الأصل والتى كان الإمبراطور يدعوها ليستطلع منها الرأى العام فى الأقاليم التى كانت الإمبراطورية تنقسم إليها وكذلك فى السياسة العليا للدولة ، هذا مع العلم بأن رأى تلك الجمعيات كان استشارياً فقط ، وكذلك يوجد عمال الإمبراطور بالأقاليم التى كانوا يتمتعون فيها بسلطة مطلقة وانتخب لحكم مناطق الحدود بعض أفراد حاشيته المشتغلين بالحرب للدفاع عنها ضد إغارات المتبربرين وأخيراً هناك أيضاً الرسل الإمبراطوريون *(Missi Dominici)* الذين كانوا حلقة الوصل بين حكام الأقاليم والحكومة المركزية ومهمتهم التفتيش على الحكومات المحلية وعلى أعمال الحكام بها ورفع تقارير بذلك إلى الإمبراطور .

هذا عن الإدارة ونظام الحكم ، أما من ناحية القضاء والتشريع فقد حاول شارلمان التشبيه بالإمبراطور البيزنطى جستنيان بتسجيل القوانين والعادات المتوارثة فى شكل مجموعة قانونية تضمنت بعض القواعد العامة الأخلاقية والسياسية والدينية والجنائية كى يسترشد بها الحكام فى إدار أحكامهم بين مختلف القبائل ، ولكن هذه المجموعة لم ترق بحال إلى مستوى مجموعة جستنيان القانونية ، فقد كانت مواد مجموعة شارلمان مختلطة ببعضها دون نظام ودون ترتيب قانونى .

ولقد كان من أثر ذلك أن ساد الأمن والاصتقرار فترة حكمه وازداد الرخاء ونظمت الثورة وانتعشت الفنون وألاداب والعلوم لقد ازدهرت الفنون فى

عهده ازدهاراً كبيراً وبخاصة فى العمارئ الدينية التى بدئ فى تشييدها ومن أهمها الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى التى بناها شارل العظيم فى عاصمة إمبراطوريته وهى مدينة آخن (أكس لاشابل) والتى يبدو فيها تأثير الأساليب القديمة البيزنطية معاً ، وكانت النتيجة فناً جديداً لا هو بالرومانى القديم ولا هو بالبيزنطى ، وهو الفن الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالفن الرومانى الحديث *(Romacesque)* الذى يرجع إلى القرن التاسع الميلادى وقد تطور مع الزمن حتى انتهى به الأمر إلى أسلوب آخر من أساليب المعمار والفن وهو الأسلوب الوسيط البحث ألا وهو الفن القوطى *(Gothic Art)* الذى تظهر فيه بجلاء التأثيرات الجرمانية وروع الذوق الوسيط .

كذلك وجه شارلمان عناية كبيرة إلى أمور العلم والتعليم ليس فقط فى عاصمة ملكة ولكن فى شتى أرجاء الإمبراطورية على الرغم من أنه لم يكن عالماً متعلماً بالمعنى المفهوم واهتم أيضاً بجميع الكتب القديمة واستدعى إلى بلاده فى آخن العلماء والفلاسفة والاهوتين من إنجلترا والغرب ، وكان رأس هؤلاء الكوين *(Alcuin)* الإنجليزى الذى عينه رئيساً لمدرسة البلاط التى أسسها فى قصره لتعليم أبنائه وأبناء كبار حاشيته ومن أهم كتب التاريخ ترجع إلى هذا المهد الكتاب الذى ألفه باللاتينية اينهارد *(Eibhard)* تحت اسم حياة شارلمان *(Vita Karoli)* ويعتبر هذا المؤلف المصدر الأدبى الأساسى فى هذا الموضوع ، ووضع كاتب عن ادلهارد *(Adelhard)* مؤلفاً باللاتينية عن النظام فى البلاط الإمبراطورى *(De Ordine Palati)* وقد فقد هذا الكتاب الهام ولكن احتفظ بمادته الأساسية أحد رؤساء أساقفة ريمز فى القرن التاسع وهو هنكار الريمى . (٨)

عيوب سياسة شرلمان :

توفى شرلمان فى آخن فى يوم ٢٨ يناير ٨١٤ وبزوال شخصيته البارزة لم تلبث الإمبراطورية الفرنجية الضخمة التى أتم بناءها أن هوت فريسة للتمزق واالفوضى فإن غينهارت الذى سطر ما ألفه فى عصر خلفه لويس التقى كان ينظر إلى ما مضى من أيام شرلمان نظرة الناس إلى عصر ذهبى أسطورى

مضى ، فما كان يتلا ل به بلاط شرلمان من الفخامة المتألقة التى بهرت أبصار معاصريه أعمتهم عن حقيقة إمبراطوريته وأنها دولة قلقة غير ثابتة ، مثلما أن ما اشتهر به شرلمان من هيبة وجاذبية شخصية وحصافة وكفاية إدارية أخفى عن أعينهم ما كان يعوزه من تدبير السياسة وبعد النظر ، وإذا نظر إلى شرلمان على ضوء الأحداث التالية ، لم يبد فى صورة أول إمبراطور رومانى غربى ينحدر من سلالة أوغطس وقسطنطين ، وإنما يبدو بوصفه آخر ممثل لتلك السلسة الطويل من الأبطال والزعماء الذين قادوا المتبربرين فى هجراتهم وتجولاتهم والذين يقوم على راس قائمتهم الطويلة ألاريك وأتولف ، فإن ماثلهم جميعاً فى احترامه للحضارة اليونانية الرومانية (الجرايكو رومانية) ، أو أقل إنه انخرط إلى حد ما فى محرزات تلك الحضارة ، ولكن مما له دلالته أنه يشاطر ثيودوريك الأكبر أميته وعدم قدرته على كتابة شئ سوى توقيعه على أنه يتفق وإياهم فى الحدود التى تحدده ، وهى أنهم جميعاً غزاة فاتحون عتاة أقوياء من الناحية التنفيذية ، ولكنهم يفتقرون إلى النجاح فى دعم المكاسب وربط ما فتحوه بعضه ببعض ، وقد مد شرلمان حدوده إلى الألب والدانوب ، وتجاوز سلطانه جبال البرانس ، وامتد إلى المنطقة الواقعة جنوب روما ، ومع ذلك فإنه لم يثبت بصورة فعالة أى حد من حدوده باستثناء منطقة سكسونيا فيما يحتمل ذلك أن إعوازه إلى أسطول وجيش دائم جعل شواجل فرنسا وإيطاليا تحت رحمة المغيرين من أهل الشمال والمسلمين ، كما أن هذا الظرف نفسه أفضى بمضى الزمن إلى استقلال كثير من مناطق حدود الدولة وأطرافها فعلاً التى أصبح بعضها نواة لكثير من الدول الأوروبية التى ظهرت فيما بعد مثل النمسا ***(Austria)*** وبروسيا ، ولاشك أن إعواز شرلمان إلى سياسية مدروسة فى البحر المتوسط تعادل فى مستواها ما اشتهرت به بيزنطية من سياسة ناضجة هو الذى منعه من جلب قواته جميعاً لمهاجمة بنقنتو والضغط عليها – التى احتفظت باستقلالها طوال حكمه – ولو أنه فعل ذلك لتمت تسوية مسألة جنوب إيطاليا التى أثبتت الأيام للأجيال التالية أنها أعوص مشكلة فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وغير خاف أن الوضع الجديد بما انطوى عليه من الافتقار إلى ما كان لدى الرومان من أساليب إدارية وما اقترن بها من فرق الجيش والنزلاء

المستعمير والجهاز الإدارى البيروقراطى المتشابك والمجرد من كل صفة شخصية ، جعل تمزق الإمبراطورية أمراً لا مفر منه متى زالت يد حاكمها القوية وقد تجلت نتائج ذلك واضحة فى إيطاليا حيث بدأت النزعات الإقطاعية تبدو للعيان فعلاً بظل الحكم اللومباردى إذ ظهرت تلك النتائج فى زيادة قوة السلطات المحلية فى شئون القضاة وفرض الضرائب على حساب السلطة المركزية ، وحتى الأساقفة الذين كانوا يعملون مبعوثين ملكيين ، أخذوا يدعون أن هذه الحقوق امتيازات ووراثية ترتبط بمناصبهم على حين أن الكونتات لم يعودوا موظفين من قبل الإمبراطور يمكن عزلهم بإرادته ، بل أصبحوا أتباعاً إقطاعيين يحوزون ممتلكاتهم على أنها إقطاعات ***(Beficicia)*** ، وليس بوصفها كسباً طارئاً مرتبطاً بالمنصب ، وقد أصبح النبلاء الفرنجة والبافاريون المستقرون بإيطاليا أقطاباً محليين من أعيان ملاك الأراضى وسطع نجم ثلاث عائلات عظيمة عالياً بمناطق فريولى وتوسكانى واسبوليتو على أن عوامل تمزيق وانفصال كانت تعمل عملها فى أجزاء أخرى من الإمبراطورية فزادت كل من أكينانيا وبافاريا من استقلالها ، كما أن الانقسامات القبلية التى كان يتزعمها بألمانيا الأدواق ، قدر لها أن تكون من أهم العوائق التى اعتاقت نهضة المثل العليا الإمبراطورية التى حديث بعد ذلك فى عهد أوتو .

ولاشك أن الاتجاه الجرمانى فى فكر شرلمان السياسى يتضح تماماً من الترتيبات التى وضعها لوراثة العرض فالتقسيم الصادر فى (٨٠٦) لا يستشف فيه أى أثر لفكرة استمرار الإمبراطورية بعد وفاته ، غذ قسمت الدولة بين أبنائه الثلاثة على نحو ما فعله كلوفيس ، وخلفاؤه وقد مات اثنان من أبنائه ، وهكذا كانت الصدفة وحدها هى العامل الذى جعل جميع فتوح الفرنجة تظل تحت سيد واحد عند وفاة شرلمان فى ٨١٤ ، وقد منح الوالد قبل وفاته بسنة واحدة اللقب الإمبراطورى لابنه لويس الملقب بالورع ، ولكن كان من أوائل أعمال هذا الأخير إعادة توزيع الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة أجل إن الابن الأكبر صار فعلاً شريكاً لأبيه فى سلطاته ووريثاً له ، وإن أخويه جعلاً تابعين يخضعان له ، ولكن هذين الأخوين كانا يسطران بالفعل على ما فى مملكتيهما من موارد عسكرية ، ولم يتوانيا فى استخدامها ، ومن ثم زخرت المدة الباقية من حكم

لويس بما ثار بينهم من منازعات اقترنت بالتمرد وبما ترتب على ذلك من إعادة تقسيم الأراضى .

وثمة مرحلة أخرى فى تفكك هذه الإمبراطورية ، آذنت بها معاهدة فردان (٨٤٣) وبمقتضاها اتفق أحفاد شرلمان بعد صراع عنيف على إنشاء ثلاث ممالك تتألف من ثلاث شرائح مستطيلة من الأرض تمتد من الشمال إلى الجنوب ، فالشقة الشرقية تحتوى على جميع ممتلكات الفرنجة الواقعة شرق الراين والشقة الوسطى وهى طويلة وضيقة ، كانت تمتد من الأراضى المنخفضة مارة بأوستراسيا وبرجنديا وبروفانس ، حتى شمال إيطاليا ووسطها ، أما الشقة الغربية فتألفت من بقية فرنسا فضلاً عن منطقة الأطراف الأسبانية ، ولسنا فى حاجة إلى تأكيد أن هذا التقسيم صناعى محض ، ولم تلبث هذه الحقيقة حتى تجلت حين تمزقت المملكة الوسطى عند وفاة ملكها

ولم ينته القرن التاسع حتى استحالت إمبراطورية شرلمان إلى خمس دول منفصلة متعادية وهى : فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبرجنديا العليا وبرجنديا السفلى . (٩)

تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية :

أشرنا فيما سبق إلى تمسك الفرنجة بنظرتهم القديمة إلى الملك على أنه ارث يقسم بين أبناء الملك ، وطبيعى أن يؤدى استمرار تطبيق هذا المبدأ إلى تفتيت الدولة ثم إلى زوالها نتيجة لتقسيمها بين الأبناء ثن تقسيم كل قسم بين أبناء الأبناء وهكذا ، ومن الغريب أن شالمان – وهو السياسى البعيد النظر – لم يحاول الخروج على هذه القاعدة أو تعديلها ، فقسم إمبراطوريته الواسعة فى حياته بين أبنائه الثلاثة ، على أن وفاة اثنين من هؤلاء الأبناء وبقاء واحد – هو لويس التقى – آخر إلى حد ما تقسيم الإمبراطورية ، وقد احتفل شارلمان قبل وفاته سنة ٨١٤ بتتويج ابنه لويس التقى الذى خلفه فى حكم الإمبراطورية ، والذى لم يلبث أن أعيد تتويجه بواسطة البابا ستفن الرابع (الخامس) سنة ٨١٦م .

والوقع أن لويس التقى لم يكن بالشخص الذى يستطيع حكم إمبراطورية شارلمان ذلك أنه لم يمتلك من صفات القيادة الحربية أو الزعامة السياسية أو الكفاية الإدارية ، أو حتى قوة الشخصية ما يضمن له سيطرة كافية على الجيش والإدارة والكنيسة ، هذا فى الوقت الذى تزايد الخطر الخارجى بعد وفاة شارلمان سواء من ناحية السلاف والآفار على حدود الإمبراطورية الشرقية ، أو من ناحية المسلمين على الحدود الجنوبية ، أو من ناحية الفيكنج على الحدود الشمالية والغربية ، وزاد الطين بلة تمسك لويس التقى – وخلفائه من بعده – بسياسة تقسيم الملك بين الأبناء حتى أن لويس وضع مشروعاً سنة ٨١٧ لتقسيم إمبراطوريته الواسعة بين أبنائه الثلاثة لوثر وبيبين ولويس ، ليضمن عدم قيام خلاف بينهم بعد وفاته ، على أن لويس التقى تزوج بعد ذلك وأنجب أبناً جديداً اسمه شارل ، ومن ثم أراد إعادة توزيع المملكة توزيعاً جدياً يضمن لذا الابن الرابع حقوقه أسوة باخوته ، ويبدو أن هذا التصرف لم يرض الأخوة الثلاثة الأوائل فقامت حرب أهلية عنيفة بين الأخوة بعضهم وبعض من جهة ، وبينهم وبين أبيهم من جهة أخرى ، وكان أن توفى بيبين ثم لحق به أبوه سنة ٨٤٠ فانحصر الخلاف بين الثلاثة الباقين حتى تم الاتفاق فيما بينهم فى اتفاقية فردون الشهيرة سنة ٨٤٣ على تقسيم الإمبراطورية تقسيماً يرضيهم جميعاً ، ذلك أن شارل الأصلع أخذ نستريا وأكوتين والماركية الأسبانية على الحدود الجنوبية ، وأخذ لويس الألمانى الجزء الواقع شرقى الراين من أوستراسيا فضلاً عن بافاريا وسوابيا وسكسونيا فى حين أخذ لوثر الجزء الأوسط بين المملكتين السابقتين ، أى فريزلاند (الأراضى المنخفضة) والجزء الباقى من أوستراسيا غربى الراين زيادة على برجنديا وبروفانس وإيطاليا على أن أهمية اتفاقية فردون لا تقتصر على أنها وضعت نهاية لإمبراطورية الفرنجة الموحدة فحسب ، بل لأنها توضح أيضاً بداية مولد بعض الدول العظمى الحديثة ، ذلك أن التقسيم السابق قام – إلى حد ما – على أساس لغرى ، فكان شارل الأصلع يحكم الجزء الغربى الذى تسوده اللغة الرومانية – المحرفة عن اللاتينية – ومن ثم سنستخدم من الآن لفظ فرنسا للإشارة إلى هذا الجزء الغربى من الإمبراطورية

الفرنجية ، وحكم لويس الألمانى الجزء الشرقى الذى تسوده اللغة الألمانية ، ومن ثم سنشير إلى هذا الجزء بألمانيا ، أما لوثر فكان يحكم منطقة انتقال بين اللغتين الألمانية والفرنسية ، وقد سميت بلاده لوثرنجيا – أى مملكة لوثر – ثم حرف الاسم إلى اللورين ، وهى المنطقة التى مازلت حتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية .

ولم يلبث لوثر – صحب المملكة الوسطى – أن توفى سنة ٨٨٥ وبذلك قسمت مملكته إلى ثلاثة أقسام صغيرة بين أبنائه ، وهكذا أخذت تتكاثر الأجزاء التى انقسمت إليها الإمبراطورية الكارولنجية كما كثرت الحروب بين أبناء البيت الكارولنجى بحيث أنه لم يوجد من الأبناء الشرعيين لهذا البيت سنة ٨٨٤ سوى شارل البسيط فى فرنسا وشارل السمين فى ألمانيا ، وعلى الرغم من أن الأخير استطاع أن يوجد بين ألمانيا وإيطاليا وفرنسا توحيداً أسمياً لمدة ثلاثة سنوات ، إلا أنه عزل سنة ٨٨٧ ثم توفى فى العالم التالى ، أما فى فرنسا فإن شارل البسيط كان طفلاً فى الثامنة من عمره ، مما سهل انتقال السلطة الفعلية إلى أيدى أدودو كونت باريس الذى استطاع أن ينتزع الملك ريوسس أسرة جديدة هى أسرة كابية سنة ٨٨٨ .

وعلى هذا الوجه انهارت الإمبراطورية الكارولنجية ، وإن ظلت ذكرى شالمان – مؤسس هذه الإمبراطورية – باقية فى التاريخ لتخلد اسمه إلى جانب قيصر والإسكندر وغيرهما من الشخصيات العظيمة التى استطاعت أن تكيف التاريخ الأوروبى ، وإذا كان المعاصرون فى القرن التاسع قد رفضوا أن يشبهوا شارلمان بالإسكندر وروموولوس وهانيبال وغيرهم من أعلام العصر الوثنى ، فإن البابوات وصفوه بأنه قسطنطين الجديد كما رسمت صورته فى قصر انجلهايم إلى جوار قسطنطين وثيودسيوس . (١٠)

هوامش الباب السابع

(١) ليلى عبد الجواد : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٣٥ – ١٤٠ .
هلستر (س. ورن) : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١١١ – ١٢٤ .
كرستوفر (دوش) : تكوين أوروبا ، ص ٢٦٣ – ٢٨٩ .

(٢) ليلى عبد الجواد : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٤٠ – ١٤٤ .
هارمـان (ا.م) ، بـاراكلاف (ج) : الدولـة والإمبراطوريـة فـى العصـور الوسـطى ، ترجمة : جوزيف نسيم يوسف .
نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٧٥ – ٩٩ ، ١٣١ – ١٤٦ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ – ١٠٤ .
جيبـون (إدوارد) : اضـمحلال الإمبراطوريـة الرومانيـة وسـقوطها ، جـ ٢ ، ص ٣٧٧ – ٣٨٢ .

(٤) السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، (بيروت – ١٩٦٨) ، ص ٢٧٥ – ٢٧٨ .
جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٥١ – ١٥٦ .
وانظر المصدر الأصلى لهذا الموضع :
إينهـارد : سيرة شـارلمان ، ترجمـة وقدم لـه وعلـق عليـه د. زيتون ، (دمشـق – ١٩٨٩) ، ص ٥٧ – ١٠٣ .

(٥) محمود سـعيد عمـران : معالم تـاريخ أوروبـا فـى العصـور الوسطى ، ص ١٧٤ – ١٧٦ .
محمد محمد مرسـى الشـيخ : تـاريخ أوروبـا فـى العصـور الوسطى ، ص ٢٨٢ – ٢٨٥ .
وانظر المصدر الأصلى :
اينهارد : سيرة شارلمان ، ص ٧٤ – ٧٩ .

(٦) هارتمان (ل.م) ، باراكلاف (ج) : الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى ، ص ١٨٣ – ١٨٥ .
سعيد عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ١ ، ص ٢٠٧ – ٢١١ .
السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٢٩٩ – ٣٠٧ .

وانظر المصدر الأصلى :

اينهارد : سيرة شارلمان ، ص ٥٢ – ٦٥ .

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢١٤ – ٢١٥

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٧٦ – ١٧٩ .

نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٤٩ – ٢٦٠ .

(٨) جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، ص ١٥٧ – ١٥٩ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٧٩ – ١٨٢ .

سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢١١ – ٢١٤ .

(٩) مرس (سانت هـ.) : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٢٧٠ – ٢٧٣ .

(١٠) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢١٥ – ٢١٩ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٨٣ – ١٨٤ .

نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ١ ، ١٨٧ – ٢٠٨ ، ٢٣٠ – ٢٤٦

السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ – ٣٤٠ .